د. محمد عمارة

الطريق إلى اليقظة الإسلامية

دار الشروق

الطريق إلى اليقظة الإسلامية

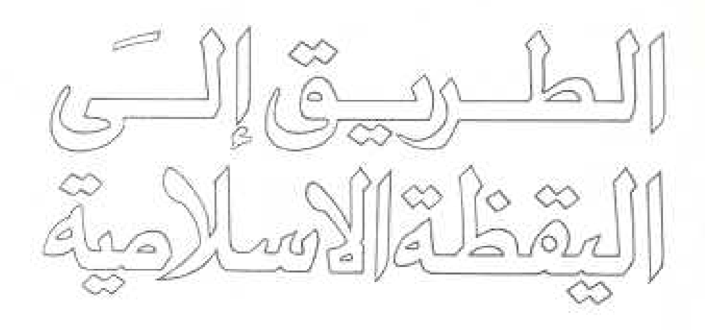
الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا: شروق ـ تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا: داشروق ـ تلكس: SHOROK 20175 LE

د. محمد عمارة



دار الشروق

الغلاف للفنان حلمي التوني

تمهيد

من « غانة » إلى « فرغانة » .. إذا انطلقنا من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ..

ومن جزر الفلبين ـ عند خط الطول ١٢٠° ـ فى الشرق إلى أقصى الغرب فى إفريقية .. إذا انطلقنا من الشرق إلى الغرب ..

ومن أعالى نهر الفلجا ـ عند خط العرض ٦٠° ـ شمالا إلى أواسط افريقية ، جنوبى خط الاستواء ..

ومن « ملقا » بالملايو شرقا إلى « ملقة » ، بالأندلس غربا ! ..

ومن غينيا الجديدة ، فى أقصى الشرق الآسيوى إلى جمهورية غينيا ، فى أقصى الغرب الإفريقى ...

يمتد عالم الإسلام وداره . وتتصل وتترابط بلاد المسلمين ..

خمس وثلاثون مليونا من الكيلو مترات المربعة ، تقوم عليها سبع وخمسون دولة ، يتحكم موقعها فى أهم الطرق والممرات للملاحة البحرية والجوية العالمية ... وفيه تتنوع المناطق المناخية : الحارة والمطيرة .. والصحراوية .. والمتوسطية ... وفى أرضه ، شبه البكر ، تقبع كنوز الثروات الطبيعية ..

فهو الأول فى الثروة البترولية ، وينتج منه ٦٠٪ من الإنتاج العالمى .
وهو الأول فى ثروة المنجنيز ، وينتج منه ٢٤٪ من الإنتاج العالمى .
وهو الأول فى ثروة الكروم ، وينتج منه ٤٠٪ من الإنتاج العالمى .
وهو الأول فى ثروة القصدير ، وينتج منه ٥٦٪ من الإنتاج العالمى .
وهو الأول فى ثروة البوكسيت ، وينتج منه ٢٣٪ من الإنتاج العالمى .
وهو الثانى فى ثروة النحاس ، وينتج منه ٢٥٪ من الإنتاج العالمى .
وهو الثانى فى ثروة الفوسفات ، وينتج منه ٢٥٪ من الإنتاج العالمى .
وهو الثالث فى ثروة الحديد ، وينتج منه ١٢٪ من الإنتاج العالمى .
وهو الخامس فى ثروة الرصاص ، وينتج منه ١٠٪ من الإنتاج العالمى .
وهو السابع فى ثروة الفحم ـ الذى تراجعت أهميته أمام البترول ـ ..

وعلى أرض هذا العالم ـ عالم الإسلام ـ ، ذى الموقع الحاكم ، والثروات الهائلة ، يعيش أكثر من مليار نسمة ، أى ربع سكان العالم .. ونسبة التوالد بينهم هى أعلى نسبة توالد فى العالم ـ ٢¼٪ ـ الأمر الذى يرشح سكان العالم الإسلامى للقفز ، قريبا ، إلى ثلث سكان هذا الكوكب الذى يعيش عليه الإنسان ! [(١)] ..

وفوق الموقع الحاكم ، والمساحة الشاسعة ، والثروات الهائلة ، ورأس المال الوفير ، والأيدى العاملة والعقول المفكرة التى تفيض ، مهاجرة ، إلى خارج الحدود ؟! ..

---

(١) انظر فى هذه الحقائق والأرقام : د. اسماعيل أحمد ياغى ، محمود شاكر [تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر] جـ١ ص ١١ ، ١٢ . طبعة الرياض سنة ١٤٠٤ هـ سنة ١٩٨٤ م . ومحمود شاكر [اقتصاديات العالم الإسلامى] ص ٢٢٨ طبعة بيروت سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩ م

فوق كل ذلك وأهم من جميعه فإن سكان هذا العالم يمتلكون ميزات « الأمة الواحدة » وطاقاتها وإمكاناتها . وتجمعهم جميعا السمات والقسمات التى تؤلف بينهم حضاريا بالحضارة الإسلامية الواحدة . وفى القلب والعقل من كل فرد من أفراد هذه الأمة الواحدة . ذات الحضارة الواحدة هذه العقيدة الدينية . التى تجمع الكل على إله واحد . ونبى واحد . وكتاب واحد . وقبلة واحدة ... وهى ذات العقيدة التى سبق وجعلت من قبائل الجاهلية الجاهلة المتناحرة خير أمة أخرجت للناس . وصنعت من البداوة أعظم المنارات الحضارية التى عرفها تاريخ الإنسان . وصاغت من شتات القبائل والشعوب جسدا حضاريا واحدا . إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى !..

وإذا كانت العقيدة لم تتغير ولم تتبدل ، لأن الذى أوحى بها ، سبحانه ، قد تعهد بحفظها .. [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون][2] .. فلماذا هذا الانقلاب إلى النقيض ؟!..

الأمة الواحدة ، غدت شراذم تشدها سلاسل التبعية الفكرية والحضارية والاقتصادية والسياسية والعسكرية إلى مراكز التوجيه والتأثير خارج عالم الإسلام . وبعيدا عن مصالح أمة الإسلام ؟!..

والموقع الحاكم ، بدلا من أن يكون ميزة تثمر القوة والمنعة ، غدا مجرد إغراء للأمم الأخرى ، بل ولشذاذ الآفاق ، بالتكالب عليه وعلى إمكاناته بالسلب والنهب والتمزيق ؟!..

---

(٢) الحجر : ٩

والثروات الهائلة ، مثلها كمثل الموقع الحاكم ، لم تعد مصدر الثراء وطاقة التقدم وسياج الاستقلال للأمة ، وإنما غدت قيودا وأغلالا تشد عالمنا وأمتنا بحبال الاستغلال الاقتصادى إلى خزائن الاحتكارات العالمية وشركاتها الكونية المتعددة الجنسيات ؟!..

وأرض الفتوحات ومواطن الفاتحين ، الذين فتحوا فى ثمانين عاما أكثر مما فتح الرومان فى ثمانية قرون ، وحرروا ـ على عكس الرومان وغيرهم من الفاتحين ـ بفتوحاتهم هذه جوهر الإنسان ومحيطه : الضمير ، والأرض ، والفكر ، والإرادة ، وقوة العمل ، والمواريث الفكرية المقهورة ، ليصوغوا من كل ذلك ـ بأدوات الإسلام ومعاييره ـ حضارة جديدة لعالم جديد ... هذه الأرض الحرة ، وأهلها الأحرار لماذا دخلوا فى الرق والاستعباد للآخرين ؟! لماذا أخرجوا من ديارهم ، تهجيرا حينا وعزلا عن امتلاك مقدرات هذه الديار فى معظم الأحايين ؟!.. بل ولماذا بلغوا فى استكانة الرق والاستعباد إلى حد المظاهرة والتأييد والتبعية للذين يقاتلونهم فى الدين والدنيا ويخرجونهم من الديار ؟!..

إن الطاقات والإمكانات لم تتبدد بعد .. بل لقد زادت بالاكتشافات الحديثة ، وهى دائمة الازدياد ...

وإن العقيدة ، التى صنعت الحضارة عندما تجسدت فى الواقع الدنيوى موظفة عبقرية الإنسان فى عمارة الأرض وتمدن المجتمع وسياسة الدولة كخليفة عن الله سبحانه وتعالى .. هذه العقيدة ، هى الأخرى لم تتبدل ، بل لقد زادتها العلوم والمعارف مضاء وكشفت لنا منها الجديد من الطاقات والإمكانات ...

فأين الخلل إذن ؟.. ولماذا هذه الغفلة التى تحول بين العقيدة وبين التجدد

الحضارى مرة أخرى ؟!.. وكيف ولماذا ومتى دخلت هذه الأمة دور التوقف فالتراجع فالجمود ؟.. وكيف السبيل إلى يقظة إسلامية تبعث حضارتنا الإسلامية من جديد، هذا البعث الذى يجعل هذه الأمة الواحدة تتقدم إلى الإنسانية، مرة أخرى بالإسلام ـ رسالتها الخالدة ـ لتسهم من جديد فى إخراج الإنسانية من المأزق الحضارى الذى يمسك منها بالخناق ؟!..

ذلك هو موضوع ومهمة صفحات هذا الكتاب..

ومن الله نستمد العون.. فهو ولى التوفيق والسداد..

دكتور

محمد عمارة

القاهرة

رمضان ١٤٠٨ هـ.

مايو سنة ١٩٨٨ م.

هل المسلمون أمة واحدة ؟

لكن البعض ، وإن سلم بوجود الإمكانات المادية والثروات الاقتصادية التى تمتلكها الدول الإسلامية ، إلا أنه يمارى فى امتلاك المسلمين خاصية وإمكانية وطاقة « الأمة الواحدة » ويدعى أنهم « أمم » لا تمتلك مالوحدة الأمة من طاقة وإمكانات ..

فقدر من أقدار الذين يعرضون لهذه القضية مواجهة مفاهيم الحضارة الغربية عن « القومية » و « الأمة » و « الشخصية الوطنية » ، لأن هذه المفاهيم ــ التى تحتل قطاعا هاما ومؤثرا من عقل « النخبة » و « الصفوة » و « المثقفين » المسلمين فى عصرنا ــ تشكك فى وحدة الأمة الإسلامية وتنكر كون المسلمين أمة واحدة ــ بالمعنى الدقيق للأمة ــ من دون الناس !..

ولقد غدت هذه المفاهيم الغربية عن « الأمة » ، فى واقعنا الراهن ، تيارات فكرية ومذاهب فى المعرفة ينخرط فيها ويتمذهب بها أولئك الذين ينكرون مقولة « وحدة الأمة الإسلامية » إنكارا شديدا .. والذين ينظرون فى أدبيات هذه التيارات والمذاهب يطالعون مصطلحات : « الأمة المصرية » و « الأمة السورية » و « الأمة التونسية » و « الأمة الفارسية » و « الأمة الأفغانية » .. الخ ... الخ .. بل ويقرءون الدراسات السيارة ــ وأحيانا المتخصصة !ــ عن « الشخصية القومية » المستقلة ، عربية ، وزنجية ، بل وليبية ، وتونسية ، ومغربية .. الخ .. الخ .. لا باعتبارها لبنات فى بناء الأمة

الإسلامية الواحدة ، وجزرا فى المحيط الإسلامى الأوسع ، وجزئيات فى الكل الإسلامى الأشمل ، وإنما باعتبار كل منها كيانا قوميا يكون شخصية قومية مستقلة تمام الاستقلال ، وأمة قائمة بذاتها من دون الناس !..

فأين الحقيقة فى هذا الموضوع ؟..

هل المسلمون أمة واحدة ؟ حتى يتوجه إليها حديث واحد عن اليقظة والنهضة ، المتحدة الخصائص والشروط ؟..

أم أنهم أمم ، بتعدد الأوطان والقوميات والأجناس التى تتوزع عالمهم الإسلامى الكبير ؟!.

* * *

إن الكثير من المعاجم والقواميس التى عرضت وتعرض بالتعريف لمصطلح « الأمة » ـ وخاصة تلك التى تأثرت بالمضامين الغربية لهذا المصطلح ـ قد تميز تعريفها لهذا المصطلح بالضبط والتحديد ، على تفاوت فى السمات والقسمات والشروط التى وضعتها وتضعها هذه المعاجم والقواميس للجماعة البشرية الجديرة بأن تكون « أمة » متميزة عن غيرها من الأمم الأخرى ..

ففى الموسوعات والمعاجم ذات التوجه الفكرى المادى ، تتصدر العوامل المادية الشروط والسمات التى تؤهل الجماعة البشرية لتكوين « أمة » ، حتى لتعتبر « السوق » و « الحياة الاقتصادية المشتركة » هى البوتقة التى تنصهر فيها الأمة ، و « الرحم » التى تولد منها ، مع ما يلزم لهذه « السوق » من « أرض مشتركة » ، تثمر ، فى الميدان الفكرى والثقافى ، « تكوينا نفسيا مشتركا » ، يربط بين هذه « الأمة » بروابط المشاعر والأحاسيس والمثل والمزاج والقيم

والذكريات والمواريث والآلام والآمال[1] .. الخ .. الخ ..

وبعض هذه القواميس والمعاجم يذهب فى التحديد والضبط لشروط « الأمة » وسماتها وقسماتها بعيدا ، حتى ليخلط خلطا واضحا بين « الأمة » و « الدولة » ، فيرى أن « الأمة : جماعة سياسية مستقلة ذات إقليم محدد ، يشترك أعضاؤها فى الولاء لمؤسسة واحدة ، مما يؤدى إلى إحساسهم بالوحدة ، وبأنهم يكونون مجتمعا . ولا يلزم لقيام الأمة أن تكون ذات أصل مشترك ، أو لغة واحدة ، أو دين أو عنصر واحد ، وإن كانت الأمم تتكون عادة اعتمادا على التاريخ المشترك ووجود عناصر ثقافية متشابهة .. »[2] .

وينحو نحو هذا النهج ذلك التعريف الذى يرى « الأمة : جملة الأفراد الذين يكونون وحدة سياسية ، وتجمع بينهم وحدة الوطن والتراث والمشاعر من آلام وآمال .. »[3] .

فهذا الخلط بين « الأمة » و « الدولة » هو ثمرة من ثمار التأثير الفكرى الغربى فى مادة ومضمون هذه المعاجم والقواميس « العربية » ، وهو ، أيضا ، خادم للأهداف الغربية من وراء إشاعة هذه المضامين فى هذه التعريفات التى تكون وتلون وتصنع فكر القراء والباحثين العرب والمسلمين فى هذا المبحث .. مبحث « الأمة » وتحديد ما هيتها ونطاقها ؟!..

فالحضارة الغربية قد صاغت « للأمة » ، أمثال هذه التعريفات ، التى خلطت بينها وبين « الدولة » ، لأن « أمم » هذه الحضارة قد امتلكت كل

---

(١) [الموسوعة الفلسفية] . وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين ، بإشراف : م . روزنتال ، ب . يودين . ترجمة سمير كرم . طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

(٢) [قاموس علم الاجتماع] تحرير ومراجعة : د . محمد عاطف غيث . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م

(٣) [المعجم الفلسفى] وضع : مجمع اللغة العربية ، بالقاهرة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م

منها ـ تقريبا ـ « دولتها » الحرة المستقلة .. وبعض « دول » هذه الحضارة ، وإن ضمت « أمما » متعددة ، فليس فى إطارها « أمم » فتتها القهر الاستعمارى فحرمها من امتلاك « الدولة » الواحدة للأمة الواحدة .. فالتطابق الواقعى قائم فى إطارها بين « الأمة » و « الدولة » ..

وشيوع هذا المفهوم ـ الذى يطابق بين « الأمة » و « الدولة » ـ فى قواميس ومعاجم الأمم التى مزقها القهر الاستعمارى الغربى ، أو المصالح الإقليمية الضيقة لبعض العشائر والفئات والطبقات ، والتى أثمرت نظم « ملوك الطوائف » ، الذين صنعهم ويرعاهم الاستعمار وهيمنة الحضارة الغربية .. إن شيوع هذا المفهوم يسهم ولا شك فى تشكيك هذه الأمم بوحدتها ، فيفقدها الاتجاه الموحد نحو استكمال وحدتها كأمة ، ونحو إقامة الدولة الواحدة التى ترسخ وحدة الأمة وتنمى سماتها وقسماتها .. وهنا تنهض المفاهيم الغربية ـ عندما توظف خارج إطارها وتزرع فى غير أرضها ـ بدورها فى مؤازرة غيرها من أدوات القهر والاستلاب التى صنعها ويصنعها الاستعمار .. وفى هذا الإطار ، وتحت هذا الضوء يجب أن نرى قيمة ومرامى ونتائج دعوى الذين ينطلقون من مفاهيم الحضارة الغربية عن « الأمة » لينكروا وحدة المسلمين كأمة ؟! ..

* * *

ومن هذه المعاجم والقواميس من برئ من آفة الخلط بين « الأمة » و « الدولة » ، مع تميزه ، فى تعريفه للأمة ، بخصائص التعريفات المنطقية الحديثة ، التى تحاول استقصاء السمات والقسمات والشروط والحدود ، كى يكون التعريف أقرب مايكون إلى التعريف « الجامع المانع » ، فنجدها تعرف

« الأمة » ـ قانونا ـ بأنها : « جماعة من الناس تجمعهم عناصر مشتركة ، كوحدة الأصل واللغة والعقيدة والتراث الفكرى ، مما يجعلهم وحدة حضارية واحدة ، ويخلق عندهم شعورا بالانتماء إلى تلك الوحدة وتعلقا بها . والأمة حقيقة اجتماعية وحضارية ، خلافا للدولة ، التى تعتبر وحدة سياسية وقانونية . ويلاحظ أن الأمة الواحدة قد تكون موزعة بين عدة دول . كما كان الشأن بالنسبة للأمة العربية ، كما أن الدولة قد تضم عناصر من أمم مختلفة . كما كان الشأن بالنسبة للإمبراطورية العثمانية قديما ، وسويسرا حديثا ... »[٤] .

تلك هى أبرز المناهج فى تعريف « الأمة » بالمعاجم والقواميس والموسوعات الحديثة ، جمعت بينها ـ رغم التمايز والاختلاف ـ خاصية الضبط والتحديد والاستقصاء للشروط والقسمات والسمات التى لابد منها كى تطلق على جماعة بشرية ما مصطلح : « الأمة » ...

ولقد تعمدنا الإشارة إلى هذه الخاصية الحديثة فى تعريف « الأمة » ، لتبرز ـ كما سيأتى ـ افتراقها واختلافها مع النهج العربى الإسلامى فى تعريف « الأمة » ، ذلك النهج الذى ابتعد ـ قاصدا وعامدا ـ عن الضبط والتحديد ، ووقف فى التعريف للأمة عند حدود « الجماعة » ، فاعتبر الجماعة ـ أية جماعة ـ التى يربطها رابط ويجمعها جامع ـ أيا كان هذا الرابط وهذا الجامع ـ اعتبرها : « أمة » متميزة عن غيرها من الأمم ... ذلك أن وراء هذا النهج العربى الإسلامى دلالات فكرية تنم عن خصوصيات حضارية للأمة العربية الإسلامية جديرة بالبلورة والتحديد عندما نبحث عن المفهوم المتميز لمصطلح « الأمة » فى حضارتنا العربية الإسلامية وذلك فضلا عن شهادة هذا

---

(٤) [المعجم الكبير] وضع : مجمع اللغة العربية ، بالقاهرة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

النهج المتميز فى تعريف « الأمة » بوحدة المسلمين كأمة واحدة ، ذات حضارة واحدة ..

مفهوم الأمة فى أصول العربية :

يقول الراغب الأصفهانى [٥٠٢هـ ــ ١١٠٨م] فى كتابه [المفردات فى غريب القرآن] ، عندما يعرض لتعريف « الأمة » : إنها « كل جماعة يجمعهم أمر ما : إما دين واحد ، أو زمان واحد ، أو مكان واحد ، سواء أكان ذلك تسخيرا أم اختيارا وجمعها : أمم ..»[٥] ... فهى ، إذا ، الجماعة يجمعها أمر ما فيميزها ، سواء أكان هذا الجامع طبيعيا وخلقة وتسخيرا ، كما هو الحال فى الخلق الإلهى لجماعات ــ أمم ــ الحيوان غير المختارة ، وفى الجوامع الطبيعية التى تجمع الجماعات ــ الأمم ــ الإنسانية .. أو كانت جوامع مختارة وضعية ، كاللغة ، مثلا ...

وإذا كان العرب والمسلمون القدماء قد اجتمعوا على هذا التعريف للأمة ، فإنهم قد اجتهدوا فى تحديد العدد المكون للحد الأدنى للجماعة التى تستحق وصف « الأمة » إذا جمعها جامع وربط بينها رابط ... فى أحد الأحاديث النبوية مايشير إلى أن هذا العدد أقله مائة فى هذا الحديث نطالع قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين ، يبلغون أن يكونوا مائة ، يشفعون إلا شُفِّعُوا فيه ..»[٦] ... ومن القدماء من اجتهد فوقف بهذا العدد عند الأربعين ..فلقد روى أن واحدا ممن سمع إحدى روايات الحديث النبوى المشار إليه ، سأل أحد رواته ــ

(٥) [دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية ــ الثانية ــ طبعة القاهرة ــ دار الشعب ــ مادة « أمة » ، من تعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر ــ ونص الراغب الأصفهانى فى [المفردات] ص ٢١ ــ

(٦) رواه النسائى ، عن عائشة أم المؤمنين.

أبو المليح ـ عن « الأمة »؟ « فقال » : أربعون.. »[٧] .. وهى تحديدات فرضها الموقف.. واجتهادات لا إلزام فيها !..

ولقد استقر ، واستمر هذا المضمون لمصطلح « الأمة » فى تراثنا اللغوى ، وعبر معاجمنا العربية[٨] ، وكتب التعريفات وكشافات مصطلحات العلوم والفنون[٩] ... ونهج ذات النهج أحدث هذه المعاجم ـ وهو [المعجم الكبير]ـ عندما استند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والشعر العربى ـ وهى ديوان اللغة العربية ومصادرها المرجعية ـ فكشف عن أصالة هذا المضمون لهذا المصطلح فى لغتنا العربية ..

فالأمة : هى الجماعة [ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر][١٠] ..

وهى : الجماعة والجنس من كل حى ، ولو لم يكن بشرا [ما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم][١١] ..

وهى : الجماعة من الناس يربطها رباط « الجيل والقرن » [كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم][١٢] ..

وهى : أمة ـ أى جماعة ـ كل نبى ، الذين أرسل إليهم ، الذين آمنوا منهم ، والذين ظلوا على كفرهم .. فهم جميعا « أمة الدعوة » ، يجمعها

---

(٧) رواه النسائى ، عن ميمونة أم المؤمنين .

(٨) [لسان العرب] لابن منظور . مادة « أمة » . طبعة القاهرة ، دار المعارف ـ بدون تاريخ ـ .

(٩) [كشاف اصطلاحات الفنون] للتهانوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

(١٠) آل عمران : ١٠٤ .

(١١) الأنعام : ٣٨ .

(١٢) الرعد : ٣٠ .

جامع الدعوة ورباطها .. والذين آمنوا منهم هم «أمة الإجابة»، يجمعهم جامع الإيمان ورابطة الإجابة ..

ثم، هى: الفرد إذا قام ـ بامتيازه وتميزه ـ مقام الجماعة .. كالرجل الذى لانظير له .. والمعَلِّم الجامع للخير [إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا](١٣) .. والمتفرد بدين الحق رغم طوفان الوثنية والضلال «يُبْعَثُ يوم القيامة زيد بن عمرو بن نفيل أمة على حدة»(١٤) ..

كما يطلق المصطلح ـ مصطلح «الأمة» ـ على «الدين والملة»، كجامع يجمع الجماعة فيجعلها أمة [وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون](١٥) ... وعلى السنة والطريقة ـ بهذا المعنى ـ .. وكذلك على «الحين والزمان»، كرابط جامع لمن يعيشون هذا الحين والزمان [ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايحبسه](١٦) ...

وأخيرا، يطلق هذا المصطلح ـ «الأمة» ـ على «المُلْك»، كرباط سياسى يجمع الرعية برباط الدولة ..

وعلى هذا الدرب سار [معجم ألفاظ القرآن الكريم]، بعد مانظر فى المواضع التى ورد فيها مصطلح «الأمة» بآيات القرآن، فقال عن «الأمة»: إنها «كل جماعة يجمعهم أمر ما، وجمعها: أمم. والأمة: الدين ..

---

(١٣) النحل ١٢٠.

(١٤) حديث مروى عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

(١٥) الزخرف: ٢٣.

(١٦) هود: ٨.

والحين ..» ذلك لأن أربعا وأربعين موضعا من مواضع ورود هذا المصطلح بالقرآن الكريم قد جاء معناه فيها دالا على «الجماعة من الناس» .. بينما جاء فى موضعين بمعنى «الحين» .. وفى موضعين بمعنى «الدين» .. وبمعنى «القدوة ومَعَلّم الخير» فى موضع واحد .. فموسى، عليه السلام، عندما ورد ماء مدين [وجد عليه أمة من الناس يسقون] (١٧) .. فهم جماعة جامعها طلب السقاية من ماء مدين .. [ومن ذريتنا أمة مسلمة لك] (١٨) جامعها إسلام الوجه لله .. [ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر] (١٩) .. جامعها التواصى بالحق والصبر على مكاره الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. [وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم] (٢٠) .. والجامع فى كل منها النظام والاشتراك فى نمط الخلقة وطرائق العيش .. الخ .. الخ ..

ولقد كانت السنة النبوية الشريفة الردف الذى سار على نهج القرآن الكريم فى استخدام هذا المصطلح ـ مصطلح «الأمة» ـ قاصدا به ذات القصد وواضعا فيه ذات المضمون .. ففيها نجد أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إن أمتى لاتجتمع على ضلالة» (٢١) .. وجامعها رباط الإجابة للدعوة المحمدية .. و «صنفان من أمتى ليس لهما فى الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية» (٢٢) .. فالعصيان لم يخرج أهله من جامع الأمة .. و: «لاتزال طائفة من أمتى قوّامة على أمر الله، لايضرها من خالفها» (٢٣) .. فكونها حزبا متميزا لم يخرجها عن جامعة الأمة .. و: «النمل أمة من الأمم» (٢٤) ..

---

(١٧) القصص: ٢٣.

(١٨) البقرة: ١٢٨.

(١٩) آل عمران: ١٠٤.

(٢٠) الأنعام: ٣٨.

(٢١) رواه ابن ماجة.

(٢٢) رواه الترمذى.

(٢٣) رواه ابن ماجة.

(٢٤) رواه مسلم.

و « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها »[٢٥] .. فهى جماعة ، أى أمة .. الخ .. الخ ..

فهى ، إذن ، الجماعة .. أية جماعة يربطها أى رباط جامع هى « أمة » ، دونما ضبط أو تحديد لروابط بعينها ، أو لعدد محدد من هذه الروابط الجامعة ..

ذلك هو المضمون الذى اجتمعت عليه أصول العربية ، وساد فى حضارتنا الإسلامية .

فهل لهذه « المرونة » التى رفضت التحديد والتقييد ، والتى تركت الباب مفتوحا للروابط المضافة إلى الجماعة ، وكذلك لحدود الجماعة ذاتها .. هل لهذا النهج المتميز وهذه الخصوصية العربية الإسلامية دلالة حضارية فى ميدان التمايز الحضارى والخصوصيات القومية يمكن رصدها عندما تكون المقارنة بين الأمم والحضارات ؟!.. وهل فى ذلك مايلقى ضوءا على أمر ذى بال فى مفهوم « الأمة » بحضارتنا العربية الإسلامية ؟!.. على النحو الذى يكون شاهدا صادقا على « وحدة الأمة الإسلامية » ؟؟......... لننظر...

* * *

أمة تنحو نحو العالمية :

فى الحضارة الغربية ، ساد مصطلح « الأمة » فى مرحلة تبلورت فيها القوميات ، على أنقاض الرابطة اللاهوتية المسيحية الجامعة .. فكان الاستقلال

---

(٢٥) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارمى وابن حنبل

والانسلاخ هو طابع المرحلة ، ثم كان الطابع الصراعى الذى تولد من تناقضات المصالح الرأسمالية عاملا هاما فى تأجيج العصبية القومية . فكان البحث ، فى إطار الفكر القومى الغربى ، عن الفواصل وعوامل التمايز بين الأمم والقوميات ، فرأينا الضبط والتحديد للسمات والشروط الجامعة المانعة فى تعريف « الأمة » ، إذكاء لروح التميز ، الذى صار بوتقة لإبراز « المغايرة » القومية ، وشحنا للوجدان القومى كى يدفع كل أمة إلى الغلبة فى حلبة الصراع على المصالح والأقاليم ، داخل أوربا أولا ، وخارجها بعد ذلك ، إن فى العالم الجديد أو القديم ، طلبا لمصادر الثروة ، والأيدى العاملة الرخيصة ، وتحقيقا للهيمنة والاحتواء ...

تلك كانت ملابسات الصياغة والتحديد لمضمون مصطلح « الأمة » فى الفكر القومى للحضارة الغربية ..

ولما كانت ملابسات صياغة مضمون هذا المصطلح فى حضارتنا العربية الإسلامية مغايرة تمام المغايرة ومخالفة كل الاختلاف لتلك الملابسات الغربية ، بل وعلى النقيض منها ... فلقد تميز عندنا هذا المفهوم والمضمون لمصطلح « الأمة » تميزا كبيرا ..

فالطور العربى الإسلامى لحضارتنا ، الذى تبلور على أرض أمتنا بعد الإسلام ، والذى تعيشه هذه الأمة ، كامتداد متطور لمواريثها الحضارية والفكرية التى سبقت ظهور الإسلام .. هذا الطور العربى الإسلامى لم يكن طور انسلاخ عن رباط أشمل ، ولااستقلال عن كيان أكبر ، ولابحث عن العوامل المميزة ، والفواصل والحواجز .. وإنما كان على العكس من ذلك ، طور جمع وتأليف للفكر الحى المتوقد الذى جاء به الإسلام مع المواريث

الفكرية والحضارية التى وجدها العرب المسلمون فى البلاد التى دخلت فى عالم الإسلام .. وللجماعة العربية المسلمة التى انطلقت من شبه الجزيرة مع الشعوب التى توحدت فى إطار الدولة العربية الإسلامية الجامعة .. فلم يكن هم هذه الحضارة ، وجماعتها البشرية ـ ومن ثم لغتها العربية ـ البحث عن مايميز ويحدد ويفصل ، طلبا للاستقلال القومى عن كيان أوسع ورابطة أشمل ، وإنما كان همها هو البحث عن عوامل التأليف لأمة أكبر وجامعة أشمل وحضارة أوسع .. ولذلك ، فلقد وقفت هذه الحضارة ـ ولغتها العربية ـ بمضمون ومفهوم « الأمة » عند مضمون الرباط الجامع للجماعة ، أيا كان هذا الرباط ، وذلك حتى يظل الباب مفتوحا للتأليف والاستيعاب ، وحتى تمتد مساحة تأثير وفعالية « النواة الإسلامية » فتشمل دائرة حضارتها كل الجماعات التى تدخل دائرة حضارة الإسلام ، حتى ولو لم تتدين بدين الإسلام .. ولقد دعم من هذا التوجه : عالمية الرسالة الإسلامية ، وأممية العقيدة فى الدين الإسلامى .. وأيضا كونها الرسالة الخاتمة ، التى جاءت لتستوعب ميراث الماضى ـ بالإحياء والتجديد ـ ولتصوغ منه ـ بمعايير الإسلام ـ حضارة مستقبلية ، ذات نزوع عالمى ، لاتنكر التمايزات بين الجماعات البشرية ، ولاتحاربها ، ولكنها تهذب شذوذها ، لتوظف التعددية القومية فى بلورة وإنماء وتطوير حضارة ذات نزوع عالمى .. لهذا كان وقوف هذه الأمة عند الحد الأدنى من الروابط فى مضمون « الأمة » ومفهومها ، طلبا للحركة ، ونزوعا للامتداد ، وتوجها للتأليف ، ورفضا لعصبية الانغلاق وتعصب الاستعلاء على غيرها من الجماعات والأمم والحضارات ..

لقد كان توجهها للامتداد الاندماجى ، لا للاستقلال الانفصالى ، وكان اجتماعها على أن « تحققها » إنما هو مهمة دائمة ومستمرة ، لا بالمسخ والنسخ

للمواريث والقسمات الحضارية الأخرى ـ كما حاولت وتحاول ذلك الحضارة الغربية مع غيرها من الحضارات ـ وإنما بالإحياء والتجديد والتطوير والاستيعاب لما هو قابل وصالح للإحياء والتجديد والاستلهام من المواريث الفكرية والحضارية على اختلاف مواطنها وميادينها وألوانها ..

إنه منطق متميز .. وتوجه متميز ، أثمر هذا التميز لمفهوم « الأمة » فى حضارتنا العربية الإسلامية عنه فى غيرها من الحضارات .. وعنه فى الحضارة الغربية على وجه الخصوص ..

● ففى قريش ، بمكة ، نزل الوحى الإلهى على المصطفى محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالة الإسلام .. فكانت « للتوحيد الدينى » الإسلامى ـ الذى بلغ الذروة فى نقاء التنزيه والقمة فى التجريد ـ كانت لهذا « التوحيد الدينى » آثاره العظمى فى « توحيد هوية » الجماعة البشرية العربية ، التى كانت الوثنية المتعددة تجسد وترمز إلى تشرذمها وتمزقها القبلى فى الجاهلية .. وذلك دون أن تعنى هذه « الجامعة القومية العربية » سيادة قريش ، ولا تجاهل التمايزات القبلية أو القفز على واقعها .. وإنما كانت هذه الظاهرة التوحيدية الوليدة « تأليفا » للقبائل المتميزة ، و « وحدة » لاتنكر « التعددية » .. حتى لقد عدت من معجزات الإسلام التى أبدعها الله ، سبحانه ، فى الواقع الإسلامى الجديد [وألّف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم ، إنه عزيز حكيم] (٢٦) ..

ولم يقف هذا الوليد الحضارى بنطاق الأمة ومفهومها عند حدود

---

(٢٦) الأنفال : ٦٣ .

« القبائل العربية » ، فلقد كانت مرحلة تجاوزها التأثير التوحيدى ، الذى بدأ من قريش ، مستعينا بها على إنجاز أكبر فى دائرة أوسع ، هى دائرة وحدة « القبائل » و« الشعوب » .. فكما أنجز الإسلام وحدة القبائل ، دونما إنكار لتمايزها ، توجه إلى إنجاز وحدة « القبائل » و« الشعوب » ، بمعيار « التأليف » وفى إطار « التعارف » ، الذى لايلغى التمايز ، ولايقفز على الخصوصيات ، وإن أتاح الفرص وخلق الأطر للتفاعل والتوحيد .. فمع التعددية تكون وحدة الأمة الطامحة إلى الامتداد الطوعى [يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير][27] .. فالاتجاه إلى الأمة العالمية ، لاينكر أن التعددية هى سنة من سنن الله فى الكون والخليقة .. [ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين][28] ..

إنها أمة « دائمة التَّحقُّق » .. بل إن ديمومة هذا التَّحقُّق ـ عمقا واتساعا ـ هو معيار حيويتها ونهوضها برسالتها العالمية والخالدة التى أرادها لها الله ! ..

ولذلك ، فلقد وازنت هذه الأمة ، وهى تحقق امتدادها وتبلور حضارتها بين « الخاص » و« العام » .. فكما أنجزت « وحدة » القبائل ، دون إلغاء للقبيلة ، وإنما بجعلها لبنة فى بناء أشمل ، هو بناء الأمة الجديد ـ وذلك بعد أن كانت كيانا مستقلا تماما ومستعصيا على الترويض ـ .. كذلك وجدناها تقيم ـ بواسطة « التعارف » ـ الذى هو التفاعل الطوعى ـ رباطا جامعا بين « القبائل » و« الشعوب » ، حتى لقد احتضن محيطها الجامع ، كأمة وحضارة ، « الجزر القومية » ، فجمعها جميعا بخيوط الحضارة الإسلامية ،

---

(٢٧) الحجرات : ١٣ (٢٨) الروم : ٢٢

دون أن ينكر عليها التمايز القومى المبرأ من العصبية العرقية وضيق الأفق الجنسى .. فعرف مفهوم الأمة ، فى فكرنا الحضارى ، وفى تجربتنا التاريخية وميراثنا الاجتماعى الدوائر التى تبدأ من « الفرد » إلى « الأسرة » ـ أو القبيلة والعشيرة إلى « الشعب » ، إلى « الأمة » ـ بالمعنى القومى ـ إلى « الجامعة الإسلامية » .. مع السعى الحثيث إلى تعميق الرباط الجامع .. وإلى مد نطاقه إلى أفق جديد .. بل لقد مدت الدائرة الإسلامية مع الدائرة الإنسانية الخيوط والعلائق والأسباب ..

لقد كان « الإسلام » ـ الدين ـ وكانت « الجماعة العربية الإسلامية » ـ كأمة ـ وكانت « الحضارة العربية الإسلامية » ـ كإبداع تزامل فى صنعه : الوحى الدينى وعلومه مع المواريث الفكرية والحضارية لشعوب البلاد التى دخلت عالم الإسلام ـ وكانت « الدولة » كأداة للدين والحضارة ـ .. كان جميع ذلك ، فى مسيرتنا الحضارية وتجربتنا التاريخية وممارساتنا الاجتماعية أشبه مايكون بالدوائر الدائمة الاتساع ، حركها ذلك المصطفى ، محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ منذ أن أتاه وحى ربه قائلا : [اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان مالم يعلم][٢٩] ..

● ففى « الدين » .. بدأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل « أمة الدعوة » الأقربين من عشيرته .. [وأنذر عشيرتك الأقربين][٣٠] .. ثم عمم الدعوة على نحو جعل نطاق « أمة الدعوة » كل القوم والعشيرة ـ وهم « الجماعة

---

(٢٩) العلق : ١ ـ ٥ .

(٣٠) الشعراء : ٢١٤ .

الذين تربط بعضهم ببعض روابط دم أو نسب أو اجتماع ..» [٣١] ..

ولقد حدّث الله ، سبحانه وتعالى ، هذه الأمة عن خصوصيتها القومية التى تميزها ، بالمجد وبالمسئولية ـ معا ـ فى إطار هذه الدعوة العالمية ، فقال لها عن القرآن الكريم ، عبر خطابه لنبيه ، عليه الصلاة والسلام : [فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون] [٣٢] .. وفى ذات الوقت كان حديثه القرآنى عن عالمية الدعوة .. فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول الله إلى العالمين [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] [٣٣] .. [تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا] [٣٤] .. وقرآنه الكريم موجه إلى العالمين [قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين] [٣٥] .. [وماتسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين] [٣٦] .. [وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين] [٣٧] ..

وفى الحديث النبوى الشريف يتحدث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن اختصاص رسالته بالعالمية ، فيقول : « أعطيت خمسا لم يُعطهن أحد قبلى : كان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثتُ إلى كل أحمر وأسود . وأُحلّت لى الغنائم ، ولم تحلّ لأحد قبلى . وجُعلَت لى الأرض طيبة طهورا ومسجداً ، فأيما رجل أدركته

---

(٣١) [معجم ألفاظ القرآن الكريم] وضع : مجمع اللغة العربية ، بالقاهرة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
(٣٢) الزخرف : ٤٣ ، ٤٤ .
(٣٣) الأنبياء : ١٠٧ .
(٣٤) الفرقان : ١ .
(٣٥) الأنعام : ٩٠ .
(٣٦) يوسف : ١٠٤ .
(٣٧) التكوير : ٢٥ ـ ٢٧ .

الصلاة صلى حيث كان . ونُصرتُ بالرعب بين يدى مسيرة شهر . وأعطيتُ الشفاعة »[38] ..

فشرف العرب فى الإسلام ، الذى تمثل فى اصطفائهم ـ كجماعة ـ أمة ـ لحمل رسالته إلى العالمين .. يزامل عالمية الدعوة ، ولايحتكرها ... إنه الاتساق مع المفهوم العربى الإسلامى المتميز لمصطلح « الأمة » ونطاقها الذى لاتعرف آفاقه الحدود !..

● وفى « الدولة » .. كانت البداية « عربية » ـ بالمعيار القومى العربى ـ .. ثم انداحت دائرة الدولة وبنية تكوينها لتستشرف « العالمية » ، التى صنعت ثوبها من نسيج سداه « العروبة الحضارية » ولحمته « الإسلام الحضارى » ؟!.. صانعة ذلك المزيج الحضارى الجديد والفريد !..

لقد تأسست دولة المدينة ، التى أقامها المسلمون الأوائل تحت قيادة النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفق معيار « العروبة الحضارية » .. ووجدنا « دستورها » ـ الذى اشتهر فى التاريخ ومصادره بـ « الصحيفة » وبـ « الكتاب » ـ يعدد « اللبنات » التى كوّنت بناء الرعية فى هذه الدولة ، فإذا هى جميعا « قبائل عربية » .. وفى هذا « الدستور » وجدنا التميز بين « أمة الدين » و« أمة السياسة » ، كما وجدنا الربط بينهما .. فالوحدة قائمة على التمايز... القبائل تتوحد فى الأمة .. والعرب المؤمنون ـ من المهاجرين والأنصار ـ هم « أمة الدين » .. وهم مع القطاعات العربية المتهودة من قبائل المدينة يكونون « أمة واحدة » .. أمة السياسة والقومية .. فالمسلمون « نواة » ، منها تبدأ دائرة الدولة ، لتنداح شاملة العرب المتهودين ، استشرافا لدائرة

---

(38) رواه البخارى ومسلم والترمذى والدارمى وابن حنبل

أوسع .. دائرة الشعوب الأخرى والقوميات الأخرى .. وعن هذه الحقيقة حول مفهوم الأمة فى الدولة العربية الإسلامية الأولى يقول « دستور » دولة المدينة :

« هذا كتاب من محمد النبى [رسول الله] بين **المؤمنين والمسلمين** من قريش و [أهل] يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . **أنهم أمة واحدة من دون الناس** . وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولامُتناصَر عليهم .. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين . **وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين** . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وأن ليهود بنى النجار .. وبنى الحارث .. وبنى ساعدة .. وبنى جُشم .. وبنى الأوس .. وبنى ثعلبة .. وبنى الشُطَيْبَة مثل ماليهود بنى عوف .. وجفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .. وموالى ثعلبة كأنفسهم .. وأن بطانة يهود كأنفسهم .. وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دُعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دَعَوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين . وعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلَهم . وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ... »[٣٩] .

فبعد أن عدد « الدستور » ـ وهو يحصر لبنات الأمة والرعية السياسية

---

(٣٩) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٥ ـ ٢١ . جمعها وحققها : د. محمد حميد الله الحيدر آبادى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

للدولة ــ القبائل العربية التى آمنت بالإسلام ــ من المهاجرين والأنصار ــ ومن لحق بهم وجاهد معهم .. ذكر أنهم أمة الدين ــ « **أمة واحدة من دون الناس** » .. بعد ذلك شرع فعدد القطاعات المتهودة من القبائل العربية بالمدينة .. أى اليهود العرب ــ الأميين ــ لا العبرانيين ــ [ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون](٤٠) .. وجعل لهؤلاء العرب المتهودين ــ مع بطانتهم ومواليهم ــ كامل الحقوق والواجبات المقررة للمواطنة فى الدولة الجديدة ، مقررا أنهم « **أمة مع المؤمنين** » .. فالأمة هنا ــ الجماعة ــ ومنذ هذا التاريخ المبكر فى مسيرة الإسلام لم تقف حدود « الأمة ــ الجماعة » ــ عند « أمة الدين » ، وإنما تجاوزتها ، دون أن تسقطها .. **لقد انداحت الدائرة ، دون أن تهمل المركز أو تتخلى عنه بأى حال من الأحوال .. فالمنطلق قائم وفاعل وقائد ، والاستشراف للآفاق الأوسع والأبعد دائم ، لأنها أمة الاستيعاب والإضافة والاستلهام والتمثل ، وليست أمة الانسلاخ والتشرذم والحدود والسدود والتعصب والعدوان على الأغيار** .

ولقد فهم البعض ــ بالخطأ أو بسوء القصد ــ أن ماحدث من صراع بين دولة المدينة وبين اليهود العبرانيين ، سكان الواحات الزراعية من حول يثرب ، وهو الصراع الذى انتهى بإجلائهم عن مواقعهم ، فهم البعض أن هذا الحدث قد مثل تراجعا إسلاميا عن هذا المفهوم المرن والمتميز « للأمة » ، إذ عادت أمة للدين فقط ، ووقفت حدودها عند المؤمنين والمسلمين دون سواهم .. فقال هذا البعض : « .. إن الصبغة السياسية الغالبة فى هذه الأمة الجديدة إنما كانت مؤقتة فلم يكد محمد يحس أن مركزه قد توطد فى المدينة ،

---

(٤٠) البقرة : ٧٨ .

ويرى انتصاره فى حروبه مع كفار مكة ، حتى استطاع أن يُخرج من جماعته السياسية الدينية أهل المدينة (خصوصا اليهود) الذين لم يعتنقوا الدين الذى جاء به ، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم ، وصار يعتبر المسلمين أمة ، ويؤكد صفاتهم الخُلقية والدينية ، ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذين كان مخالفا لهم ..»[٤١].

ومكمن الخطأ فى هذا الفهم هو الخلط بين «اليهود العرب» ، الذين عدد دستور-دولة المدينة قبائلهم ، وكلها قبائل عربية صريحة النسب العربى[٤٢] ، وبين القبائل «اليهودية العبرانية» ، والتى لم يأت لها ذكر فى هذا الدستور .. فالأولون كانوا عربا ، وكوّنوا مع العرب المؤمنين بالإسلام دولة عربية قومية ، أمتها - جماعتها - عربية متعددة الأديان .. والآخرون - من أمثال بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة - ولم يرد لهم ذكر فى هذا الدستور - كانوا عبرانيين ، قام بينهم وبين دولة المدينة حلف - يختلف عن علاقة المواطنة - فلما نقضوه قاتلهم النبى - صلى الله عليه وسلم - وانتهى الصراع معهم بالإجلاء .. أما القطاعات العربية المتهودة ، التى كونت جزءا أصيلا من «أمة السياسة» ، فلقد اعتنقوا الإسلام ، ودخلوا ، من ثم ، فى أمة الدين والسياسة معا ..

ثم ، إن معيار «العروبة» الذى حكم إطار الأمة ومضمونها ومفهومها ، كان هو الآخر معيارا مرنا ، ومستقبليا ، وسبيلا إلى التوسع فى الإطار واستمرار الاستيعاب لأقوام آخرين .. فقبل الإسلام كانت المعايير العرقية والقبلية هى السائدة فى تحديد أفق «العروبة» ومفهومها .. فجاء الإسلام

---

(٤١) [دائرة المعارف الإسلامية] مادة «أمة» ، تحرير : ر . باريه R.Paret

(٤٢) [معجم القبائل العربية القديمة والحديثة] لعمر رضا كحالة . طبعة دمشق سنة ١٩٦٨ م .

ليرفضها .. وعنها قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « دعوها فإنها منتنة »[٤٣] ... ومضى يعلّم أصحابه ، رضى الله عنهم ، أن حب الإنسان لقومه مطلوب ، لكن العصبية الظالمة هى المرفوضة ... وعندما سأله الصحابى واثلة بن الأسقع :

« ـ يارسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ » .

أجابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ـ لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم »[٤٤] .

وبدلا من هذه العصبية الجاهلية ، وبديلا عن الإطار العرقى والقبلى للعروبة الجاهلية ، أرسى الإسلام للعروبة مفهوما حضاريا ، وحدد لأمتها معيارا فكريا وثقافيا .. فخطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الناس ، عندما بلغه أن منهم من ينكر على الذين لم ينحدروا من أصلاب عربية ـ مثل بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ـ رغم بلوغهم فى الاستعراب درجة الفقه للقرآن العربى المعجز ، والوعى بمرامى أسراره البلاغية ، ورغم أنهم قد محضوا ولاءهم للعروبة ، وأخلصوا انتماءهم لمجتمعها الإسلامى ـ عندما أنكر البعض عروبة الذين استعربوا حضاريا وفكريا وولاء وانتماء ، أبصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه بإزاء المفهوم الجاهلى للعروبة ، فغضب ، ودعا الناس وخطبهم فقال : « ... أيها الناس ... **ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى** ... »[٤٥] ..

---

(٤٣) رواه البخارى والترمذى . (٤٤) رواه ابن ماجة وابن حنبل .

(٤٥) [تهذيب تاريخ ابن عساكر] جـ ٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

فمنذ ذلك التاريخ ، ووفقا لهذا المعيار الحضارى والثقافى الذى حدده الإسلام « للعروبة » ، اتسعت دائرة الأمة العربية والجماعة العربية ، لتضم - وعلى قدم المساواة - كل الذين تعربوا بالفكر والحضارة والانتماء والولاء ، مع الذين انحدروا من أصلاب عربية صريحة .. فكما انفتح معيار الأمة ومفهومها ليضم العرب من غير المسلمين ، انفتح ، كذلك ، ليضم عرب الحضارة والثقافة ، من ذوى الأصول العرقية غير العربية .

وإعمالا لهذا المعيار الحضارى الذى يفتح أبواب « الأمة » ويوسع دائرة الجماعة ، نهضت « الدولة » بتنظيم اجتماعى دمجت به « الموالى » - أرقاء الأمس الذين حررهم الإسلام - فى القبائل التى كانوا فيها أرقاء .. فلقد كانت القبيلة - مثلها مثل الأسرة - اللبنة الأولى فى كيان الأمة .. فبعد أن كانت حدودها مقصورة على صرحاء النسب العربى ، غدت تضم الموالى أيضا .. أى أن دائرة القبيلة ومعيارها لم يعد ، هو الآخر ، عرقيا بحتا !.. ولهذا التنظيم الاجتماعى سن الرسول - صلى الله عليه وسلم - القوانين ، فى صورة أحاديث ، من مثل : « مولى القوم منهم »[٤٦] .. و« الولاء لُحْمة كلُحمة النسب »[٤٧] .. **فلم تعد أرحام الولادة النسبية هى فقط أرحام الجنس والعرق ، وإنما غدت العروبة الحضارية والفكرية والثقافية رحما جديدا تولد منه الأمة والجماعة ميلادا جديدا وفق هذا المعيار الحضارى الجديد !...**

وبعد عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - انتقلت الدولة بإطار الأمة ومفهومها - وفقا لمناهجه الإسلامى - إلى أفق جديد .. **فالمد الذى بدأ من**

---

(٤٦) رواه البخارى .

(٤٧) رواه أبو داود والدارمى .

قريش ، فألّف بين القبائل على اختلاف دينها ، ودمج فيها كل من استعرب حضاريا ، على اختلاف أصولهم العرقية .. هذا المد قد امتد ، بالفتوحات الإسلامية ، إلى ماهو أبعد من القبائل ، عندما ضمت الدولة « الشعوب » من أهل العراق وفارس والشام ومصر وغيرها من البلاد المتحضرة ، التى تجاوزت طور البداوة فكان سكانها « شعوبا » لا « قبائل » .. فبدأت مرحلة جديدة ونطاق جديد فى مفهوم الأمة ، اتخذت الدولة له المعيار القرآنى ، معيار « التعارف » ، الذى يعنى التفاعل القائم فى إطار الوحدة التى لاتنكر ولاتتجاهل التمايزات ..

وعندما نجم قرن الشعوبية ، التى تُحقِّر كل ماهو عربى ، لتصل بالعداء الظاهر للعروبة إلى هدف مستور هو الكيد للإسلام ... وعندما استفزت الشعوبية واستنفرت العصبية القبلية العربية ، على عهد الدولة الأموية .. وجدنا عقلاء الأمة ومفكريها ينهضون لإحياء النهج الإسلامى التأليفى ، فيكتبون ـ بل ويفردون المؤلفات ـ لتذكير الناس بالمعيار الحضارى لمفهوم الأمة ، والأفق الفكرى والثقافى غير المحدد لإطار الجماعة ... وكان الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر [١٦٣ ـ ٢٥٥هـ ـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩م] فى مقدمة الذين أبدعوا فى هذا الميدان ، فوجدناه يفرد لهذا الغرض بعض كتبه ، وفى مقدمة أحدها يعلن عن هذه المهمة فيقول : « ... وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة ، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لايعرف منهم موضع التفاوت فى النسب ، وكم مقدار الخلاف فى الحسب ، فلا يغيّر بعضهم مغيّر ، ولايفسده عدو بأباطيل مموهة ، وشبهات مزورة ، فإن المنافق العليم ، والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لهم الباطل فى صورة الحق ،

ويلبس الإضاعة فى ثياب الحزم؟!..»[٤٨].

ثم يمضى الجاحظ فيذكّر أطراف النزاع بالمعيار الحضارى للعروبة والمفهوم المتفتح وغير العرقى أو المغلق للأمة والجماعة، وكيف أن اختلاف النسب بين القحطانيين والعدنانيين لم يحل دون اندماجهم فى الأمة الواحدة كل الاندماج عندما وحدتهم الحضارة والثقافة واللغة والشمائل، على حين أن وحدة النسب بين العدنانيين ـ أبناء إسماعيل، عليه السلام ـ وبين العبرانيين ـ أبناء أخيه إسحاق، عليه السلام ـ لم تجعلها أمة واحدة، وذلك لاختلاف الفكر والثقافة واللغة والشمائل ـ أى الحضارة ـ... **فى الفكر الإسلامى، ذى الطابع والنزوع العالمى، والمفتوح لاستيعاب الموروث القديم والإبداع الجديد، تتمثل رحم جديدة ستظل دائمة الولادة لآفاق جديدة تتسع بها دائرة الأمة، ويرحب بها مفهومها كلما امتدت بأهلها البصائر والأبصار إلى الجديد من الآفاق**... يمضى الجاحظ ليتحدث عن هذه الحقائق فى مفهوم الأمة، فيقول: «إن العرب قد جعلت إسماعيل ـ وهو ابن أعجميين ـ [إبراهيم وهاجر] ـ عربيا، **لأن الله فتق لهاته**[٤٩] **بالعربية المبينة**، ثم فطره على الفصاحة، **وسلخ طباعه من طباع العجم... وسواه تلك التسوية، وصاغه تلك الصياغة، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها... فكان أحق بذلك النسب، وأولى بشرف ذلك الحسب... وإن العرب لما كانت واحدة، فاستووا فى التربية، وفى اللغة، والشمائل، والهمة، وفى الأنف والحمية، وفى الأخلاق والسجية، فسُبكوا سبكا واحدا، وكان القالب واحدا**،

---

(٤٨) [رسائل الجاحظ] جـ١ ص٢٩. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

(٤٩) اللهاة: جزء من أقصى سقف الفم، مشرف على الحلق.

تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط . وحين صار ذلك أشد تشابها فى باب الأعم والأخص ، وفى باب الوفاق والمباينة من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق فى الحسب ، **وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى** ، حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى إسحاق ، وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك فى جميع الدهر ، لبنى قحطان .... **إن هذه المعانى قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة** ... »[50] ؟! ..

هكذا رحب مفهوم الأمة واتسع أفق معيارها ، وانفتح واسعا باب استيعابها للقديم والجديد ، فانداحت دائرتها فى « الدين » وفى « الدولة » ، مؤكدة ، دائما وأبدا ، أهليتها لتكون « الأمة الأممية » ، التى تستوعب المواريث الحضارية القديمة ، بالإحياء والتجديد والتمثل ، لتهيمن عليها بتحويلها إلى غذاء ومصدر قوة لهويتها المتميزة ، ولتحتضن الجماعات التى تدخل إلى دائرة الإسلام ـ الدين أو الحضارة ـ فتمد بهذا الاحتضان دائرة الأمة ومفهومها كلما تيسر هذا الاحتضان والاستيعاب ...

● ولقد كان هذا الذى صنعته أمتنا العربية الإسلامية على جبهة « الدين » و « الدولة » نموذجا لما صنعته على جبهة « الحضارة » ...

فبعد نحو قرنين من ظهور الإسلام ، تبلورت على أرض هذه الأمة معالم هذا الطور العربى الإسلامى من أطوار الحضارة الممتدة لشعوب هذه الأمة إلى أعمق أعماق التاريخ القديم ..

فالدين الجديد قد أعلن أن الإيمان به هو : تصديق بالقلب يصل إلى

---

(٥٠) [رسائل الجاحظ] جـ١ ص ٢٩ ـ ٣١ ، ١١ ـ ١٤ .

درجة اليقين .. ومن ثم فإن تحصيله لايمكن أن يتأتى بالإكراه [لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرشد من الغى] (٥١) .. وعن العلاقة بينه وبين أمم الرسالات السماوية السابقة ، أعلن الإسلام إيمانه « بالتعددية » فى إطار « الوحدة » .. فدين الله واحد ، أزلا وأبدا .. ومحمد [رسول من عند الله مصدق لما معهم] (٥٢) من عقائد الدين ومقاصده .. والقرآن [كتاب من عند الله مصدق لما معهم] (٥٣) .. والله ، سبحانه وتعالى ، فى العقائد ، قد [شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه] (٥٤) .. [قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أُوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون] (٥٥) .

ولقد مد هذا الإعلان عن « وحدة الدين » خيوط وأسباب « التعددية » ، التى تنحو نحو استيعاب مايمكن استيعابه من المواريث الدينية لأمم الرسل السابقين .. وزاد من متانة هذه الخيوط والأسباب ما أعلنه الإسلام من « تعدد الشرائع الدينية » ، أزلا وأبدا .. فإرادة الله هى فى تعددية الشرائع والمناهج والسبل فى إطار « وحدة الدين » ، الأمر الذى ميز الإسلام فجعله يقبل التعايش مع أهل الشرائع السماوية الأخرى ــ الكتابية ، كاليهود والنصارى ــ ومن اعتبروا أصحاب « شبهة كتاب » ، كالمجوس .. ثم قيست عليهم ديانات وضعية كديانات الهند والشرق الأقصى ، تعبيرا عن المفهوم المرن والمفتوح للجماعة والأمة المتدينة ــ غير المشركة والجاحدة ــ

---

(٥١) البقرة : ٢٥٦ .
(٥٢) البقرة : ١٠١ .
(٥٣) البقرة : ٨٩ .
(٥٤) الشورى : ١٣ .
(٥٥) البقرة : ١٣٦ .

وتجسيدا لهذا المفهوم الذى أرساه الإسلام منذ ظهوره ، وطور الفقهاء تطبيقاته وفق ظروف الزمان والمكان .

لقد كانت المرة الأولى التى يأتى فيها دين يعلن رسوله وكتابه « التعددية » فى الشرائع [إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا .... وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوارة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور .... وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ..... وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة](٥٦) .

وعندما وقف أئمة تفسير القرآن الكريم أمام هذه الحقيقة ، قالوا ـ معبرين عن هذا الباب من أبواب « التعددية » و« التنوع » فى إطار « الوحدة » ـ قالو : « إن الشرعة والشريعة هى الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة .... ومعنى الآية أن الله قد جعل التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا فى الشرائع والعبادات . والأصل : التوحيد ، لااختلاف فيه [ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة](٥٧) ، أى لجعل شريعتكم واحدة ... »(٥٨) ... فكانت المرة الأولى التى تأتى فيها شريعة سماوية لاتحتكر لأهلها طرق النجاة ، وإنما تقر بتعدد السبل والمناهج والطرق ـ « الشرائع » ـ فى إطار وحدة الدين والاتحاد على التوحيد فى الألوهية والإيمان بالبعث والعمل الصالح .. فتقيم ، بهذه « التعددية » ، أسباب الغنى والثراء فى ميدان

---

(٥٦) المائدة : ٤٤ـ٤٨ .

(٥٧) المائدة : ٤٨ .

(٥٨) [الجامع لأحكام القرآن] للقرطبى . جـ٦ ص٢١١ . طبعة القاهرة ـ دار الكتب المصرية ـ سنة ١٩٦٦ .

الحضارة والثقافة ، موسعة بذلك مفهوم الأمة الحضارى ومضمونها ونطاقها .. بل لقد وجدنا أئمة تفسير القرآن الكريم يرون فى هذه التعددية : « الحكمة » الإلهية و« المشيئة » الربانية من وراء خلقه ، سبحانه وتعالى ، للناس .. ففى تفسير قول الله ، سبحانه : [ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم][59] ، يقول سعيد بن جبير [٤٥ ـ ٩٥هـ ٦٦٥ ـ ٧١٤م] : إن المراد بالأمة الواحدة « ملة الإسلام وحدها » ، أى شريعة الإسلام وحدها .. أما مجاهد ابن جبر المكى [٢١ ـ ١٠٤هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٢م] وقتادة بن دعامة السدوسى [٦١ ـ ١١٨هـ ٦٨٠ ـ ٧٣٦م] فإنهما يفسران [ولايزالون مختلفين] بحتمية بقاء الناس « على أديان ـ أى شرائع ـ شتى » .. أما الحسن البصرى [٢١ ـ ١١٠هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م] ومقاتل بن سليمان [١٥٠هـ ٧٦١م] وعطاء بن دينار [١٢٦هـ ٧٤٤م] فإنهم يفسرون قوله سبحانه [ولذلك خلقهم] بأن « الإشارة للاختلاف ، أى وللاختلاف خلقهم .. »[60] ؟!.

فإذا ماجاء علماء الأصول ، وجدناهم يتحدثون عن شرائع الأمم السابقة ـ بلسان السرخسى [٤٨٣هـ ١٠٩٠م] فى كتابه [أصول الفقه] ـ فيقول : « وأصح الأقاويل عندنا أن شريعة من قبلنا هى شريعة لنبينا عليه السلام مالم يظهر ناسخه ... »[61] .

ولقد كان لهذا النهج الذى نهجه الإسلام فى الاعتراف بالتعددية فى

---

(٥٩) هود : ١١٨ ، ١١٩ .

(٦٠) [الجامع لأحكام القرآن] جـ ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٦١) جـ٢ ص١٠١ ، ١٠٢ . ـ انظر : د. رضوان السيد [الأمة والجماعة والسلطة] طبعة بيروت سنة ١٩٨٤ م .

الشرائع ، والتعايش معها ، واعتماد مالم ينسخ منها ، ليستوعبه ويتمثله فى نسيجه الحضارى ، موسعا بذلك مفهوم الحضارة العربية الإسلامية ونطاقها .. كانت لهذا النهج آثاره العظمى فى دفع غير المسلمين إلى الإسهام فى البناء الحضارى تحت رايات العروبة ودولتها والإسلام وحضارته ... فكما أحيا الإسلام المواريث الحضارية لشعوب البلاد التى دخلت عالم الإسلام بعد مواتها ، كذلك وجدناه قد استنفر أبناء الشرائع غير الإسلامية للإبداع فى بناء الحضارة العربية الإسلامية ، بعد أن كانت كنائسهم وبيعهم وأحبارهم وكهانهم قد فرضوا عليهم مافرضوه على مواريثهم الفكرية والحضارية من موات !..

فالدين الذى قرر لهم « التعددية » فى الشرائع ، هو الذى قررت دولته أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فنهضوا ـ مدعوين من « الدين » و« الدولة » ـ للإبداع ، مع علماء المسلمين ، فى بناء هذا الطور العربى الإسلامى لحضارة الأمة التى كانت أمما قبل دخول شعوبها فى عالم الإسلام .. وإذا كان العلماء المسلمون قد نهضوا بالعبء الأكبر فى هذا البناء ، فإن نظرة على بعض أسماء أعلام هذا البناء الحضارى ، من غير المسلمين ، كافية للدلالة على أثرهم الملحوظ ومكانهم البين فى هذا البناء .. فعلى امتداد تاريخنا الحضارى نستطيع أن نتابع آثار أعلام كثيرين ، تبدأ سلسلتهم بالفيلسوف السريانى إثناسيوس البلدى [٦٦هـ ٦٨٦ م]..... لتصل إلى السياسى الوطنى وليم مكرم عبيد [١٣٠٧ ـ ١٣٨٠هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦١م] ... فبهؤلاء الأعلام ، الذين أبدعوا فى الفلسفة والطب والتنجيم والفلك والشعر والموسيقى والرياضة والهندسة والميكانيكا .. الخ .. الخ .. قام البرهان على انفتاح حضارتنا العربية الإسلامية على مختلف المواريث الفكرية ، واستيعابها

وتمثلها ، ثم تجاوزها كل هذه المواريث[٦٢] .. لقد صنعت ـ مثلها فى ذلك مثل أمتها ـ من الكل واحدا ، وظلت ، دائما وأبدا ، ـ تبعا لأمتها ـ دائمة « التحقق والامتداد والاستيعاب » ..

فكما أخذت ـ منذ عصر الراشد الثانى عمر بن الخطاب [٤٠ق . هـ ـ ٢٣هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] ـ تدوين الدواوين عن الروم[٦٣] ... وضريبة الأرض ـ وفق المساحة ـ التى عرفت « بوضائع كسرى » ـ عن الفرس[٦٤] ... رأيناها قد تجاوزت ، فيما أبدعت فى الفكر السياسى ـ حول الإمامة والخلافة والأحكام السلطانية ـ حدود الاقتباس إلى نطاق الخلق المتميز والجديد ، فكان نظام « الخلافة » ـ ممارسة وفكرا نظريا ـ عربيا إسلاميا غير مسبوق ..

وإذا كانت الترجمة إلى العربية قد بدأت بعلوم الصنعة ، على يد خالد ابن يزيد [٩٠هـ ٧٠٨م] الذى تمثل فى جهوده بحقل الترجمة الأثر العربى الإسلامى لمدرسة الإسكندرية القديمة ، فإن إبداع هذه الحضارة فى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها قد كان منارة العالم فى هذا الميدان ، أضافت إليه تجاوزها

---

(٦٢) انظر فى الأعلام المشار إليهم : [الأعلام] للزركلى . طبعة بيروت ـ الثالثة ـ سنة ١٩٦٩ م . و [تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك] لقدرى حافظ طوقان . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م . و [الدعوة إلى الإسلام] لأرنولد . ترجمة : د. حسن ابراهيم حسن ، د. عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . و [الأقباط فى السياسة المصرية] للدكتور مصطفى الفقى . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

(٦٣) [كتاب الطبقات] لابن سعد . جـ ٣ ق١ ص ٢٠٢ . طبعة دار التحرير . القاهرة . و [كتاب الخراج] لأبى يوسف . تحقيق : د. إحسان عباس . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

(٦٤) [الأحكام السلطانية] للماوردى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

القياس الأرسطى إلى المنهج التجريبى الذى كان لها إبداعا عبقريا خالصا، نقلت به مباحث العلوم إلى طور جديد، كما وكيفا..

وإذا كانت حضارتنا العربية الإسلامية قد ترجمت الفلسفة اليونانية، فإنها قد قرأتها بعيون إسلامية، ووعتها بعقول صاغها التوحيد الإسلامى، ثم كان إبداعها الفلسفى الخالص هو علم التوحيد الإسلامى ـ علم الكلام ـ الذى تأسست عقلانيته على الوحى، فتآخت فيه الحكمة والشريعة على نحو جديد وفريد..

وكذلك صنعت هذه الأمة وحضارتها مع تراث الفرس والهنود... أحيت الموات.. وجددت البالى... واستوعبت الحى فتمثلته، ثم تجاوزته.. بمنطق الأمة الوارثة، والجماعة العالمية، أمة وجماعة الرسالة الخاتمة والخالدة، والتى لابد ـ لذلك ـ من أن يكون القانون الحاكم لمسيرتها والضامن لها أداء رسالتها هو التفتح ـ من موقع الراشد المتميز ـ على الآخرين..

* * *

والآن.... وعند هذا الحد من البحث عن مفهوم الأمة فى حضارتنا.. وبعد هذه الشهادة الفكرية والتاريخية على وحدة الأمة الإسلامية، الجامعة للأوطان والقوميات فى حضارة واحدة جمعها للأفراد والأسر والقبائل والشعوب.... الآن.... يحق للمرء أن يتساءل:

هل كانت هناك حكمة ـ ذات دلالة ـ وراء مجىء مصطلح «الأمة» القرآنى بمعنى «الجماعة»، دون تحديد صارم لسمات الجماعة؟.. وذلك لتتدرج وتتسع دوائرها فى مختلف الميادين والمجالات، ولتتوالى آفاقها دائما

وأبدا .. فتضم « القبائل » كلبنات ـ فلا تتجاهل تمايزها ـ وفى ذات الوقت لاتقف عند حدود هذا التمايز .. ثم تضم « الشعوب » مع « القبائل » ، جاعلة « التعارف » هو رباط الجماعة ، لا القالب الواحد الحاكم ذا الشروط الصارمة الجامعة المانعة .. ثم تمضى فيحتضن محيطها الحضارى الإسلامى « الجزر القومية » ، دون أن تنفر الأمة الإسلامية من تمايز الأمم القومية فى أحضان المحيط الإسلامى الكبير .. فتصبح القومية دائرة انتماء ، لافكرية تناقض الإسلام ، ولاعصبية تتجاهل أو تعادى جامعته الأشمل ... ثم تذهب هذه الجماعة قدما لتمد مع الدائرة الإنسانية الخيوط والعلائق والأسباب ؟!..

هل كانت هناك حكمة ـ ذات دلالة ـ وراء ذلك ؟!..

وهل كانت لهذه المرونة فى مضمون هذا المصطلح ـ مصطلح « الأمة » ـ صلة بموقف النهج العربى الإسلامى ومسيرته فى بلورة حضارة الأمة بدءا من :

- نواة الدين .. وأمة الدين ..
- فالقومية .. والأمة القومية ـ بالمعنى الحضارى ، لا العرقى ـ ..
- فالحضارة .. وأمة الحضارة ـ التى تحتضن القوميات ـ ..

والتى لم تقف بالسمات الحضارية عندما هو دينى .. كما أنها لم تتجاوزه .. وإنما جعلت منه النواة التى انداحت من حولها الدوائر القومية والحضارية .. واتخذت منه الأداة التى بعثت وأحيت وجددت المواريث الفكرية والحضارية لشعوب البلاد التى دخلها الإسلام ، ودخلت فى عالم الإسلام ... كما أقامت

منه المعيار الذى فرزت به ماهو مقبول .. أو فى حاجة إلى التعديل ... أو واجب الرفض من هذه المواريث ؟؟..

● فلم تقف بالأمة عند أمة الدين ..

● ولم تقف بعنصر الأمة وجنسها عند العرب ـ بالمعنى العرقى ـ ..

● ولم تقف بفكرية الأمة وعلوم حضارتها عند علوم الوحى والشريعة . وإنما تجاوزتها ـ وهى مصاحبة لها ـ إلى علوم الحضارة وفنونها ، التى أبدعت فيها إبداعا غنيا وعبقريا وراقيا ، مع تمييزها بإشاعة الروح الإيمانى والمزاج العربى فى مختلف وأدق أجزائها ..

لقد انطلقت الأمة ـ الجماعة ـ من « الدين » إلى « الحضارة » ، التى تبلورت ونمت حول هذا الدين .. وأقامت العلاقة العضوية والجدلية بين العروبة ـ الحضارية والثقافية ـ وبين الإسلام العالمى .. فجعلت « الفرد » .. « فالأسرة » ـ أو « القبيلة » ـ .. « فالشعب » .. « فالأمة القومية » .. « فالأمة الحضارية » ... دوائر ، تنفتح الصغرى منها على الكبرى التى تليها ، فى علاقة جدلية وتضامنية لا تعرف التناقض ولا التضاد .. كما جعلت « الإقليم » .. « فالوطن الأدنى » .. « فالوطن القومى » ... « فعالم الملّة .. ودار الإسلام .. والجامعة الإسلامية » ... دوائر ، تبدأ من الأخص إلى الخاص إلى العام فالأعم ... ليفضى كل ذلك إلى الدائرة الإنسانية ، شعوبا وحضارات ..

● إنها أمة الإسلام .. وإسلامها وثيق الصلة بالعروبة الحضارية والثقافية .. عقيدته عالمية .. ومعجزته عربية ، وشريعته عربية ، ولن يفقهها ويبلغ مرتبة الاجتهاد والتشريع فيها إلا من بلغ فى فقه العربية وعلومها مبلغ

البلغاء .. وإلا إذا ضم إلى ذلك، أيضا. العلم بالتاريخ العربى والواقع العربى، الذى تمثلت فيه ملابسات الوحى وأسباب نزول آيات القرآن الكريم...

وهى أمة العروبة الحضارية ـ لا العرقية ـ التى هى ثمرة من ثمار الإسلام، أقامها على أنقاض عروبة الجاهلية ـ العرقية العنصرية ـ..

● وهى دائمة الحركة والنمو والتفتح ـ رأسيا وأفقيا ـ ومهام تحققها ـ عمقا واتساعا ـ لاتعرف النهايات ولا الحدود ولا السدود..

● والعلاقة بين هذه الأمة ـ بالمعنى الدينى وفى النطاق الدينى ـ كما كانت فى بداية طورها الإسلامى ـ وبين هذه الأمة عندما تحققت فى الواقع، بالمعنى التاريخى والاجتماعى والقومى ـ بعد الهجرة ـ ليست علاقة انفصال، بل ولاتتابع فى المراحل التى تتجاوز ثانيتها أولاها تجاوز المغايرة والاختلاف والانقطاع[٦٥] .. وإنما هى علاقة «الوحدة» التى لاتنكر «التمايز»، فى الإطار الحضارى المرن الذى يسمح للتعددية بالتعايش والتفاعل داخل الإطار..

ذلك هو تعريف «الأمة» فى حضارتنا العربية الإسلامية، وهذا هو مفهومها... وتلك هى دلالة المرونة التى تميز بها هذا المفهوم... ومصداق هذه الحقيقة تلك المسيرة العملية التى سلكتها أمتنا وحضارتنا منذ أن بدأت طورها العربى الإسلامى بظهور الإسلام.. لقد استوعبت المواريث الحضارية

---

(٦٥) نختلف فى فكرتنا هذه مع د. ناصيف نصار. انظر كتابه [مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ] طبعة بيروت سنة ١٩٧٨ م.

التى سبقت الإسلام ، ثم أحيتها وجددتها وفق معايير التوحيد الإسلامى .. وصنعت من التعددية كلا حضاريا جديدا .. وهى فى كل ذلك قد انطلقت من « العقيدة » ـ عقيدة الدين ـ إلى « الفكر » فكر الحضارة ـ إلى « السلوك » . الذى حول « العقيدة » و« الفكر » إلى حياة عاشتها وتعيشها هذه الأمة الواحدة فى حقب الازدهار ، .وتجاهد كى تحييها ، وكى ترمم الثغرات فى جدار وحدتها ، كلما فرضت عليها التحديات قيود الضعف والتراجع والجمود ! .

هكذا امتدت مفاهيم وحدود وآفاق أمتنا فى « الفكر النظرى » الموروث .. وعبر المسيرة التاريخية التى أبدعها الأسلاف .. وهكذا نرى الحدود والآفاق التى نتوجه إليها اليوم بنداء « اليقظة » ومهام « النهضة الإسلامية المنشودة ..

فمن « غانة » إلى « فرغانة » .. ومن أعالى نهر الفلجا إلى جنوبى خط الاستواء .. تلك أمتنا ، أمة واحدة .. نتوجه إليها بهذا النداء .. ونعنيها بهذا الحديث ! ..

وصدق الله العظيم : [إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون][66] .

---

(٦٦) الأنبياء : ٩٢ .

هل للمسلمين حضارة متميّزة ؟

لكن... إذا كان المسلمون أمة واحدة... فهل لهذه الأمة الواحدة حضارة متميزة عن غيرها من الحضارات ؟...

إن الإجابة على هذا السؤال ضرورية لتحديد ماهية اليقظة المطلوبة لهذه الأمة الإسلامية.. ذلك أن هيمنة الحضارة الغربية على أوطان الشعوب والأمم التى نكبت بالغزوة الاستعمارية الحديثة، ومنها أوطان الأمة الإسلامية، قد أثمر، ضمن ما أثمر، تيارا فكريا « متغربا »، يدعو أنصاره إلى تبنى مناهج هذه الحضارة الغربية وقيمها ومثلها وفلسفاتها وتصوراتها وجمالياتها وطرائقها فى العيش والسلوك، مع إبداعها فى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها.. وذلك بدعوى أنها « حضارة العصر ـ الإنسانية ».. فبدعوى « وحدة الحضارة الإنسانية » هم ينكرون تميزنا الحضارى، كما سبق وأنكروا وحدة المسلمين كأمة متميزة...

فهل لهذه الأمة الإسلامية المتميزة حضارة إسلامية متميزة، حتى يكون لها فى اليقظة والنهضة سبيل متميز عن سبيل التبنى للنمط الغربى الحضارى، والتقليد لأهله، والبدء من حيث انتهى الغربيون ؟؟...

وبمعنى آخر.. فهل « التعددية » فى الأمم تعنى « التعددية » فى الهوية الحضارية، ومن ثم التميز فى سبل اليقظة والنهضة ؟؟.

وهل هناك « هوية حضارية » متميزة جمعت الأمة الإسلامية إبان عصر يقظتها وتألق حضارتها .. ثم جاءت أحقاب زمنية ، هي أحقاب التخلف والتراجع والجمود لتطمس هذه « الهوية » ، أو تواريها خلف غبار « الانحطاط الحضارى » ؟؟ .

إننا ممن يجيبون على هذه التساؤلات بالإيجاب ... الأمر الذى يعنى إيماننا بأن تميزنا كأمة إسلامية ، ذات حضارة متميزة ، يجعل ليقظتنا ونهضتنا المنشودة طريقا متميزا ونمطا خاصا .. فليست الاستعارة للنمط الحضارى الغربى هى سبيل يقظتنا ، بل لعل هذه الاستعارة هى جزء من الداء الذى لابد وأن تبرأ منه الأمة كى تسلك إلى اليقظة والنهضة السبيل المأمون ! ..

فكما تميزت أمتنا فى مفهوم الأمة ونطاقها وإطارها .. كذلك تميزت فى الهوية الحضارية ـ التى هى وثيقة الصلة بتميزها فى مفهوم الأمة ـ ولقد كان هذا التميز الحضارى القاسم المشترك الأعظم الذى طبع ذلك البناء الحضارى العملاق الذى أبدعته أمتنا إبان العصر الذى ازدهرت فيه حضارتها العربية الإسلامية ... فإذا كانت يقظتنا قد أعقبتها غفوة ورقود .. وإذا كانت نهضتنا قد أصابها التراجع والجمود والانحطاط فى عصور الغفوة والرقود ... فإن توجهنا إلى البحث فى سبل اليقظة والنهضة الإسلامية ، كما يستدعى الكشف عن أسباب التراجع وملابساته وأماراته ، فإنه يتطلب الكشف عن الهوية الحضارية العربية الإسلامية المتميزة ، تلك الهوية التى تتحدد مهام اليقظة والنهضة فى إعادة اكتشافها ، والكشف عن سماتها وقسماتها وخصائصها ، وبلورتها فى مشروع حضارى عربى إسلامى ، وذلك حتى تعود لها الهيمنة على عقل الأمة وسلوكها وقيمها ومعارفها وعلومها ، فتعود هذه الأمة ، ثانية ، إلى

ميدان الإبداع الحضارى المتميز ، تثرى وتغنى بواسطته الفكر الإنسانى ، كما صنع ذلك ، من قبل ، أسلافها العظام ..

وبالطبع .. فإن البداية الطبيعية للإجابة على سؤال : هل تملك أمتنا الإسلامية هوية حضارية متميزة ؟؟ .... إن البداية الطبيعية للإجابة على هذا السؤال لابد وأن تكون بتحديد مضامين المصطلحات ... فما هى « الهوية الحضارية » ، التى نقول بتميز أمتنا الإسلامية فى سماتها وقسماتها ؟؟ .. وماهى أبرز هذه السمات والقسمات التى تتميز بها أمتنا حضاريا عن غيرها من الأمم ذات التمايز الحضارى ؟؟ ....

إن « الهُوِيَّة » ـ بضم الهاء وكسر الواو ـ مصطلح استعمله العرب والمسلمون القدماء .. وهو منسوب إلى « هُو » .. وهذه النسبة تشير إلى مايحمله من مضمون ، فهى تعنى ، كما يقول الشريف الجرجانى [٧٤٠ ـ ٨١٦هـ ١٣٤٠ ـ ١٤١٣م] : « الحقيقة المطلقة ، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة فى الغيب المطلق ... »[١] ! .

أما معاجمنا الحديثة فإنها لم تخرج عن هذا المضمون ، عندما قالت عن « الهوية » : إنها « حقيقة الشيء ، أو الشخص المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية ، والتى تميزه عن غيره .. » .. وتسمى أيضا : « وحدة الذات »[٢] ..

وبعبارات أدخل فى موضوعنا ، فإننا نستطيع أن نقول : **إن الهوية الحضارية لأمة من الأمم ، هى : القدر الثابت ، والجوهرى ، والمشترك من**

---

(١) [التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

(٢) [المعجم الفلسفى] وضع مجمع اللغة العربية ، بالقاهرة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

السمات والقسمات العامة ، التى تميز حضارة هذة الأمة عن غيرها من الحضارات ، والتى تجعل للشخصية القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات القومية الأخرى ..

وإذا شئنا أن نضرب بعض الأمثال للقسمات الجوهرية التى غدت ، لعمومها واستمراريتها ، جزءا أصيلا فى هوية أمتنا العربية الإسلامية ، وقسمات تميز حضارة أمتنا عن الحضارات الأخرى ، فإننا سنجد قسمات من مثل : العروبة .. والتدين .. والوسطية ...

● **فالعروبة** : ـ بالمعنى الحضارى والفكرى والثقافى ـ وليس العرق والعنصرى ـ قد غدت هوية حضارية لهذه الجماعة البشرية التى تعربت بعد الفتح العربى الإسلامى ، والتى أصبح ولاؤها وانتماؤها لكل ماهو عربى ، وليس للأطوار الحضارية غير العربية التى سبقت ، فى تاريخها ، طور الاستعراب .. ولقد استوت فى هذا الولاء والانتماء للعروبة بأولئك الذين انحدروا من أصلاب عربية ، بالمعنى العرقى ، بل وبرزت جهودها الفكرية فى بلورة السمات الحضارية المتميزة للحضارة العربية الإسلامية حتى كادت تملأ ساحة هذا الميدان ؟!..

وكما أصاب التعريب البشر ، فجعلهم جزءا من نسيج الأمة الجديدة ، كذلك أصاب المواريث الحضارية لشعوب البلاد التى أصابها التعريب .. فلقد أحيا الإسلامُ الصالح من هذه المواريث ، بعد أن كادت تموت فى ظل القهر البيزنطى القديم ، ولم يمارس الإسلام ضدها حرب « المسخ والنسخ والتشويه » التى مارستها الحضارة الغربية وتمارسها ضد المواريث الحضارية لأهل البلاد التى ابتليت بالاستعمار الغربى الحديث ..

فكما دخلت شعوب البلاد ، بعد الفتح العربى الإسلامى ، إلى نسيج الجماعة العربية بالتعريب ، كذلك غدت هذه المواريث الحضارية القديمة جزءا أصيلا فى الحضارة التى تبلورت على أرض هذه الأمة ، كمحصلة لتفاعل الإسلام ، بروحه الشابة وأفقه العقلانى ، مع الصالح من هذه المواريث .. وإذا كان « الإسلام الدين » ، الذى هو وضع إلهى ، والذى يجب أن نتزهه عن الإضافات والبدع والإبداعات البشرية .. إذا كان هذا « الإسلام الدين » ، قد اختص به الذين تدينوا به من المسلمين ، فإن « الإسلام الحضارة » ، أى « الحضارة العربية الإسلامية » ، بعلومها وفنونها الدنيوية ، قد جاءت ثمرة « للإسلام الدين » ، دون أن تقف عند حدود أركانه ونطاق عقائده وآفاق شريعته ، وأيضا دون أن تناقض هذا الدين .. كما جاءت علوم هذه الحضارة وفنونها ثمرة لإبداع المسلمين ، دون أن تكون حكرا لهم من دون أهلها الذين لم يتدينوا بعقائد الإسلام ، فهى ثمرة للإسلام ، تتجاوز نواته .. إنها « **الدائرة الحضارية** » **التى انداحت من حول** « **النواة الدينية** » **لديانة الإسلام** !.. ففيها تلك الإسهامات والإضافات التى دخلت نسيج هذه الحضارة من المواريث التى سبقت ظهور الإسلام ، وفيها إبداعات الذين تعربوا ، ومنحوا ولاءهم وانتماءهم لهذه الحضارة ، مع بقائهم ، فى التدين على الشرائع الدينية التى سبقت ظهور الإسلام ..

فعروبة البشر .. وعروبة الحضارة ، هى سمة من السمات الثوابت ، التى غدت جزءا من « الهوية » ـ أى الجوهر ـ التى تميز أمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات ..

وجدير بالذكر والتنويه أن هذه العروبة ليست خصوصية للأمة العربية .

بالمعنى القومى، وإنما هى لازمة من لوازم الإسلام.. فهى عروبة اللغة، التى يستحيل على المسلم من أى جنس أو لون أو قومية أن يفقه القرآن العربى المعجز، فيبلغ فى فقهه مرتبة الاجتهاد والتشريع دون أن يكون عربى اللغة، كما يستحيل على هذا المسلم، من أى لون أو جنس أو قومية أن يفقه علوم الشريعة الإسلامية، وفى مقدمتها الحديث النبوى الشريف، وعلومه، ومدونات الفقه الإسلامى، وأصوله، وأغلبها عربى اللغة، دون أن يكون هذا الفقيه عربى الفكر واللغة والثقافة.. فإذا لم تكن العربية شرطا فى التدين بالعقيدة الإسلامية، لعالميتها، فإنها شرط للتفقه فى الإسلام والبلوغ فى شريعته مبلغ الاجتهاد والتشريع.. فأهل الحل والعقد فى المجتمع الإسلامى ـ أى السلطة التشريعية ـ وأهل الإمامة ـ أى قمة السلطة التنفيذية ـ وأهل الحكم بما أنزل الله ـ أى السلطة القضائية ـ لابد وأن يكونوا من الذين بلغوا فى العربية وعلومها المرتبة التى تتيح لهم فقه القرآن والسنة ومصادر التشريع.. أى إن «الدولة الإسلامية» لابد وأن تكون عربية اللغة والفكر والثقافة، بصرف النظر عن لغة وقومية الرعية والجمهور.. ومن هنا جاء ارتباط الإسلام بالعروبة الحضارية، وصارت العربية لغة الإسلام، تنتشر بانتشاره، ولم يعارض فى ذلك سوى الشعوبيين، الذين وإن أظهروا العداء للعروبة وحدها، فلقد قام الدليل على عدائهم للإسلام أيضا!..

تلك هى العروبة، الوثيقة الصلة بالإسلام.. والتى غدت السبيل إلى فقهه، ومن ثم السبيل إلى تجسيد تأثيراته فى الواقع.. تلك التأثيرات التى هى الحضارة العربية الإسلامية... وهى ـ كما أسلفنا ـ عروبة الفكر والثقافة... العروبة الحضارية، التى أثمرها الإسلام.. وليست عروبة الجاهلية وعصبيتها العرقية القاصرة الشوهاء!..

وإذا كان « عموم » العروبة فى الأمة ـ كجماعة بشرية ـ وفى حضارتها ـ بعلومها وفنونها وآدابها ـ هو مما لايحتاج إلى إثبات أو إيضاح .. فإن البعض قد يرتاب فى « ثبات » هذه القسمة بوجه عوامل التطور والتغير ، داخلية كانت أو خارجية ، ومن ثم فإن هذا البعض قد يرتاب فى كون هذه « العروبة » واحدة من القسمات التى تمثل «هوية» لهذه الأمة ، فى المستقبل ، كما كانت فى ماضيها وحاضرها !... فهذا البعض قد يحلو له النظر إلى « العروبة » كمجرد قسمة من قسمات « البناء الفكرى الفوقى » ، الذى يصيبه التطور والتغير عندما يتطور ويتغير « البناء المادى التحتى » للمجتمع ، كما هو الحال مع بعض « الأفكار » والعادات التى تتبع فى البقاء أو الذهاب الظروف المادية التى تبعثها وتستدعيها !..

ومع عزوفنا ، فى هذا المقام ، عن النقد للطابع المطلق الذى يضفيه هذا البعض على مقولة « البناء الفوقى » و « البناء التحتى » ، والارتباط «الميكانيكى» بينهما .. فإننا نعتقد ـ بخصوص موضوعنا ـ أن نظرة متأملة للتحديات التى جوبهت بها عروبة الأمة وعروبة حضارتها عبر تاريخنا الملىء بالتحديات ، ستجعلنا على يقين من أن « العروبة » هى « هوية » .. وليست مجرد « بناء فوقى » يتغير بما يصيب « البناء المادى التحتى » من تطور وتغير ..

لقد سيطر « الترك ـ المماليك » و « الترك ـ العثمانيون » على مقدرات هذه الأمة العربية الإسلامية أغلب قرون ـ تاريخها الإسلامى .. فلقد استخلصوا حكمها لسلطانهم منذ تأسست دولة المماليك البحرية [٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م] وحتى انهيار الدولة العثمانية [١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م] وقبل هذه القرون السبعة التى استخلص الترك فيها لسلطانهم حكم الأمة امتدت هيمنة نفوذهم على دولها منذ عصر الخليفة

العباسي المتوكل [٢٠٦ ـ ٢٤٧ هـ ٨٢١ ـ ٨٦١ م] ، أي لأكثر من ثلاثة قرون .. أي أن هيمنتهم على الدولة وانفرادهم بها قد امتدت في تاريخنا لأكثر من عشرة قرون ؟ ! ..

ثم جاء الاستعمار الغربي وهيمن على مقدراتنا وحياتنا قرابة القرنين من الزمان ؟! ..

وفي ظل « الترك ـ المماليك » ، الذين كانوا فرسان العصر ، وحماة الديار والحضارة من الخطر الخارجي الماحق ـ تتريا وصليبيا ـ لقاء أن تصبح هذه الديار « طعمة » لهم وإقطاعا حربيا لأمرائهم وأجنادهم ! .. في ظل هذا التسلط المملوكي كانت « الدولة » أعجمية ، فظهرت دعوى عدم ارتباط العروبة بالإسلام ؟.. فلقد كان الحاكم غريبا عن الروح القومية للأمة ، تجمعه بها وحدة « التدين بشكل الدين » فقط ؟! .. فشاعت المقولة الزاعمة انفصام العلاقة بين العروبة والإسلام ، حتى لقد زعم البعض تناقضهما ؟! .. وكانت عجمة « الدولة » في مقدمة الأسباب التي أصابت العربية بالركاكة والتراجع والجمود ؟!..

أما في ظل عجمة « الترك ـ العثمانيين » ، فلقد بلغ التحدي للعروبة حد محاولة تتريك العرب ، كي يتحولوا إلى « أتراك » ! .. وكان تعليم الصغار لغتهم العربية مطلبا تناضل من أجله الأحزاب وتعقد في سبيله المؤتمرات ؟! .

ثم تصاعد التحدي للعروبة والعربية في ظل الهيمنة الاستعمارية الغربية ، فبلغ القمة في محاولات « فرنسة الجزائر » وسحق الهوية العربية لبلاد الشمال الأفريقي .. و« تغريب » فكرية الأمة .. ومحاربة العربية بمشاريع كتابتها بالحرف اللاتيني مرة ، واستبدال العاميات بها مرة ثانية .. والتخطيط لسيادة

الجهل بها فى كل الأحايين ؟!.. إلى آخر هذه المحاولات، وأمثالها، التى توالت فى تاريخنا شواهد على ماجابه العروبة فى تلك الأحقاب والقرون المتعاقبة من تحديات..

لكن «العروبة»، رغم هذه التحديات ـ التى تمثل عوامل وتحولات قامت فى أرض الواقع ـ قد ظلت صامدة شامخة مستعصية على التحرك من موقعها الحصين.. فليست هى إذن «بالبناء الفوقى» الذى يصيبه التغير بتغير الظروف.. وإنما هى «جوهر ـ ثابت»، كما هى «عام وشامل»، له صفة «الاستمرار».. إنها «هوية»، وليست مجرد «تراث»!..

* * *

● **والتدين**: هو الآخر قسمة من القسمات الجوهرية والثوابت التى تكون جزءا من «هوية» هذه الأمة..

ونحن، بالطبع، لانزعم أن أمتنا هى وحدها المتدينة من بين الأمم الأخرى.. لكننا نقول: إن مايميز أمتنا ـ كهوية لها ـ فى التدين، أمران:

أولهما: عمق التدين فى ضمير أبنائها وقلوبهم، ليس فى الحقبة الإسلامية وحدها، وإنما عبر تاريخ الشرق الطويل.. فوطن أمتنا، تاريخيا، هو مهد الديانات ومهبط الرسالات.. ولقد عرفت هذه الأمة «**روح التدين**» ولم تقف فقط عند «**طقوسه**» ومظاهره.. فالتدين ليس هامشا يستكمل به الإنسان مظاهر دنياه، وإنما هو روح قائم وحاضر فى كل صغيرة وكبيرة من حياة إنسان هذه الأمة... إن حضارات أخرى قد وقفت بالعبادة الدينية عند طقوس وشعائر يؤديها الإنسان فى أيام معلومة وأماكن محددة.. لكننا نرى،

فى الإسلام ، أن كل صنيع خير يأتيه الإنسان ، فى كل لحظة من لحظات حياته ، وفى أى ميدان من الميادين هو عبادة دينية ، وتدين خالص للديان سبحانه وتعالى.. فلقد حدد الله سبحانه وتعالى أن المهمة العظمى والوحيدة لخلقه هى أن يعبدوه.. [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون][3] .. وغير متصور ، بالطبع ، أن يظن ظان ، وإلا كان معتوها ، أن المهمة الوحيدة للإنسان هى مواصلة الشعائر العبادية التى جاءت بها الشريعة ، من صلاة وصيام ..الخ.. الخ.. تمتلئ بها كل لحظات حياة الإنسان ، لأن نبى الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمنا أن هذا ليس تدينا ، وإنما هو الغلو المنهى عنه فى الإسلام.. فلقد نهى عن هذا الغلو أولئك الذين أرادوا صيام النهار أبدا وقيام الليل دائما.. ونبه أمته على أن دينها يسر ، ودعاها إلى أن توغل فيه برفق ، لأن الغلو تنطع ، والمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ؟!..

إذن فالعبادة ، التى هى الرسالة الوحيدة والعمل الفريد للإنسان المسلم ، هى كل عمل خير يأتيه الإنسان فى هذه الحياة ، بدءا من عمارة الكون وزينة الأرض وسياسة الدولة وإصلاح المجتمع إلى المتع الإنسانية المشروعة التى أحلها الله.. فكل فروض العين والكفاية وسننها ومندوباتها ومباحاتها ، أى كل نشاط إنسانى تتطلبه عمارة الكون من قبل الإنسان ، كخليفة عن الله ، سبحانه ، فى هذه المهمة ، هو بعض من العبادة لله... وبهذا المعنى ، وفى هذا الضوء نجد أن للتدين فى حضارتنا عمقا وشمولا لانلحظها فى غيرها من الحضارات...

وإذا كانت الحضارة الغربية قد حولت المسيحية ـ وهى ، فى أصولها

(٣) الذاريات : ٥٦.

الأولى ، : ديانة التصوف المسالم والسلام المتصوف ـ حولتها إلى مجرد قسمة خالية من الروحانية ، وطقوس فقيرة فى هذه الروحانية ، فى إطار هذه الحضارة التى تميزت بطابعها المادى منذ جاهليتها اليونانية وحتى عصرها الحديث .... إذا كان هذا هو حال الحضارة الغربية مع « جوهر التدين » فليس هذا هو حال حضارتنا المتدينة بالطبع والفطرة مع ماشهدت من شرائع الأديان ..

لقد تحدث جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] عن أن التدين فى حضارتنا قد بلغ حد « الطبع والجِبِلّة » ، حتى لتستعصى الروح الإيمانية على الاقتلاع حتى عند الذين يتوهمون أنهم قد اقتلعوها بالزندقة والمروق من الدين والإلحاد فيه والتحلل من التكاليف التى حددتها شريعة الإسلام ... وإذا كان أمثال هؤلاء ، فى الحضارة الغربية ، يفاخرون بالزندقة ويعلنون عن المروق ويبشرون بالإلحاد ويباهون بالتحلل من التكاليف الشرعية ، فإن أمثالهم عندنا ـ وهم من الندرة بمكان ـ يدركون أن خيارهم الإلحادى هذا هو « عورة » لايليق بالعاقل المسئول أن يراها منه غيره من الناس ؟! ..

فروح التدين تبلغ لدى المسلم الحد الذى تجعل من الإسلام « وطنا » و « جنسية » و « هوية حضارية » ، يغضب لها ويسعد بها حتى الذين يتوهمون خلاصهم منها بالزندقة والإلحاد .. إنها تبقى طابعة لهم ، وأثرها فيهم باق وفاعل كأثر الجرح بعد أن يندمل ؟! .. على حد قول جمال الدين .

وليس كذلك ـ ولم يكن ـ حال الحضارة الغربية مع التدين بالمسيحية عندما تدينت بها الدولة الرومانية .. فذلك الحال قد أجاد التعبير عن حقيقته

إمام المعتزلة قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد [٤١٥هـ ١٠٢٤م] عندما تحدث عنه فقال : **إن النصرانية عندما دخلت روما ، لم تتنصر روما . ولكن المسيحية هى التى تروّمت؟!**.

لقد تحولت المسيحية عن روحها وروحانياتها ، وغدت مجرد قسمة من قسمات حضارة ذات طابع مادى غالب ، إن فى الفكر أو فى السلوك...

وشتان بين حضارة هذا هو موقفها من التدين ، وهذا هو حظها من جوهره ، وبين حضارتنا العربية الإسلامية التى جعلت من كل مناحى النشاط الإنسانى الدنيوية عبادة وتدينا . عندما جعلت كل سعى إلى الخير استجابة لنداء الخالق الذى خلق الإنسان وحمّله أمانة عمارة الأرض ، وترقية المجتمعات ، والاستمتاع بالطيبات ، كالرسالة العظمى للإنسان فى هذه الحياة..

وثانيهما : عموم روح التدين فى البناء الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية...

فالتدين ــ وخاصة فى الحضارة الغربية ــ قد وقف عند « الفرد » ، واقتصر على علاقة الإنسان ــ كفرد ــ بخالقه... **أما فى حضارتنا العربية الإسلامية ، فلقد وجدناه يتعدى علوم الوحى والشرع إلى علوم الدنيا وفنونها ، فهو الروح العامة السريان فى كل علوم التمدن المدنى والإبداع الحضارى وتنمية العمران البشرى . وليست محصورة فقط فيما عرفته الحضارة الغربية تحت عنوان « اللاهوت »** .. فنحن أبناء « **حضارة مؤمنة** » ، ارتبطت فيها العلوم جميعا ، بما فيها « العلوم البحتة » بالقاعدة الإيمانية .. إنها « الحضارة المؤمنة » ، التى **يذكر فيها اسم الله فى كل شىء ، وليس فقط فى الصلوات.. نستفتح الأكل** باسمه .. ونختتمه بحمده .. ونهلّ **بذكره** على الذبائح .. ونلجأ إليه عند

الحزن ، وعند السرور .. فى وقت الضحك ، وساعة البكاء .. كل مسعى الإنسان عبادة ، حتى ترويحه عن النفس .. بل ومباشرته متع الجنس المشروع !.. إنها الحضارة التى قال الإمام الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م] عن غاية العلماء من العلم فيها : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله ؟!.. » .... الحضارة التى لم تربط ، فقط ، صلاح الدنيا بصلاح الدين ، بل وجعلت صلاح الدنيا الشرط والأساس لصلاح الدين .. وعلى حد قول الإمام الغزالى : « ... **إن نظام الدين لايحصل إلا بنظام الدنيا .. فنظام الدين ، بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن .. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية . وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يفرغ للعلم والعمل ؟ وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة ؟. فإذن ، إن نظام الدنيا ، أعنى مقادير الحاجة ، شرط لنظام الدين !..** »[٤].

فإذا كتب التيفاشى [٥٨٠ ـ ٦٥١هـ ١١٨٤ ـ ١٢٥٣م] فى « الجيولوجيا » ـ طبيعة الأرض ـ كتابه [أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار] نراه يفتتحه بـ : « الحمد لله . بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين » .. على نحو مايصنع الفقهاء فى استهلال مصنفات الفقه الإسلامى !..[٥]

وإذا صنف ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م] فى

---

(٤) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٥ . طبعة القاهرة . مكتبة صبيح . بدون تاريخ

(٥) ص ٣٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م تحقيق : د. محمد يوسف حسن ، د. محمود بسيونى خفاجى .

« الحب » كتابه [طوق الحمامة فى الإلف والإلاف] فإنه يستهله بـ : « بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين ... أفضل ما أبتدئ به حمد الله عز وجل بما هو أهله ، ثم الصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة ... » .. وفى ختام كتابه هذا عن « الحب » يقول لقارئه : « جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين ، آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ... » .. فكأنه فيلسوف إلهى يصنف فى فن الإلهيات ؟! [٦] ..

فحضارتنا العربية الإسلامية ليست الحضارة الغربية ، التى تدرس ظواهر النفس الإنسانية مقطوعة الصلة بخالق هذه النفس ، سبحانه وتعالى .. والتى تدرس ظواهر الطبيعة كجزء أو أجزاء من عالم بلا خالق ، فتكون بذلك لدى العلماء والباحثين والقراء عقولا ملحدة ، حتى ولو لم تطرح قضية الإلحاد للنقاش ؟!.. لأن حضارتنا المؤمنة تدرس كل الظواهر الاجتماعية والنفسية والطبيعية باعتبارها ميادين فى عالم له خالق سوّاه ويرعاه . فلا تقف عند الأسباب المادية المؤثرة ، وإنما تشير إلى سبب الأسباب وخالق هذه الأسباب الذى أودعها مالها من فعل وتأثير .. ثم إنها تنظر إلى هذه المباحث باعتبارها واجبات شرعية للكشف عن الأسرار التى أودعها الخالق فى هذا الوجود ، وحمّل الإنسان أمانة إماطة اللثام عن هذه الأسرار .. ولذلك ، فإن علوم هذه الحضارة ، لا تسهم فقط فى تنمية الروح الإيمانية لدى علمائها ، وإنما هى قد ربطت وتربط بين هذه العلوم - كوسائل - وبين الحكم والغايات التى

---

(٦) [رسائل ابن حزم الأندلسى] جـ١ ص ٣١٠ . تحقيق : د . إحسان عباس . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .

وضعها الخالق للإنسان ، كخليفة عنه ، عليه أن يتخلق بأخلاق الله فى الوجود !.. فعلى حين ظنت الحضارة الغربية أن الانتصارات العلمية هى « تحرير » للعقل الإنسانى من الإيمان بالدين ، أكدت حضارتنا أن المباحث العلمية تكليف إلهى ، يزيد العقل العلمى إيمانا بخالق هذا الوجود الذى يبحث العلماء عن الأسرار التى أودعها الخالق فيه !.

ومثل ذلك صنعت حضارتنا عندما ربطت « السياسة » بـ « الشريعة » ومقاصدها ـ والعدل أعظم هذه المقاصد وأولها ـ .. فأقامت بينهما الصلات التى تنفى الفصل العلمانى بين « الدين » و « الدولة » ، وذلك دون أن تجعل هذه « السياسة » « دينا خالصا » ، كما كان الحال فى الكهانة الكنسية الغربية فى العصور الوسطى المظلمة ...

وإذا كانت الحضارة الغربية قد عزلت « السياسة » عن « الأخلاق » و« القيم » ، عندما جعلت من « الميكيافيلية » مذهبها السائد فى الفلسفة السياسية ، فاجتمعت وأجمعت على أن « القوة » هى « القيمة » فى عالم السياسة ، والغايات تبرر الوسائل ، وصكت للسياسة ذلك التعريف الذى يقول إنها « فن الممكن من الواقع » ... فإن حضارتنا العربية الإسلامية قد ربطت « السياسة » بـ « القيم » و « الأخلاق » ، وجعلت « العدل » هو القيمة الكبرى فى عالم السياسة والمقصد الأعظم من مقاصد الشريعة .. وما أعمقه وأبلغ دلالاته ذلك التعريف الذى صكته للسياسة ، بلسان الإمام أبو الوفاء ابن عقيل [٤٣١ ـ ٥١٣هـ ١٠٤٠ ـ ١١١٩م] عندما عرّفها فقال :

« السياسة : ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ... »[7] ..

فهنا ، الربط العضوى مابين السبل والحكمة .. مابين الوسائل والغايات .. مابين الأعمال والقيم والأخلاق ..

وهذه الروح المتدينة فى حضارتنا العربية الإسلامية ، كان ولايزال محورها ومزاجها هو « التوحيد » .. به تميَّز تدينها ، وتميزت سماتها وقسماتها جميعا .. حتى لنستطيع أن نقول : إن هذا « التوحيد » قد غدا « هوية » تتميز بها أمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات ..

فالتوحيد الإسلامى ، الذى بلغ الذروة فى النقاء والقمة فى التجريد ، عميق وقديم وأصيل فى المكونات الفكرية بتراثنا ، إلى الحد الذى نجده فى التراث الدينى لمصر القديمة بأناشيد أخناتون [١٣٦٩ ـ ١٣٥٣ ق . م] قد جعل الله إلها للكون كله : **« إنك الإله الذى دان الجميع بحبك .**

أنت إله ، يا أوحد ، ولا شبيه لك .
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى أنت وحدك .
خلقتها ولا شريك لك .. »[8] .

فنحن هنا أمام جدول من نبع التوحيد الدينى الذى عرفته مواريثنا الدينية

---

(٧) انظر ابن قيم الجوزية [أعلام الموقعين] جـ٤ ص٣٧٢ وما بعدها . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م و [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١٧ ـ ١٩ . تحقيق : د . جميل غازى طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

(٨) د . عبد المنعم أبو بكر [أخناتون] ص ٩٧ ، ٩٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م .

والحضارية منذ فجر التاريخ الإنسانى ، حتى لقد أصبح مَعْلَماً بارزا من معالم تراثها الفكرى .. جاءها من بقايا الشرائع الإلهية القديمة .. وبه تميزت عن صورة التوحيد فى [العهد القديم] ، تلك التى جعلت « التوحيد » أقرب مايكون إلى الوثنية ، فالله فيها ـ بزعمهم ـ هو إله لبنى إسرائيل وحدهم ، أما الشعوب الأخرى فلها آلهتها الخاصة بها ؟!..

وحتى وثنية العرب القديمة ، فى جاهليتهم التى سبقت الإسلام ، كانت « انحرافا » عن جوهر ونقاء هذا « التوحيد » [ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولن : الله ..][9] .. [مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ...][10]

وهذه الروح « التوحيدية » التى بلغت فى روح الحضارة الشرقية مبلغ « الهوية » والثوابت من القسمات ، هى التى جعلت المسيحية تعجز عن تلبية احتياجات الإنسان الشرقى الاعتقادية ، عندما أصابت هذه المسيحية التأثيرات « الهلينية » بما أخرجها عن الإطار الحقيقى للتوحيد الحق ؟!.. فكان دخول شعوب الشرق فى دين الله ـ الإسلام ـ أفواجا ، دونما إكراه ، بالترغيب أو الترهيب ، رغم حرية الاعتقاد التى أبقت المؤسسات الكنسية ومالها من تراث فى الجدل وخبرات فى التبشير.. فلقد كان التوحيد الإسلامى ، الذى بلغ الذروة فى النقاء ، والذى أعاد إلى هذه العقيدة ـ التى هى جوهر الدين ـ صفاءها ونقاءها الذى أرادها عليه الواحد ، سبحانه وتعالى .. **كان هذا التوحيد الإسلامى « الهوية » التى أعادت شريعةُ الإسلام**

---

(٩) لقمان : ٢٥ .

(١٠) الزمر : ٣ .

الكشف عن جوهرها ، بعد أن طمستها تعقيدات التثليث والتجسد والحلول !..

وإذا كان الباحثون فى تراث الغرب الفلسفى ، يرصدون فى ذلك التراث تيارا « ماديا ـ ملحدا » منذ اليونان وحتى عصرنا الراهن .. فلابد وأن يلفت نظر هؤلاء الباحثين خلو تراثنا الفلسفى من هذا التيار « المادى ـ الملحد » عبر تاريخنا الحضارى الطويل .. وماتلك الشبهات والمقولات والاجتهادات التى يحسبها البعض « شكا » أو « زندقة » أو « إلحادا » ، إلا « وافد » غريب عن روح حضارتنا وفكرها الفلسفى ، لم يتعد مكان « النتوء ـ النشاز » ، ولم يبلغ حجم « التيار » أو مايشبه « التيار » !.. أما الاجتهادات الأصيلة ، التى حسبها « النصوصيون » « إلحادا » ، فإن النهج العقلانى الإسلامى الوسطى ـ الذى تآخت فيه « الحكمة » و « الشريعة » ـ يضعها فى إطار « العقلانية الإسلامية » ، وينفى عنها أن تكون « مادية » أو « إلحادا » ، كذلك الذى تميز به التراث الفلسفى الغربى منذ اليونان وحتى العصر الحديث ..

فهو ، إذن ، التدين ... والتدين بروح التوحيد وعقيدته ... قد بلغ ويبلغ فى حضارتنا العربية الإسلامية مبلغ « الهوية » ، والقسمة الثابتة ، والسمة التى غدت مَعْلَماً من المعالم الذى تتميز به حضارتنا على غيرها من الحضارات ..

● **والوسطية** : التى جعلت حضارتنا العربية الإسلامية ـ وأمتها ـ ترفض « الغلو » ، بكل صوره ، وفى كل الميادين ... هذه « الوسطية الإسلامية » قد غدت ، هى الأخرى ، « هوية » تميزنا بها عبر تاريخنا الحضارى الطويل ... فهذه الأمة قد أراد لها الله سبحانه أن تكون وسطا ، تقف موقف الشاهد

العدل بين طرفى الظلم ، والحق بين طرفى الباطل ، والاعتدال بين طرفى التطرف والغلو .. الخ .. الخ .. [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس][11] ..

بل إننا لانغالى إذا قلنا إن هذه « الوسطية الإسلامية » قد غدت - لمركزيتها ومركزها فى « القسمات - الهوية » - قد غدت جماع « الهوية » العربية الإسلامية ، والخصيصة الأم لأمتنا وحضارتنا ، وزاوية الرؤية الصحيحة والوحيدة لكل من أراد إدراك حقيقة السمات التى تميزت بها هذه الحضارة ، أى إدراك حقيقة جوهرها و« هويتها » .. كما غدت معيار تقدم الأمة - يوم سادت وتألقت فى إبداعها الحضارى - وسبب تراجعها وجمودها وتخلفها عندما أخلت مكانها للغلو والتطرف ذات اليمين وذات الشمال ! ..

* * *

لقد عرفت الإنسانية العديد من الحضارات التى نمت وازدهرت ، قبل الحضارة العربية الإسلامية ، وحولها ، ومن بعدها .. وشهدت الإنسانية تميز العريق من هذه الحضارات بالمذاق الخاص ، و« البصمة » الخاصة التى ميزت الواحدة من هذه الحضارات عن غيرها .. وشهدت الإنسانية ، أيضا ، تميز حضارتنا العربية الإسلامية بهذه « الوسطية الإسلامية » - كخصيصتها العظمى - برزت فيها ، فلونت قسماتها ، حتى غدت عنوانا عليها ، وكانت سر ازدهارها ، لا فى إطارها المحلى الإسلامى فقط ، بل وسر الجاذبية التى صنعت تأثيراتها العالمية سلما واختيارا ..

---

(١١) البقرة : ١٤٣

وقبل الحديث عن أبرز معالم هذه «الوسطية الإسلامية» ، ودورها فى اليقظة الإسلامية المرجوة والإحياء الحضارى المنشود ، لابد من التنبيه إلى أن تطورات واقعنا وفكرنا قد أصابت مصطلح «الوسطية» بما جعله مصطلحا «سيئ السمعة» !.. فهو، لدى «العامة» من المثقفين، وأشباه المثقفين من العامة قد غدا مرادفا «للثنائية» و«التميع الفكرى» و«انعدام الموقف الواضح والمحدد» و«إمساك العصا من المنتصف» ، وغيبة اللون والطعم والرائحة عندما يتطلب الأمر الحسم والتحديد... وهو- أى مصطلح «الوسطية» - لدى كثير من «خاصة» المثقفين ، يعنى مايعنيه فى الفلسفة الأرسطية ، أى «نقطة رياضية» بين «قطبين» من أقطاب ظاهرة ما.. فالشجاعة ، مثلا ، هى وسط بين «الجبن» و«التهور» ، كما أن «الكرم» هو وسط بين «البخل» و«الإسراف».. الخ.. الخ.. فالوسط مغاير لكلا القطبين ، يتوسط بينهما..

وما هكذا مضمون «الوسطية» ، كالخصيصة العظمى لحضارتنا العربية الإسلامية..

فهى ليست الموقف الوسط بين أمرين - على هذا النحو ، وبهذا المعنى - وإنما هى «الموقف الثالث» ، الذى يرفض تطرف الانحياز لأى من القطبين المتناقضين والمتقابلين ، دون أن يكتفى بالوقوف فى نقطة ثابتة تتوسطهما ، وإنما يجمع ويؤلف مايمكن جمعه وتأليفه من سماتهما وقسماتهما... فـ «الكرم» غير «البخل» وغير «الإسراف» ، لكنه موقف ثالث - لايتوسطهما - وإنما هو جامع لسمات وقسمات من كل من «البخل» و«الإسراف» ، ففيه من «الحرص» ومن «البذل» مايجعله جامعا ومؤلفا لما يمكن جمعه وتأليفه من

القطبين المتناقضين، مع المغايرة لهما والتميز عنهما.. وقس على ذلك كل الفضائل والمواقف والقسمات الحضارية التى كونت ملامح الحضارة التى أبدعتها هذه الأمة الوسط..

وإذا كان الله، سبحانه، قد نبه على اختصاص هذه الأمة بهذه الخصيصة ـ التى يستطيع كل من امتلكها أن يدخل فى إطارها ـ فقال سبحانه : [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس..] ، فإن نجاح المسلمين فى الحفاظ على هذه الخصيصة فى بنائهم الحضارى، هو الذى مثل سر تقدمهم إبان عصر ازدهار حضارتهم.. كما أن اختلال التوازن، ومن ثم افتقادهم هذه الوسطية، هو الذى أفقدهم ميزتهم، فدخلوا دروب الجمود والتراجع والتخلف الذى ساد حياتهم لعدة قرون... ومن هنا تبرز العلاقة العضوية بين « الهوية الحضارية » وبين اليقظة المنشودة للأمة العربية الإسلامية.. ففى المشروع الحضارى الكافل ليقظة الأمة ونهضتها لابد وأن تكون الهوية الحضارية للأمة هى الصبغة التى يصطبغ بها هذا المشروع، وذلك حتى تكون اليقظة حقيقية والنهضة مواصلة لروح الخلق والابداع العربية الإسلامية، وليست قيودا تشد الأمة إلى نمط من « التحديث » مناقض فى هويته لشخصيتنا القومية والنمط الحضارى الذى تميزت به أمتنا عبر تاريخها الحضارى الطويل..

إننا مع القائلين : « إنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. » .. لكن لهذه المقولة عندنا مضمونا أعمق مما لها عند الكثيرين ؟! فهى تعنى أن ازدهارنا الحضارى المنشود رهن بتميز يقظتنا ونهضتنا المعاصرة بالخصائص الأساسية والهوية الحضارية التى تميزت بها نهضتنا الأولى..

فالقضية ليست « قوالب تجارب السلف » ، ولا معاركهم واهتماماتهم المرحلية ، وإنما الثوابت والقسمات الحضارية ، التى مثلت وتمثل الهوية التى تميزت بها أمتنا وحضارتنا عن غيرهما من الأمم والحضارات .. تلك الخصائص التى نرى ارتباطها الأوثق « بالخصيصة الجامعة » خصيصة « الوسطية الإسلامية » .. فهذه الوسطية هى التى ميزت حضارتنا عن كثير من الحضارات الأخرى بالتوازن والموازنة بين ما غدّ فى أنساق فكرية أخرى متناقضات لا سبيل إلى تعايشها ، فضلا عن الجمع بينها والتأليف بين سماتها وقسماتها .. فى الحضارة العربية الإسلامية تجسدت هذه الوسطية فى العديد من السمات والقسمات التى كونت جوهر البناء الحضارى ، ومثلت سر تفوق المسلمين وتقدمهم ، وذلك من مثل :

● **تميز الإسلام** ـ وهو « دين » ـ بـ « العقلانية » .. فـ « النقل » فيه ـ وهو قرآنه المعجز ـ لم يأت ليدهش العقول فيذهبها ـ كما كان الحال مع المعجزات المادية لرسل الرسالات التى سبقت الإسلام ـ بل لقد جاء القرآن الكريم ليحتكم إلى العقول ، جاعلا منها مناط التكليف الشرعى ، مؤاخيا بين « الحكمة » و « الشريعة » ، جاعلا من صريح المعقول وصحيح المنقول ، ومن « كتاب الوحى » و « كتاب الكون » سبلا متآخية ، خلقها خالق واحد ، ويسرها جميعا لهداية الإنسان وترشيده ، دونما تناقض أو تضاد .. حتى لقد قالوا ، صادقين ، عن الإسلام : إنه نسق فكرى ، فيه تديّنت الفلسفة ، كما تفلسف الدين ! .. وللمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى تتأسس « فلسفة » أمة وحضارة ـ « علم الكلام الإسلامى » ـ على « الوحى » الإلهى ، لا على رفضه أو تجاهله ، كما حدث فى حضارات أخرى

ولقد تقدم المسلمون عندما حافظت وسطيتهم على هذا التوازن.. فلما سادت فيهم «النصوصية»، التي تنكرت للعقل والعقلانية... وعرفت حياتهم الفكرية نقيض «النصوصية»: العقلانية المنفلتة من النقل والوحي.. انفتح عليهم باب من أبواب التخلف فدخلوا فيه!..

● وتميز الإسلام ـ وهو الدين العالمي ـ الذي جاء رحمة للعالمين، وعقيدة لاتختص بشعب أو قومية أو جنس من الشعوب والقوميات والأجناس ـ تميز ـ مع عالميته ـ بعدم تجاهل الواقع القومي المتميز للأمم التي تدينت به ودخلت فيه.. إنه لايتجاهل التمايز القومي، ولايقفز عليه.. فمن آيات الله في البشر اختلاف الألسنة والألوان.. ومع ذلك فهو ينكر أن تتحول التمايزات القومية إلى سدود تصد العقيدة والإخاء الإسلامي والإنساني عن التأليف بين القوميات.. فهو ـ بالوسطية ـ يعطى هذا التمايز القومي المضمون الحضاري الذي يؤلف بين التعددية القومية وبين عالمية الإسلام الدين، على النحو الذي يجعل أمة الإسلام وحضارته «محيطا» أوسع يحتضن «الجزر القومية» دونما تناقض أو تضاد.. فالعروبة الحضارية الإسلامية، مثلا، دائرة انتماء حضارية، تسبقها الدائرة الوطنية، وتليها جامعة الإسلام... فمضمون العروبة الإسلامية هو ثمرة إسلامية متميز عن مضمونها العرقي الجاهلي، ومن ثم فأفقها مفتوح، وهي ليست بالفكرية ـ «الأيديولوجية» ـ حتى تكون هناك إمكانية أو شبهة لتناقضها الفكري مع الإسلام..

وعندما حققت الوسطية الإسلامية هذا التوازن بين «العروبة» و«الإسلام» كان تفوق المسلمين وتقدمهم.. فلما حكم الأعاجم ـ المماليك والترك والديلم ـ أمتنا العربية الإسلامية، ووقفوا عند الإسلام الدين،

و« الشكل » منه على وجه الخصوص ، دون العروبة الحضارية : ذات الصلاة العضوية « بجوهر » الإسلام ، عند ذلك نشأت مزاعم تناقض العروبة مع الإسلام .. فانحاز فريق إلى الإسلام ضد العروبة .. وجاء النقيض المنحاز إلى العروبة ضد الإسلام .. وافتقدت الأمة الوسطية التى أقامت العلاقة العضوية والجدلية بينهما ، فانفتح على المسلمين باب من أبواب التخلف فدخلوا فيه !

● **وبالوسطية الإسلامية** لم يقف فكر حضارتنا ــ إبان ازدهارها ــ عند « النظر » وإنما زواج ــ فى توازن ــ بين هذا « النظر » وبين « الممارسة والتطبيق » .. فلم يقلد اليونان الذين انحازوا للعمل الفكرى ضد العمل اليدوى .. ولم يقف المسلمون عند علوم الوحى والشرع وحدها ، وإنما برعوا فى علوم الكون والطبيعة أيضا .. ولم يقفوا عند « القياس » الأرسطى ، والمنطق الشكلى ــ الصورى ــ وإنما تجاوزوه ــ عبر الملاحظة والتجريب ــ فأبدعوا « المنهج التجريبى » .. ورأينا حضارتنا ــ فى الأصول ــ كما أبدعت فى « أصول الدين » فلسفتها النظرية ــ علم الكلام الإسلامى ــ تبدع فى « أصول التشريع » للدنيا « أصول الفقه » أيضا .. وكذلك صنعت فى « الفروع » ، فضم « الفقه » : فقه « المعاملات » مع فقه « العبادات » ..

وعندما ساد ذلك النهج فى حضارتنا كان تفوق المسلمين وتقدمهم .. فلما وقف فريق عند « النظر » فى « الحواشى » و« المتون » و« الشروح » و« التهميشات » و« التعليقات » ، مهملين فقه « الواقع » وعلومه ... ووقف آخرون عند « الواقع » بعد عزله عن هيمنة أحكام الشريعة وأصول الفقه .. كان إغلاق باب الإبداع ــ الاجتهاد ــ « فى أصول الفقه » و« فقه

المعاملات » ، وكان التقليد الذى زرع ويزرع فى الواقع الإسلامى فلسفات تشريعية غريبة عن طبيعة الأمة وهويتها الحضارية .. فانفتح بذلك واحد من أبواب التخلف الذى دُفع إليه المسلمون فدخلوا فيه !..

● وكانت الوسطية الإسلامية قد حددت « للإنسان » المسلم فى هذا الكون مكانا ممتازا ومتميزا .. فهو ليس سيد الكون ـ كما قررت ذلك الحضارات ذات الطابع المادى ـ حتى لقد زعمت تجسد الله فيه !.. كما أنه ليس « الحقير.. الفانى .. المتلاشى » فى ذات الله ـ كما قالت الحضارات ذات الطابع الصوفى ، الداعية إلى تعذيب الجسد تقربا إلى الله ، وإدارة الظهر للدنيا بزهد الدراويش !.. **فكان الإنسان فى الكون ، كما حدده الإسلام : أنه سيد فى هذا الكون ـ سيد فيه ، وليس سيده ـ لأنه ، مع تفضيله حتى على الملائكة المقربين ، وتسخير الطبيعة وقواها وظواهرها له ، يحتل فى هذا الكون مكان الخليفة والوكيل والنائب عن السيد الحقيق ، سبحانه وتعالى ، لامكان هذا السيد الحقيق .. فهو سيد فى نطاق الخلافة والنيابة والتوكيل ، سخرت له الطبيعة لعمارتها وترقيتها ، وليس للعدوان عليها والتدمير لمقوماتها .. وأعطى الحرية والمسئولية ، ليكون فى عمارة الكون وسياسة الدولة وتنظيم المجتمع مصدر السلطة والسلطان ، فى إطار مقاصد الشريعة وحدودها .. وبهذه الوسطية ربطت حضارتنا بين « العلم » و« الحكمة » بين « الوسائل » و« الغايات » .. وعرفنا فيها أن « السياسة » هى : « الأعمال التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد » .. وليست هى : « فن الممكن من الواقع » ـ بصرف النظر عن الوسائل والأساليب ونصيب الغايات من الفضائل والأخلاقيات ؟!..**

ويوم أن كانت سائدة فى حضارتنا هذه الوسطية ، تقدم المسلمون ـ فلما دعا

طريق إنسانها ـ بالتصوف الجماهيرى ـ تصوف العامة ـ إلى الفناء فى ذات الله .. ودعاه آخرون إلى مادية لاتقيم فى الوجود وزنا لسواه .. كان ذلك بابا من أبواب التخلف الذى دخل فيه المسلمون !..

● **وكانت الوسطية الإسلامية** قد أقامت توازنا نموذجيا وفريدا بين « الفرد » و« المجموع » .. حتى لقد استنت فى ميدان الثروة والمال سنة متميزة وممتازة . برئت من داء التطرف المنحاز إلى الفرد . كما تجسد فى « الليبرالية الاقتصادية الغربية » . ومن داء التطرف المنحاز إلى المجموع . كما تجسد فى « الشمولية الاقتصادية الغربية » .. فأقامت الوسطية الإسلامية موازنة وتوازنا بين الفرد والمجموع فى هذا الميدان الحاكم والحيوى من ميادين الإصلاح الاجتماعى . رأينا فيه : الملكية الحقيقية والمطلقة ـ ملكية الرقبة ـ فى الأموال لله سبحانه وتعالى .. ورأينا فيه : الإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ وليس الفرد أو الطبقة ـ خليفة ومُسْتَخْلَفاً عن الله فى إدارة الأموال واستثمارها وتنميتها . وفق مقاصد الشريعة وموازين العدل التى حددها المالك الحقيق .. ولهذا الإنسان ـ كفرد ـ بحق الخلافة والوكالة والنيابة ـ ملكية مجازية ـ هى ملكية المنفعة ـ أى الوظيفة الاجتماعية للملكية ـ محكومة بشروط ومقاصد الوكالة والنيابة والاستخلاف . وهى ثمرة للعمل المشروع . ومحدودة بحد الاكتفاء . لا الفقر ولا الاستغناء . وفق العرف الذى يرعى درجة المجتمع فى سلم الغنى والرخاء ... فجمعت هذه الوسطية المالية بين حسنتى الملكية الجماعية والملكية الفردية . وبرئت من أدواء التطرف فى أى منهما ..

وبهذه الوسطية تقدم المسلمون .. فلما جنحوا إلى الانحراف . فتحولت أرضهم وأموالهم إلى « إقطاع حربى » لقادة العسكر وأمراء الأجناد والمماليك ..

ثم جاء طور انحياز صفوة مفكريهم الاجتماعيين والاقتصاديين المتغربين إلى قطبي التطرف الوافدين من الحضارة الغربية ـ الليبرالية المطلقة .. أو الشمولية المطلقة ـ غابت الوسطية الإسلامية ، ودخل المسلمون إلى التخلف من هذا الباب !..

● **وكانت الوسطية الإسلامية** قد أبدعت التوازن بين « الدين » و« الدنيا » .. بين « الروح » و« المادة » .. فنحن نعمل للدنيا كأننا نعيش أبدا ، ونعمل للآخرة كأننا نموت غدا ، وإيماننا بالآخرة هو الذى يدعونا إلى أن نعمر فى الدنيا فنغرس الغرسة حتى عندما تقوم القيامة ونشهد بأعيننا أشراطها ؟!..

لقد دمجت هذه الوسطية وجمعت وألفت بين العالمين ـ « الدين » و« الدنيا » ـ حتى جعلت من زينة الحياة الدنيا عبادة دينية ، ومن صلاح أمور الدنيا وتوافر الاحتياجات المادية للإنسان ، الشروط الضرورية لصلاح أمر الدين ! ـ كما قال حجة الإسلام الغزالى ـ .. وأصبح مألوفا فى فكرنا الإسلامى مقولات تقول : مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ... وأن المسلم الحقيق ـ حتى لو كان أشعث أغبر ـ لو أقسم على الله لأبرّه الله ؟! .. وأن صلاة الجائع والخائف لا تجوز ، لأن « الأمن المادى » و« الروحى » هو أساس التدين بالدين ..

وعندما ساد هذا التوازن ، الذى صنعته الوسطية الإسلامية ، كان تقدمنا وتفوقنا . فلما غابت هذه الوسطية ، فأدار البعض منا ظهره للدنيا وعلومها وفنونها ، باسم الدين ، وأدار البعض الآخر ظهره للدين وعلومه ومناهج تهذيبه للنفس وترقيقه للقلوب ، باسم الدنيا ، اختل التوازن ، فكان ذلك الباب من

أبواب التخلف الذى دخل فيه المسلمون !..

● **وكانت حضارتنا** قد أقامت ذلك التوازن الفريد بين « فروض العين » و« فروض الكفاية » أى ـ بتعبير حديث ـ بين « الفرائض الفردية » و« الفرائض الاجتماعية » ـ كجزء من موازنتها بين « الفرد » و« المجموع » ـ.. فكانت هذه الموازنة لبنة من لبنات **تقدمنا** .. **إذ** فى ظلها كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ أى الاهتمام بالشئون العامة ـ فريضة تأتى فى مقدمة فرائض الإسلام .. وكانت المرأة لاتخرج إلى الحج ـ وهو خامس أركان الإسلام ـ إلا بإذن زوجها ، ولكنها تخرج إلى الجهاد عندما يتعين باحتلال العدو أرض الوطن ، حتى وإن رفض زوجها خروجها للجهاد ؟!.. وكانت مجالس العلم أزكى من خلوات عبادات الفروض العينية .. الخ .. الخ ..

فلما أصاب الخلل هذا التوازن وهذه الوسطية ، ورأينا الذين يهتمون همموم الأمة ويناضلون لنهضة « الجماعة » يتحللون من التكاليف الفردية ، بل ويسخرون منها .. على حين قد غرق وغالى فيها آخرون حتى لقد استنفذت منهم الطاقات فأهملوا مصالح « المجموع » .. كان ذلك واحدا من أبواب التخلف الذى دخل فيه المسلمون !..

● **وكانت حضارتنا** قد استنت سنة حسنة عندما وازنت ـ بالوسطية ـ بين « حقوق الحكام » و« حقوق المحكومين » ، فكان حكامها « عمالا » عندها و« أجراء » لديها ؟!.. لهم ـ وهم النواب عن الأمة ـ حق السمع والطاعة فيما فوضتهم الأمة فيه ، مما هو لازم لبلوغ الغاية من التفويض ، وفق مقاصد الشريعة وحدودها .. وللمحكومين على حكامهم حق العدل ، الذى هو أعظم

مقاصد الشريعة ، والغاية من رسالات كل الرسل ، واسم من أسماء الله سبحانه وتعالى ؟!

فلما اختل هذا التوازن .. تنكب الحكام سبيل العدل إلى مسالك المظالم والاستبداد .. فرأوا فى أموال المسلمين « طعمة » لهم ولأعوانهم ، وتوزعت الرعية إلى أرقاء للترغيب والترهيب !.. أما المحكومون فإنهم سلكوا سبل التواكل واللامبالاة والتدليس ، إفشالا لخطط الحكام ، ونكاية بهم ، وانتقاما من ظلمهم واستبدادهم .. فكان الفقر والإفلاس من مقاصدهم ـ أحيانا ـ حتى تضمحل سلطة غاصبيهم وظالميهم ؟! ـ « إيش تأخذ من تفليسى يابرديسى ؟! » ـ .. فغاب السمع والطاعة مع غيبة العدل والإنصاف .. واضمحلت الحضارة الإسلامية مع اضمحلال قدرات الحاكمين والمحكومين .. وكان ذلك بابا واسعا من أبواب التخلف الذى دخل المسلمون فيه !..

● **وكانت وسطيتنا الإسلامية** قد أقامت لنا توازنا عبقريا بين « العقل » و « القوة » ، تحدث عنه أسلافنا فيما أورثونا من كنوز تحت عناوين من مثل : الموازنة بين « القلم » و « السيف » .. **وبهذا التوازن صارت القوة الضاربة أداة بيد العقل والفكر والحضارة ، عليها أن تحمى الحمى ، وما حق « الوعى » الحضارى عندما يطلب منها أن « تطيع » ؟!..**

وعندما كانت هذه القوة الضاربة « عربية الفكر والحضارة » ـ أى من ذات الأمة ـ ساد التوازن بينها وبين « عقل الأمة » .. فكان التقدم والازدهار .. فلما أصاب الترف بأمراضه هذا القطاع من قطاعات الأمة ، وأعجزت الرفاهية وأقعدت العرب المسلمين عن النهوض بمهمة القوة الضاربة اللازمة والقادرة على مواجهة التحديات ، الداخلية ـ كالتشرذم الإقليمى .. والثورات المذهبية ..

والتمردات الطائفية والمحلية ـ والتحديات الخارجية ـ بيزنطية .. وصليبية .. ومغولية ـ عند ذلك لجأت الدولة إلى الترك المماليك ، فلما تضخمت مؤسسة العسكر المماليك ، اختل التوازن كأبشع مايكون الخلل ، فتحولت المؤسسة العسكرية المملوكية من أداة بيد الخلافة ـ كما كان مأمولا ـ إلى القوة الحقيقية التى تلعب بمنصب الخلافة ـ وكانوا غرباء عن حضارة الأمة ، ولم يألفوا ـ لأنهم عسكر وترك مماليك ـ ماتعنيه عقلانية الإسلام من استنارة ، وماعقده الإسلام الحضارى مع العروبة الحضارية من عروة وثقى .. فاختل التوازن ، لحساب « القوة » ، على حساب « العقل » .. لحساب « النصوصية » الجامدة ، وعلى حساب « العقلانية المستنيرة » .. ثم كان أن فرضت الأخطار الخارجية ـ وخاصة الصليبية والمغولية والغربية الحديثة ـ على الأمة أن تسلم القياد لهذا اللون من ألوان « القوة » ، وطالت أحقاب الخطر الخارجى فامتدت قرون الحكم للترك المغول ـ المماليك ـ والترك العثمانيين ـ فلما طال ليل التخلف ، النابع من غيبة التوازن ، وسيادة الخلل ، لاختفاء الوسطية أو تراجعها ، رأينا التراجع وقد صار جمودا .. ورأينا هذا الجمود وقد أثمر ـ بمرور القرون ـ هذا التخلف ، الذى استنفر ويستنفر القوى العاقلة فى الأمة لتجاهد من أجل اليقظة الإسلامية ، وفى سبيل النهضة التى تخرج المسلمين من المأزق الذى دخلوا فيه !..

● وكانت **وسطيتنا الإسلامية** قد صنعت ذلك التوازن الدقيق بين « الدين » و« الدولة » . عندما وقفت شريعتها الإسلامية الإلهية الثابتة عند المقاصد والفلسفات والحدود الثوابت فيما يتعلق بشئون الدولة وسياسة المجتمع وتنمية العمران . الأمر الذى جعل من هذه الشريعة ـ فى أحكامها الدنيوية ـ إطارا حاكما هو أشبه مايكون بالروح الحضارى والفلسفة التشريعية .. والأمة ،

بداخل هذا الإطار ، هى مصدر السلطات ، تبدع فى شئون « الدولة » إبداعها المحكوم بروح الشريعة الإلهية ومقاصدها ، تلك التى وقفت عند الثوابت والأصول ..

وفى ظل هذا التوازن صنعت أمتنا تقدمها .. فلما غاب عن « الواقع » و « الفكر » ، وجدنا أنفسنا وقد توزعتنا دعوات تبعنا فيها سنن الأمم والحضارات الأخرى ، شبرا بشبر وذراعا بذراع .. حتى لقد دخلنا جحر الضب الخرب الذى دخلوه ـ رغم تحذير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنا من هذا المصير ؟! ـ ... **فقال نفر منا بما يشبه « الكهانة » و « الدولة الدينية »** ... **وقال آخرون « بعلمانية » تدع ماالقيصر لقيصر وماالله لله ؟!** .. **وتوزعتنا مذاهب ، منها من يجرد الأمة من كل سلطة وسلطان .. ومنها من يجرد الإسلام من طابعه المدنى ومدخله فى سياسة الدولة وتنظيم المجتمعات** ... **فكان هذا الباب من أبواب التخلف الذى دخله المسلمون ، يستعيرون « مشكلا » كى يستعيروا له « الحلول » ، ذاهلين عن وسطيتهم الإسلامية ، وغافلين عن التوازن الذى أثمرته فى هذا الميدان** ! ..

* * *

تلك هى « الوسطية الإسلامية » : الخصيصة الجامعة ..

كانت « **زاوية الرؤية** » لكل سمات حضارتنا العربية الإسلامية إبان ازدهارها وعطائها ..

وكانت « **المزاج** » الذى طبع قسمات هذه الحضارة ، عندما كانت منارة الدنيا بأسرها ..

وكانت « الروح » السارية فى « المكونات : الثوابت » ، التى مثلت « هوية » هذه الحضارة و « جوهرها » .

وصدق الله العظيم إذ يقول : [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس] .

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول : « الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا .. » (١٢) .

إنها أمة عربية إسلامية متميزة بـ « هوية » حضارية متميزة .. ولابد ليقظتها ونهضتها الحديثة من أن تتأسس على مشروع حضارى يصطبغ بهويتها المتميزة ، لا لمجرد الوفاء بحق التمايز الحضارى الموروث على دعاة اليقظة والنهضة الحديثة .. وإنما بحكم الضرورة التى تعلمنا استحالة النمو على البذر إذا هو ألقى فى غير المناخ الصالح كى ينبت فيه .. وبحكم الأضرار المحققة والماثلة فى طريق التبعية للنموذج الحضارى الغربى ، الذى تتضح الآن أكثر فأكثر المآزق التى تمسك منه بالخناق !..

ـ إن تميز أصالتنا بهذه « الهوية » الحضارية التى طبعتها ، يتطلب أن تتميز بها معاصرتنا أيضا ، وذلك إذا شئنا ليقظتنا ونهضتنا أن تكون محققة لتحررنا من الأغلال .. أغلال التبعية لقاهرى أمتنا ، الذين فرضوا علينا التحديات ، تاريخيا ، ولايزالون يفعلون !.. وإذا شئنا ، كذلك ، لحضارتنا وأمتنا أن تعود فتسهم ، مرة أخرى ، فى العطاء الفكرى كحضارة إنسانية ، تبلورت حول عقيدة عالمية ، حمل رسالتها النبى العربى إلى الإنسانية جمعاء .

---

(١٢) رواه الإمام أحمد

إن حضارتنا إسلامية ، كما أن أمتنا إسلامية .. ولقد أنجزت أمتنا طور ازدهارها الحضارى عندما اصطبغت حضارتها بهذه الهوية الإسلامية ، فتأسلمت مختلف ميادين الإبداع الحضارى ..

وليس معنى أسلمة اليقظة والنهضة والمشروع الحضارى الظن بتطابق « الحضارة » و« الدين .. فـ « الحضارة » إبداع « بشرى ـ مدنى » ، وإسلاميتها تعنى تميزها بسيادة المعايير الإسلامية مختلف ميادين إبداعها .. فهى ثمرة لتفاعل « العقيدة » الدينية مع « الواقع » من خلال وبواسطة الإبداع « الإنسانى » .. إن العمارة الإسلامية » و« الفنون الإسلامية » ليست « الدين الإسلامى » ، ولكنها إبداع الإنسان المسلم عندما يكون مسلما حقا .. وكذلك الحال فى مختلف ميادين الإبداعات الحضارية .. إنها ـ بإيجاز ـ « الوضع البشرى » المؤسس على « الوضع الإلهى » ـ « الدين » ـ ، والمحكوم بأطره ، والمطبوع بطابعه الإلهى ، والمصبوغ بصبغته الإلهية ..

وفى الإبداع الحضارى ، وحول النهضة الحضارية يدور الحديث .. فشارع « الدين » ، سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظه [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] [١٣] . واليقظة المطلوبة ، والنهضة المنشودة ، هى إسلامية بقدر استلهامها الهوية الحضارية الإسلامية فى الإبداع الحضارى المدنى المنوط بمسلمى هذا العصر الذى نعيش فيه ...

---

(١٣) الحجر : ٩ .

تاريخ التراجع الحضارى
وأسبابه .. ومظاهره

لم يتبدل « الإسلام ـ الدين » .. ولم تضعف حصيلة المسلمين من فقه أسراره ومراميه .. بل لعل التقدم الذى أحرزته علوم الشريعة والعلوم الطبيعية أن يكون قد أتاح للخلف من أسرار الإسلام ومراميه ما لم يتح للأسلاف ..

فلماذا تقدم « السلف » .. وتخلف « الخلف » ؟.. حتى صرنا إلى ما نحن عليه ، ووجدنا أنفسنا ـ وغيرنا ـ مدفوعين إلى الخوض فى الحديث عن ضرورة اليقظة الإسلامية التى تخرج الأمة من السبات والنوم ؟.. والصحوة التى تنقذها من السكرة ؟.. والنهضة التى تغادر بها الركود .. والتقدم الذى يعتقها من التخلف ؟.. والتجديد الذى يخرج بها من الجمود ؟.. والاجتهاد الذى يعصمها من التقليد ؟.. والارتقاء الذى يرفع عنها عار الانحطاط ؟.. والتواصل الحضارى الذى يجدد الخيوط التى وهنت ، ويبعث الحياة فى قنوات الاتصال بين حياة المسلمين ودينهم الحنيف ؟؟؟..

لقد زادت معرفتنا بالإسلام .. وزادت كشوف المسلمين لثروات أوطانهم المادية .. وبلغ تعدادهم المليار .. وهم أكثر أهل الأرض زيادة فى معدل التوالد الجديد ؟!..

فلماذا تقدم السلف ؟.. ولماذا تخلف الخلف ؟..

سؤال طرحه العقل المسلم منذ القرن الثامن عشر الميلادى .. وأضاف إليه ،

منذ الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة ، السؤال عن : سر تقدم غير المسلمين ! !..

وإذا كانت إجابات هذا السؤال قد تعددت بتعدد مذاهب الذين طرقوا مباحث هذا الميدان .. فإننى أعتقد أن رصد التحولات الواقعية التى أحالت تقدمنا تخلفا ، عبر مسيرتنا التاريخية ، هو أقوم السبل لحسم النزاع بين المجيبين على هذا السؤال !..

* * *

لقد ذهب الصحابى سعد بن هشام بن عامر ، رضى الله عنه ، إلى أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، سائلا .. فقال :

« ـ يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن خُلقِ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ..

ـ فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟!

ـ قال : بلى !

ـ قالت : فإن خُلُقَ نبى الله كان القرآن »[1] !

هنا ، كان القرآن قد تحول ، عبر الذين فقهوه ، إلى طاقة حية ، تقيم فى الواقع بناء حضاريا تتجسد فيه روح القرآن !.. ولم يقف الأمر عند الحفظ والترتيل للآيات ، بل ولا الفقه للمرامى والأغراض ؟!..

وعندما ساوم الباطلُ ـ ممثلا فى مشركى قريش ـ الحقَّ ـ ممثلا فى رسول الله ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالترغيب والترهيب ، كانت قولته المشعة المدوية : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا

---

(١) رواه مسلم

الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .. »[٢] !

ولقد صبغت هذه المقولة تلك المرحلة . فكان شعار جيلها الفريد : «احرص على الموت توهب لك الحياة» !.. فكان الذى بهر الدنيا .. المستضعفون يقوضون عروش الأكاسرة والقياصرة ، ويحيون موات المواريث الحضارية القديمة ، ويفتحون فى ثمانين عاما ما لم يفتح الرومان ـ سادة الفتح فى التاريخ ـ فى ثمانية قرون .. ويبدعون أعظم وأنبل الحضارات التى شهدها تاريخ الإنسان ..

فلماذا .. ومتى .. وكيف حدث الانقلاب ؟.. وما هى المسيرة التى سلكتها الأمة إلى حيث تحققت فيها النبوءة السياسية والحضارية ، التى نبه عليها رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ محذرا ، عندما **قال** : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها !..»

فقال سامعوه : «يا رسول الله ، أمن قِلَّة بنا يومئذ ؟!»

قال : «أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ، ولينتزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن !»

فسأل سامعوه : «وما الوهن ، يا رسول الله؟»

قال : «حب الدنيا وكراهية الموت !»[٣] .

لماذا ؟.. ومتى ؟.. وكيف حدث الانقلاب الحضارى ، حتى تحققت «النبوءة ـ المُحذِّرة» لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فغدى المسلمون

---

(٢) النويرى [نهاية الأرب فى فنون الأدب] جـ١٦ ص٢٠٠ طبعة دار الكتب المصرية

(٣) رواه أبو داود وابن حنبل .

غرباء فى ديارهم ، أسرى لأعدائهم ، تستبد بهم وبمقدراتهم التحديات المعادية والمنهالة على عالم الإسلام من كل الملل والقوميات ـ ومن الحضارة الغربية وقواها العدوانية على وجه الخصوص ـ ؟!..

نمسك الخيط من بدايته .. ولنتابع المسيرة الحضارية ، راصدين أسباب التراجع ومظاهره ، لنضع أيدينا وعقولنا على سبل اليقظة التى هى الغاية من وراء هذه الصفحات .

* * *

لقد كانت قيادة الشرق ، فى صراعه التاريخى ضد الغرب ، للدولة الفارسية .. نهضت بهذه المهمة ، ومارست هذا الدور ، ناجحة حينا ومخفقة أحيانا ، لعدة قرون [٤٩٠ ق.م ٦٢٧ م]؟!..

لكن هذه الدولة الفارسية قد بلغت بها أمراضها المستعصية ـ من النظام الإقطاعى الظالم .. إلى الطبقية الثابتة المغلقة .. إلى استبداد أكاسرتها باسم التفويض الإلهى ـ بلغت هذه الأمراض حدا جعل كفة الغرب الإغريقى ترجح فى هذا الصراع ، فكانت الهيمنة الإغريقية الغربية على عالم الشرق منذ حقق الإسكندر الأكبر[٣٥٦ـ٣٢٣ ق .م] انتصاره الحاسم على الفرس سنة ٣٣١ ق.م .. ومنذ ذلك التاريخ :

- رزحت الشام ومصر وبلاد الشمال الإفريقى تحت الحكم الإغريقى فالرومانى فالبيزنطى ..
- وظل العراق تحت الهيمنة الفارسية ..
- وتبادل الفرس والأحباش السيطرة على اليمن وجنوبى شبه الجزيرة العربية ..

● وكاد وسط شبه الجزيرة العربية أن يسقط ، فيتم احتواء كل الشرق نهائيا ، فى غزو الحبشة لمكة عام الفيل سنة ٥٧١ م.. عام ولادة الرسول محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ؟!..

لكن ظهور الإسلام قد جاء إيذانا بتغير صورة هذا الواقع البائس ، وتبدل اتجاه التاريخ العالمى...

● فى عام البعثة المحمدية ، ومع تباشير الوحى برسالة الإسلام ، تحقق للعرب أول انتصار على الفرس فى «يوم ذى قار» ؟!..

● وبالتوحيد الدينى توحدت الهوية القومية والحضارية للعرب ، فبنوا دولتهم العربية الإسلامية ، التى رفعت رايات الوحدة على شبه الجزيرة كلها للمرة الأولى فى التاريخ.

● وانطلقت شعوب المنطقة ـ حتى الذين ظلوا على عقائدهم الدينية القديمة ـ خلف العرب المسلمين فى موجة الفتوحات العربية الإسلامية ، كالإعصار التحريرى ، فاقتلعوا الهيمنة الغربية البيزنطية التى رسف الشرق فى أغلالها لأكثر من عشرة قرون ؟!..

● وأنجزت هذه الفتوحات وحدة الشرق ، تحت قيادة الأمة العربية ، وواصلت الدولة العربية الإسلامية المهمة التى عجز عنها الفرس.. مهمة قيادة الشرق فى صراعه التاريخى ضد أطماع الغرب واستعماره..

لكن الغرب لم يستسلم لهذا المصير ، فظلت الجبهة «الإسلامية ـ البيزنطية» مشتعلة بوقائع الغزو والجهاد..

والذين يراقبون حركة «الخط البيانى» لأحداث جبهة الصراع «الإسلامية ـ

البيزنطية » . يلحظون العلاقة العضوية بين « وحدة الأمة الإسلامية » و « وحدة دولتها العربية الإسلامية » وبين توالى انتصارات الجهاد الإسلامى على خط هذه الجبهة .. فإذا ضعفت وحدة الأمة واهتزت وحدة الدولة مالت الكفة على جبهة التحديات الخارجية لصالح الأعداء .. أى أن العوامل الداخلية والخارجية قد ارتبطت دائما وأبدا فى الصعود والهبوط .. فى القوة والضعف .. فى الانتصار والهزيمة . فكان تاريخ « الواقع » الشاهد الأعظم على صدق « المناهج والنظريات » التى تعلمنا صدق هذه المقولة فى شئون الأمم عبر كل الحضارات وفى كل مراحل التاريخ .. فالعلاقة عضوية . والعروة وثقى بين العوامل الداخلية والخارجية فى صراعات هذه الأمة ، وفيما حققت من تقدم وما أصاب مسيرتها الحضارية من نكسات .

فاشتداد مخاطر التحديات الخارجية فتح الباب للاهتمام بـ « الدولة » أكثر من « الأمة » . والتركيز على « القوة » على حساب « العدل » . فتغير النهج الإسلامى ، تدريجيا ، منذ تأسيس الدولة الأموية [٤١ هـ ٦٦١ م] فشابت « الشورى » سلبيات « الملك العضود » ، وأصبحت الأموال دُولة بين الأغنياء ، بعد أن كانت نهرا أعظم والناس شربهم فيه سواء ؟! .. الأمر الذى فجر ، على أرض الواقع الداخلى سلاسل من « الثورات » و « الانتفاضات » و « الأزمات » .. عالجتها « الدولة » بالمزيد من « الأدواء » ، فلقد واجهت التمزق **الداخلى بتنمية « القوة » بدلا من إشاعة « العدل » و « الشورى » حتى جاء الوقت الذى تضخمت فيه هذه « القوة » الضاربة ــ وكانت قد أصبحت غريبة عن الروح الحضارى للأمة ــ فتم « الانقلاب » الذى قاد النهضة إلى التراجع والجمود ؟! ..**

لقد كانت وحدة « الأمة » الاختيارية هى المصدر الطبيعى لقوة « الدولة » .. وعندما كان التمزق يصيب وحدة « الأمة » كان الوهن يتسرب إلى قوة « الدولة » ، فتميل الكفة ـ إعمالا لقانون ارتباط العوامل الداخلية بالخارجية ـ تميل الكفة لصالح الأعداء على جبهة الغزو والجهاد ..

● ففى [٧٠ هـ ٦٨٩ م] انقسمت الأمة فى الصراع بين عبد الملك بن مروان [٢٦ ـ ٨٦ هـ ٦٤٦ ـ ٧٠٥ م] وعبد الله بن الزبير [١ ـ ٧٣ هـ ٦٢٢ ـ ٦٩٣ م] فبلغت « الدولة » من الضعف الحد الذى اضطرها إلى مهادنة الروم البيزنطين لقاء « جزية » ـ نعم « جزية » ـ هكذا سماها المؤرخون ؟! ـ مقدارها ألف دينار يدفعها خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم « كل جمعة » ؟! ..

● فلما عادت إلى « الأمة » وحدتها وإلى « الدولة » قوتها ، بعد تصفية ثورة ابن الزبير ودولته ، طويت هذه الصفحة من صفحات كتاب العلاقة مع الروم ، واستأنف المسلمون الغزو والجهاد فى [سنة ٧٦ هـ سنة ٦٩٥ م] وانتظم هذا الغزو والجهاد ، تقريبا ، كل عام ! ..

● فلما جاءت [سنة ٨١ هـ سنة ٧٠٠ م] وحدثت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث [٨٥ هـ ٧٠٤ م] كان التمزق والضعف .. فتوقف الغزو والجهاد فى ذلك العام ؟! .

● وإبان تزايد حدة الثورات التى أشعلها الخوارج والعباسيون ، تفرقت « الأمة » وانخرطت جموعها وقواها خلف أعلام الثوار .. فضعفت « الدولة الأموية » .. فتوقف الغزو والجهاد طوال فترة ضعف الدولة الأموية ، وفى مرحلة التأسيس وعدم الاستقرار ـ بسبب الثورات أيضا ـ للدولة العباسية .. بل لقد

مالت الكفة لصالح الروم ، فشرعوا فى غزو ديار الإسلام ، وانتزع ملكهم قسطنطين [٧٤١ ـ ٧٧٥ م] مدينة «ملطية» عنوة ، وهدم سورها فى [سنة ١٣٨ هـ سنة ٧٥٥ م] ؟!

● فلما عادت الوحدة» للأمة «والقوة» للدولة» العباسية الجديدة ، تغير ميزان القوى ، فعاودت الدولة غزوها وجهادها .. واستردت مدينة «ملطية» [سنة ١٤٠ هـ سنة ٧٥٧ م].

● وفى عهد هارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣ هـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩ م] تصاعد الخط البيانى للغزو والجهاد .. حتى إذا حدثت فتنة الأمين [١٧٠ ـ ١٩٨ هـ ٧٨٧ ـ ٨١٣ م] والمأمون [١٧٠ ـ ٢١٨هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م] تراجع هذا الخط ، فغابت من سنوات تلك المحنة ظاهرة الغزو والجهاد ؟!..

وفى القرن الثالث الهجرى برزت على خريطة الواقع الإسلامى عدة عوامل وظواهر ذات دلالة بالغة فى موضوع هذا الحديث..

● فثورات الخوارج وهباتهم وانتفاضاتهم قد تواصلت دون انقطاع..

● والعلويون ، الذين نافسوا العباسيين على «السلطة» و «الدولة» ، توالت ثوراتهم تحت قيادات «زيدية» .. فكانت لهم فى ذلك القرن الثالث الهجرى ثورات : فى الكوفة [سنة ٢٤٢ هـ سنة ٨٥٦ م] وطبرستان [سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م] والرى [سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م] وقزوين [سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م] والكوفة [سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م] وثورة الزنج الكبرى فى العراق وفارس [سنة ٢٤٩ هـ سنة ٨٦٣ م]..

● والشعوبية ، التى احترفت الكيد لكل ما هو عربى ، والتى لم تتبدد أحلامها فى إحياء المواريث المجوسية الفارسية القديمة ، واصلت هى الأخرى

الكيد لوحدة الأمة ولقوة الدولة .. ولم يتوقف نشاطها بنكبة الرشيد للبرامكة [سنة ١٨٨ هـ سنة ٨٠٣ م] .. بل لقد استثمروا هذه النكبة ، عاطفيا ، فى الكيد للعروبة ودولتها وللإسلام ووحدة أمته ..

● وغير الثورات المذهبية والفكرية ، تفجرت فى الكثير من ولايات الدولة انتفاضات محلية ، لأسباب اقتصادية أو اجتماعية أو عرقية أو قبلية .. وذلك من أمثال ما حدث فى مصر [سنة ٢١٣ هـ سنة ٨٢٨ م] و [سنة ٢١٤ هـ سنة ٨٢٩ م] و [سنة ٢١٥ هـ سنة ٨٣٠ م] و [سنة ٢١٦ هـ سنة ٨٣١ م] وما حدث فى فارس [سنة ٢٢٠ هـ سنة ٨٣٥ م] وما حدث فى طبرستان [سنة ٢٢٤ هـ سنة ٨٣٩ م] وما حدث فى البحرين [سنة ٢٨٦ هـ سنة ٨٩٩ م].

● وغير هذه الثورات .. والمكائد .. والتمردات ، شهد هذا القرن ، والذى تلاه عددا من الأزمات الداخلية ، ذات الطابع الفكرى ، أضعفت وحدة الأمة ، فسرى الضعف إلى الدولة والخلافة على نحو مهد السبل لعوامل التراجع والجمود والاضمحلال ..

ففى سنوات [٢١٢ ـ ٢١٩ هـ ٨٢٧ ـ ٨٣٤ م] حدثت المحنة التى اشتهرت بمحنة «خلق القرآن» ، عندما استخدمت الدولة قوتها فى فرض لون من ألوان الفكر على رافضيه ، فكان ما كان من انقسامات فى صفوف العامة والخاصة على حد سواء ..

وفى [سنة ٢٣٦ هـ سنة ٨٥٠ م] شرع المتوكل العباسى [٢٠٦ ـ ٢٤٧ هـ ٨٢١ ـ ٨٦١ م] فى اضطهاد الشيعة والمعتزلة والعلويين .. وتصاعد هذا الاضطهاد فى عهد القادر بالله [٣٨١ ـ ٤٢٣ هـ ٩٩١ ـ ١٠٣١ م] فصدر ما عرف بـ «الاعتقاد القادرى» ، الذى حرم فكر

المعتزلة وأهل العدل والتوحيد . بما يشبه المراسيم الكنسية . الغريبة عن روح الإسلام ؟!..

● وفي خضم هذه الثورات .. والمكائد .. والتمردات .. والأزمات .. وبتأثيراتها . كان ضعف الدولة المركزية .. فظهرت حركة استقلال العديد من الولايات . وخصوصا في الأطراف .. فاستقلت الدولة الطولونية [٢٥٤ هـ ٨٦٨ م] والبويهية [٣٣٤ هـ ٩٤٥ م] والغزنوية [٣٩٠ هـ ٩٩٩ م] ـ **وكانت السلطة فيها جميعا أعجمية ـ تركية وديلمية ـ ؟!.. وذلك فضلا عن المغرب .. والأندلس** [٤] ..

تلك كانت أبرز التحديات التي واجهت الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري .. فماذا صنعت هذه الدولة إزاء هذه التحديات ؟!..

لقد سبقت إشارتنا إلى أن الدولة قد عالجت هذه « الأدواء » بـ « الداء » الذي زادها حدة وتفاقما .. فأغلب هذه الانشقاقات والأزمات قد جاء ثمرة لضمور « العدل » و « الشورى » في مناهج الحكم وغاياته ووسائله . لحساب تركيز السلطة والثروة بيد « الدولة » وأنصارها وعصبيتها . ظنا منها أن ذلك هو المعين على مواجهة التحديات الخارجية بكفاءة واقتدار .. لكن هذا الطريق في معالجة التحديات قد زادها عددا واستفحالا . على النحو الذي أشرنا إلى أبرز معالمه فيما تقدم من سطور ..

والبعض ـ ممن يحترف منهج « التبرير » في كتابة التاريخ ـ يرى أن « الدولة »

---

(٤) انظر في تواريخ هذه الأحداث [كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م

لم يكن أمامها خيار آخر فى معالجة ومواجهة هذه التحديات .. فلا يفل الحديد إلا الحديد ؟! ...

لكننا ننبه إلى أن النهج الإسلامى ، بل والتاريخ الإسلامى ، قد عرف ، بل ومارس ، خيارا آخر فى مواجهة مثل هذه التحديات ... فخامس الراشدين عمر بن عبد العزيز [٦١ ـ ١٠١ هـ ٦٨١ ـ ٧٤٣ م] عندما حمل أمانة خلافة المسلمين ، واجهته تحديات مماثلة ، بل ربما أشد ... فعلى جبهة « العدل » ، وجد ثروة الأمة ، التى تركها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والشيخان « نهرا أعظم ، والناس شربهم فيه سواء » ، وجدها قد حيزت من قبل العصبية الأموية ، وغدت دُولة بين الأغنياء ... فجعل رسالته الخالدة : رد المظالم إلى أهلها ، بادئا بنفسه وأهله وأمراء بنى أمية وبطانة الدولة فعامة الناس ! .. وعلى جبهة « الشورى » ، وجد أن فلسفة الحكم قد تنكبت طريقها ، وغدت « الخلافة » ملكا وراثيا عضوضا .. فعزم على إعادة الأمر شورى بين المسلمين ـ وإن يكن أعداؤه لم يمكنوه من تحقيق عزمه هذا ، عندما دسوا له السم فمات ؟! ـ ... وعلى جبهة « وحدة الأمة » ، واجهته ثورات الخوارج والعلويين وأهل العدل والتوحيد .. فحصن الثغرات فى جدار وحدة الأمة بالعدل والسلام العام .. وعقد الهدنة مع الجيوش الثائرة والجموع المتمردة ، واستبدل الحوار بالسيف ! ... إلى آخر ما صنع رضى الله عنه من معالم النهج الإسلامى الأمثل فى معالجة الأزمات التى تمر بالدول والمجتمعات [٥] ...

صحيح أن الذين خلفوه كانوا ثورة مضادة على هذا النهج الإسلامى ...

---

(٥) انظر كتابنا : [عمر بن عبد العزيز .. خامس الخلفاء الراشدين] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

لكن ما صنعه عمر بن عبد العزيز شاهد على أن للإسلام نهجا متميزا فى معالجة الأمراض والتحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ... وليس صحيحا ما يقوله محترفو «التبرير» . من أن الدولة العباسية لم يكن أمامها خيار آخر غير المزيد من «القوة» وتركيز السلطة و«عسكرة المجتمع» لمواجهة هذه التحديات ..

لكن الذى حدث قد حدث !..

فلقد أقدم الخليفة العباسى المعتصم [٢١٨ـ٢٢٧ هـ ٨٣٣ـ٨٤٢ م] ـ كى يواجه التحديات التى أشرنا إليها ـ على ذلك «الخطأ القاتل» عندما استجلب الترك المماليك . وأقام لهم مدينة «سامراء» معسكرا ، وجعلهم مركز الثقل فى القوة العسكرية الضاربة لدولة الخلافة .. فهنا : وللمرة الأولى فى تاريخ الدولة الإسلامية أصبحت القوة الضاربة للدولة غريبة عن روح حضارتها .. فليست لهم عروبة الأمة والدولة والحضارة .. وليست لهم عقلانية الإسلام ، لأنهم لم يحصّلوا منه ، بعد شهادة التوحيد ، إلا أشكالا ورموزا لا تغنى عن جوهر هذا الدين ؟!..

وزاد الطين بلة ، أن الدولة ـ كى تواجه حدة التحديات ـ زادت هذه المؤسسة العسكرية عدة وعتادا ، **فتغيرت موازين القوة بينها وبين «الخلافة ـ الدولة» . فبعد أن كان المظنون والمبتغى أن يكون العسكر المماليك أداة طيعة بيد الخلافة ، لعدم ارتباطهم بأطراف الصراع الداخلى فى الدولة ، غدت الخلافة لعبة فى يد أمراء الأجناد الترك وقادة المماليك .. «وسامراء» التى بنيت معسكرا لهؤلاء العسكر ، تابعا للعاصمة «بغداد» غدت ـ فى سنة ٢٢١ هـ سنة ٨٣٦ م ـ العاصمة التى تتبعها «بغداد» ؟!.. وكان مقتل الخليفة المتوكل . بيد قادة الجند المماليك بداية هذا التحول الجذرى فى**

مسيرتنا الحضارية ، فدخل ازدهارنا الحضارى ، عبر مراحل طويلة ، ومن خلال دروب متعرجة ، وبمصاحبة صحوات عدة ، ومقاومات باسلة ـ كما هو شأن التطور الحضارى ، صعودا وهبوطا ـ دخل ازدهارنا الحضارى ، منذ ذلك التاريخ نحو الهبوط والتراجع والانكسار ..

لقد قضى الأمر .. و « تعسكرت » الدولة الإسلامية ، وحدث انفصام حضارى بين « السلطة والدولة » وبين « الأمة وحضارتها » .. وأصبحت مقاليد الأمر والنهى والحل والعقد بيد رجال من مثل : « وصيف » و« بغا » و« كيغلغ » و « باجور » و« بايكباك » و « بكلبا » و « أصغجون » .. الخ .. الخ .. ؟! ..

وغدت الخلافة وأصبح الخليفة لعبة فى أيديهم ، يولونه ويعزلونه ، ويسجنونه ويقدمون له السم فلا يملك إلا أن يتناوله ليموت ؟! .. ولقد أجاد الشاعر الذى شهد ذلك الواقع عندما وصف حال الخليفة المستعين بالله [٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م] مع قائدى الجند المماليك « وصيف » و « بغا » ، فصور الواقع الذى بلغته الخلافة والخليفة فقال :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما يقول الببغا ؟!

وعندما انتهت حياة الخليفة المستعين بالله مقتولا بيد هؤلاء الجند الترك المماليك ، قال البحترى [٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ ٨٢١ ـ ٨٩٨ م] :

لله در عصابة تركية ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا ، فأصبح ملكنا متقسما وإمامنا فيه شبيه الضيف ؟!

لقد تعسكرت الدولة بهذه «العصابة التركية».. وغدا «السيف ـ القوة» هو السيد المرهوب فى كل الأمور.. ولم تنجح «القوة» فى رأب الصدع ومداواة الجراح ومواجهة التحديات.. بل تفاقمت الأمور و«أصبح ملكنا متقسما» ـ على حد تعبير البحترى ـ.. أما الخليفة ـ الإمام ـ أمير المؤمنين ـ فلقد أصبح ـ إلى جانب هذه «العصابة المملوكية» ـ «شبيه الضيف» فى الدولة التى هو خليفة عليها[6] ؟!..

لقد قضى الأمر.. وتعسكرت «الدولة».. ثم جاء دور التحديات الخارجية. فدت فى عمر هذه السلطة العسكرية.. فالغزوة الصليبية قد امتدت قرابة القرنين [٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م].. والغزوة التترية قد زلزلت كيان الأمة عندما دمرت بغداد [سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨ م] حتى لقد ووجهت الأمة أمام هذين الخطرين ـ اللذين تحالفا فى بعض مراحل غزوهما لعالم الإسلام ـ ووجهت الأمة بخطر الإبادة الحضارية والاقتلاع من وطنها بالاستعمار الصليبى الاستيطانى.. فرضيت الأمة باستبداد العسكر المماليك. لأن «حديد» فرسان الإقطاع الصليبيين. و«بأس» فرسان التتر المتوحشين. لم يكن بالإمكان مواجهته وصده إلا بـ «حديد» مناظر. و«بأس» مماثل. هو «حديد» و «بأس» الفرسان المماليك!...

وكان طول عمر هذه التحديات الخارجية سببا فى تتابع دول العسكر ـ من الديلم.. والغُزّ.. والترك ـ على حكم عالم الإسلام.. فتتابعت هيمنة الدولة الزنكية [٥٢١ ـ ٦٤٨ هـ ١١٢٧ ـ ١٢٥٠ م].. والأيوبية [٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ ١١٧١ ـ ١٢٥٠ م] والمملوكية ـ البحرية ـ [٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ ١٢٥٠ ـ

---

(٦) انظر كتابنا [العرب والتحدى] ص١٢٥ وما بعدها. طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م.

١٣٨٢ م] فالمملوكية ـ البرجية ـ [٧٨٤ ـ ٩٢٢ هـ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م] التى أسلمت الزمام للترك العثمانين ؟!..

ولم يقف الأمر عند «عسكرة الدولة» . بل لقد امتدت تأثيرات هذه «العسكرة» إلى المجتمع . فأحدثت وأقامت أكثر العوامل السلبية التى فعلت فعلها فى التخلف والتراجع والجمود لحضارتنا العربية الإسلامية ..

لكن ... قبل الحديث عن تأثيرات «العسكرة» على «الحضارة» ، ومظاهرها فى ميدان التراجع الحضارى ... علينا أن نسأل : لماذا اختار المعتصم العباسى أن تكون «القوة» الضاربة غريبة عن أجناس الأمة ؟.. ومن الترك بالذات ؟.. ولماذا لم يلجأ ـ كخليفة عربى ـ إلى العرب . يستعين بهم على مواجهة التحديات التى تواجه الدولة العربية الإسلامية ، كما صنع ، من قبل ، عمر بن عبد العزيز عندما جدد جهاز الدولة وأحدث فيه ما أحدث من تغييرات بلغت حد الثورة بواسطة عناصر وقوى وبدائل من ذات الأمة . وليس من خارجها .. ولا من الغرباء عن روح حضارتها ؟؟..

إن البعض يُبسِّط الإجابة على هذا السؤال تبسيطا مخلا ، عندما يرجع اختيار المعتصم للترك المماليك بسبب من جنسية أمه ، التى كانت جارية تركية ؟!.. لكننا نعتقد أن هذا الخليفة ، الذى كان كالمأمون [١٧٠ ـ ٢١٨ هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م] والواثق [٢٢٧ ـ ٢٢٨ هـ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م] منحازا إلى فكرية التيار العقلانى ـ المعتزلة ، أهل العدل والتوحيد ـ وواعيا بمخاطر الشعوبية والتيار الشعوبى على وحدة الدولة ، لم يكن بالمعادى للجنس العربى ، ولا بالزاهد فى الاستعانة بالعرب ، ليكونوا «القوة الضاربة» التى تواجه بها الدولة ما فرض عليها من تحديات ... أما لماذا لم يلجأ المعتصم إلى «العرب» ،

واستجلب بدلا منهم «الترك ـ المماليك» فإن مرجع ذلك ـ في اعتقادنا ـ إلى أسباب، في مقدمتها:

١ ـ أن التيار العلوي، المناهض للعباسيين، والساعي لانتزاع الدولة منهم، كان قد استقطب العنصر العربي إلى دعوته وثوراته. وذلك بسبب من الدور الملحوظ للعنصر الفارسي في قيام الدولة العباسية.. فلقد أصبح هوى العرب مع آل البيت، والعلويين منهم على وجه الخصوص..

٢ ـ وهو الأهم ـ أن العنصر العربي كانت قد استوعبته عوامل الترف والرفاهية، فلم يعد مؤهلا ليكون «القوة ـ الخشنة ـ الضاربة» القادرة على مواجهة ما تواجه الدولة من تحديات.. أو على الأقل لم يكن ذلك بالأمر السهل في التهيئة والإعداد.. فبدلا من أن تبذل الدولة جهدها في تهيئة العرب كي يكونوا قوتها الضاربة ـ وهي لا تطمئن إليهم، لأنهم طرف في الصراعات القائمة ـ لجأت إلى عنصر غريب ـ «الترك ـ المماليك» ـ ظنا منها أنهم لغربتهم عن أطراف الصراع، سيكونون أداة خالصة الطاعة وكاملة الولاء للخلافة والدولة العباسية..

إذن هو «الترف» و«الرفاهية» اللذان أعجزا العرب عن حماية الدولة والحضارة التي بنوها بثورة الإسلام وعقلانية القرآن وخشونة الجند الفاتحين!..

ونحن عندما نتأمل صنيع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب [٤٠ ق.هـ ـ ٢٣ هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤ م] في هذا الميدان نجد شواهد الصدق على هذا الذي نقول.. لقد كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يحفظ لهذه الدولة وأمتها وحضارتها قوتها العربية الضاربة، شديد الوعي لمخاطر الترف والرفاهية ـ التي عرفها العرب بعد الفتوحات ـ على خشونة الجند العربي وأهليته للقتال

والجهاد ... فكان يمصر الأمصار الخاصة بالجند فى البلاد التى يفتحونها ، حتى لا يندمجوا فى الحياة المدنية المترفة فى تلك البلاد فيفقدوا خصائص الجند الذين صاغت خشونتهم طبيعة البلاد التى نشأوا فيها .. بل وكان يحرص على تميزهم فى الزى عن أهل البلاد المفتوحة ... وبلغ به هذا الحرص إلى الحد الذى نهاهم فيه عن الزواج من نساء تلك البلاد ، وهن كتابيات أحل الإسلام والزواج بهن ، فلم يقل عمر إنه «حرام» ولكنه نبه على «مضاره» الاجتماعية والعسكرية على الجند الذين أرادهم قوة ضاربة تحمى الدولة وتصد عنها القائم والآتى من التحديات ..

كان عمر يصنع ذلك بالذين خرجوا إلى مواطن الترف فاتحين .. أما من بقى فى شبه الجزيرة من أشراف قريش ورءوس الصحابة ، فلقد كان واعيا بمخاطر خروجهم إلى مواطن الترف وانغماسهم فى حياة الرفاهية ... ولنتأمل فى ذلك عبارة الطبرى [٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ ٨٣٩ ـ ٩٢٣ م] التى تقول : « **إن عمر بن الخطاب كان قد حجر على أعلام قريش ، من المهاجرين ، الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل ؟!.. فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان عمر يأخذهم به . فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ورأوا الدنيا ! ورآهم الناس ، فانقطع إليهم الناس .. وتقربوا إليهم ، وقالوا : يملكون فيكون لنا فى ملكهم حظوة ؟! فكان ذلك أول وهن على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة !!** [٧] » .

ولنتأمل أكثر وأكثر وصف الطبرى لهذا التحول ، تحول جند الدولة وقوتها العربية الضاربة ، من خشونة الجند البعيدين عن الترف والرفاهية ، إلى نعومة

---

(٧) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] جـ١١ ص ١٢ ، ١٣ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

الحياة المدنية المترفة ، وصفه هذا التحول بقوله : « **فكان ذلك أول وهن على الإسلام** » ؟!

ثم .. لنتأمل ، أيضا ، حديث ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م] عن طور انتقال الدولة من « العمران » إلى « الترف والرفاهية » . وكيف **أن ذلك التحول هو « سِنُّ الوقوف لعمر العالم فى العمران والدولة » ؟!** [٨] أى علامة الدخول إلى طور التراجع عن العمران ـ الحضارة ـ والدخول فى طور الاضمحلال ..

فهو إذن « الترف » والانغماس فى حياة « النعومة والرفاهية » . هو الذى أفقد الدولة العربية الإسلامية قوتها الطبيعية الضاربة والحامية ـ القوة العربية ـ حضاريا ـ فكان أن لجأ المعتصم العباسى إلى اتخاذ قراره المشئوم ، واقتراف خطئه القاتل ، بتكوين جند الدولة من عنصر غريب عن حضارة الأمة ، هم « الترك ـ المماليك » ..

وصدق الله العظيم إذ يقول : [وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا] [٩] .. ـ ومن « القراء » من يقرأ [أَمَّرنا] ـ بتشديد « الميم » مفتوحة ، أى جعلناهم أمراء الدولة وقادتها ؟!

هكذا تعسكرت « الدولة » .. فلما طال عليها الأمد ـ بسبب طول التحديات الخارجية وحدتها ـ امتدت تأثيرات « العسكرة » إلى المجتمع . فأصابت الكثير من ميادين الإبداع الحضارى بالذبول والجمود .. فدخلت حضارتنا العربية

---

(٨) [المقدمة] ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

(٩) الإسراء : ١٦ .

الإسلامية طور الغفوة والسبات ، ومرحلة التراجع والتخلف منذ ذلك التاريخ ..

* * *

أما كيف كان ذلك .. فإننا نستطيع رصد مظاهر التراجع الحضارى والتخلف الفكرى إذا نحن نظرنا فيما أصاب السمات والقسمات التى تميزت بها حضارتنا ، والتى ميزت ازدهار هذه الحضارة .. ما أصابها به هذا الانقلاب الذى عسكر الدولة ، ومد آثار العسكرة المملوكية إلى كثير من الميادين ..

وفيما يتعلق بالانحراف عن شريعة الأمة :

كان التيار العقلانى ـ وفرسانه المعتزلة بخاصة ـ وتيار أهل العدل والتوحيد بعامة ـ هم الصناع الحقيقيون لقسمة العقلانية فى حضارتنا العربية الإسلامية .. **لقد انطلقوا من القرآن ، الذى أعلى مقام العقل ، ومن اقتصاد الإسلام فى الغيبيات ، فصاغوا ـ من قبل ترجمة الفلسفة اليونانية ـ وللمرة الأولى فى تاريخ الفكر الفلسفى ـ صاغوا « علم الكلام الإسلامى » فلسفة إسلامية مؤسسة على الوحى ، فيها تزامل « العقل » و « النقل » ، وتآخت الحكمة والشريعة ، وجاورت « العقليات » « السمعيات » ، وشد « التوحيد » فى الألوهية من أزر « الطبائع والسببية »** .. واستطاعوا بهذه العقلانية الإسلامية المتميزة النهوض بمهمة مجادلة الفلاسفة واللاهوتيين من أبناء الملل الأخرى ، فوظفوا الفلسفة ـ للمرة الأولى فى التاريخ ـ سلاحا بيد الدين ، وكان لهم ، فى هذا الميدان ، فضل نشر الإسلام فى البلاد التى ازدهرت فيها الأبنية الفكرية التى استرشدت بميراث اليونان الفلسفى والمنطق فى المناظرة والجدال ..

صنع هذا التيار العقلانى قسمة العقلانية الإسلامية فى حضارتنا . تلك التى أدهشت مفكرى الغرب من تميزها بالتدين . فكتب ألفريد جيوم Alfred Guillaume يقول : « إن قوة الحركة الاعتزالية مردها .. **إقامة علم الكلام الإسلامى على أسس ثابتة من الفلسفة . مصرين فى الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية .. مع وجوب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية** .. »[١٠] .

وعلى عكس المسيحية وحضارتها الغربية . التى وقفت فلسفتها عند « العقل » ــ فى معاداة « للنقل » ــ ودعا دينها إلى أن يؤمن المؤمن بما يلق إلى قلبه دون نظر عقلى ــ على حد قول القديس أنسلم Anselme [١٠٣٣ ــ ١١٠٩ م] ــ جعل المعتزلة « النظر » أول واجبات الإنسان[١١] .. لأن النظر العقلى هو سبيل معرفة الله والإيمان به ، وعليهما يترتب الإيمان بالرسالة والرسل والوحى والكتاب .. ومن هنا جاء اعتمادهم على « العقل » مع « الكتاب » و « السنة » و « الإجماع » .. بل وتقديمه عليها ، **لا تقديم تفضيل** ، **وإنما تقديم ترتيب .. فقالوا : إن « الأدلة : أولها : دلالة العقل . لأن به يميز بين الحسن والقبيح . ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والإجماع .. وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم . فيظن أن الأدلة هى : الكتاب . والسنة . والاجماع . فقط . أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر . وليس كذلك . لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل . ولأن به يعرف أن الكتاب حجة .**

---

(١٠) جيوم [الفلسفة وعلم الكلام] ص ٣٧٩ ــ ضمن كتاب « تراث الإسلام » ــ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(١١) د . على فهمى خشيم [الجبائيان : أبو على وأبو هاشم] ص ٣٣٣ . طبعة طرابلس ــ ليبيا ــ سنة ١٩٦٨ م .

وكذلك السنة . والإجماع . فهو الأصل فى هذا الباب . وإن كنا نقول : إن الكتاب هو الأصل من حيث أن فيه التنبيه على ما فى العقول . كما أن فيه الأدلة على الأحكام ... ومتى عرفنا . بالعقل . إلها منفردا بالإلهية . وعرفناه حكيما . نعلم فى كتابه أنه دلالة . ومتى عرفناه مرسلا للرسول . ومميزا له . بالأعلام المعجزة . من الكاذبين . علمنا أن قول الرسول حجة . وإذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تجتمع أمتى على خطأ[12] . وعليكم بالجماعة[13] » . علمنا أن الإجماع حجة ... »[14].

فاعتماد العقل هنا . وتقديمه . ليس غضا من شأن « النقل » . بل مؤازرة ومؤاخاة وتأييدا .. فهم لم يقولوا بانفراد العقل بالمعرفة . وإنما اعتمدوه دليلا لمعرفة الأصول الشرعية . فعندهم ـ كما يقول الماوردى [٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م] : أن « السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيئان : أحدهما علم الحس ، وهو العقل ، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول ، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول .. فالعقل : أم الأصول .. وثانيها : معرفة لسان العرب ـ وهو معتبر فى حجج السمع خاصة .. »[15].

فالعلاقة عضوية . والعروة وثقى ـ فى هذه العلاقة الإسلامية ـ بين « العقل » و « الشرع » باعتبارهما دليلان خلقهما خالق واحد . وجعلهما السبيل لهداية الإنسان ، وإذا قلنا « إن لكل فضيلة أسًّا . ولكل أدب ينبوعا ، فأس

---

(١٢) لفظ الحديث فى ابن ماجة : « إن أمتى لا تجتمع على ضلالة » .

(١٣) رواه ـ بألفاظ متفاوتة ، مع اتحاد المعنى ـ : البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة .

(١٤) قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ١٢٧ . طبعة تونس ١٩٧٢ .

(١٥) [أدب القاضى] جـ ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م .

الفضائل وينبوع الآداب هو العقل ، الذى جعله الله تعالى للدين أصلا ، وللدنيا عمادا ، فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، وألف به بين خلقه ، مع اختلاف هممهم ومآربهم ، وتباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تعبدهم به قسمين : قسما وجب بالعقل ، فوكّده الشرع ، وقسما جاز فى العقل ، فأوجبه الشرع ، فكان العقل لهما عمادا ...»[١٦].

وعلى عكس العقلانية الغربية الملحدة ، التى جعلت من إعطاء المادة والطبيعة حظها من السببية والفعل أمرا ينفى وجود الألوهية ، كالسبب الأول والأعظم فى هذا الكون .. على العكس منها جمعت العقلانية الإسلامية بين الأمرين .. فللطبيعة فعل ، ومادتها وظواهرها وعواملها أسباب لمسبَّبات .. ومع ذلك فإنها ـ مع فعلها ـ مخلوقة للسبب الأعظم والأول فى هذا الكون .. وتلك واحدة من إنجازات علم الكلام الإسلامى ، الذى أبدعه التيار العقلانى فى حضارتنا .. ولنتأمل عبارة الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م] التى يقول فيها : «وليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام ، متمكنا من الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ! . والعالم عندنا هو الذى يجمعهما ، والمصيب هو الذى يجمع تحقيق «التوحيد» وإعطاء «الطبائع» حقها من الأعمال ! . ومن زعم أن «التوحيد» لا يصلح إلا بإبطال حقائق «الطبائع» ، فقد حمل عجزه على الكلام فى «التوحيد» . وكذلك إذا زعم أن «الطبائع» لا تصلح إذا قرنها «بالتوحيد» . ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى «الطبائع» . وإنما يأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على «التوحيد» إلى

---

(١٦) الماوردى [أدب الدنيا والدين] ص ١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

بخس حقوق « الطبائع » ، لأن فى رفع « أعمالها » رفع « أعيانها » ، وإذا كانت « الأعيان » هى الدالة على الله ، فرفعت « الدليل » ، فقد أبطلت « المدلول عليه » ! . ولعمرى ! إن فى الجمع بينهما لبعض الشدة ؟! .. وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل ، نقضت ركنا من أركان مقالتى !. ومن كان كذلك لم ينتفع به ؟! .. »[١٧] .

هكذا .. وعلى هذا النحو .. وفى مواجهة كل « الثنائيات » .. صاغ التيار العقلانى القسمة العقلانية لحضارتنا العربية الإسلامية ، فوازنوا ـ « بالوسطية » ـ وجمعوا وألفوا بين ما يمكن جمعه وتأليفه من المتقابلات والأقطاب ، التى عدت فى الحضارات الأخرى نقائض لا يمكن تعايشها ، فضلا عن الجمع والتأليف بينها ... ثم هم قد كانوا فلاسفة ودعاة إلى الدين .. وعلماء ورجال دولة ، وفرسان العلوم النظرية والعملية معا ، يبحثون فى الإلهيات ويجرون التجارب على النباتات والحيوانات .. فلقد كان فيهم من « أشراف أهل الحكمة » مشتغلون بعلم الحيوان ، يجرون فيه التجارب والملاحظات والاستقراءات ، ويقولون فى شرفه وقدره : « إن هذا العلم يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة والكهول العلية ، وحتى ليختاروا النظر فيه على التسبيح والتهليل ، وقراءة القرآن ، وطول الانتصاب فى الصلاة ، وحتى ليزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد ، وفوق كل بر واجتهاد .. ؟! »[١٨] .

لقد كانوا علماء .. وصناع حضارة .. طبعوا الحضارة التى أبدعوها بهذا

---

(١٧) [كتاب الحيوان] جـ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ تحقيق : الأستاذ عبد السلام هارون . طبعة القاهرة ـ الثانية ـ .

(١٨) [كتاب الحيوان] ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

الطابع العقلانى المتميز والفريد .. فماذا صنع بهم ، وبهذه العقلانية الإسلامية ذلك الانقلاب الذى أحدثه عسكرة الدولة عندما هيمن عليها العسكر الترك المماليك ؟؟ ..

* * *

كان الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١ هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م] يمثل فى بغداد العباسية النقيض الصريح لفكرية التيار العقلانى الإسلامى .. فعداؤه المفهوم للفلسفة اليونانية قاده إلى معاداة علم الكلام الإسلامى وتجريح جميع المتكلمين .. ونفوره من العقلانية وقف به عند النصوص وحدها .. بل وعند ظواهر النصوص .. ولم يكن الإمام أحمد ـ بداهة ـ فيلسوفا ولا متكلما .. بل ولم يكن فى الحقيقة فقيها ، وإنما كان محدثا ، جمع واحدا من أكبر مسانيد الحديث النبوى الشريف .. وصاغ أصول « المنهج النصوصى » ، المعتمد على الأخبار وحدها ، والرافض لما عدا النصوص من أدوات التفكير والبحث والبرهان ..

فأركان منهجه الخمسة ـ كما يحددها الإمام السلفى ابن القيم [٦٩١ ـ ٧٥١ هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠ م] ـ تجعل محوره الأوحد ـ تقريبا ـ هو النصوص[١٩] .. « فالأصل الأول : النصوص ... والأصل الثانى : ما أفتى به الصحابة » ـ وهى نصوص ـ .. « والأصل الثالث : إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم .. » ـ نصا من النصوص ـ .. « والأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف .. » ـ وهى نصوص يقدمها ـ مع ضعفها ـ على غيرها من

---

(١٩) [أعلام الموقعين] جـ١ ص ٧٦ ، ٧٧ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م

سبل الاستدلال ـ... «والأصل الخامس : القياس للضرورة ، إذا لم يكن عنده فى المسألة نص ، ولا قول الصحابة ، أو واحد منهم ، ولا أثر مرسل أو ضعيف..» !..

لقد كان معاديا «للرأى» وأصحابه ، ينهى عن سؤال أصحاب الرأى ، ويقول : إن «ضعيف الحديث أقوى من الرأى» !..

بل لقد صاغ الإمام أحمد بنفسه منهجه النصوصى هذا.. صاغه شعرا فقال :

دين النبي محمد **آثار** — نعم المطية للفتى **الأخبار**
لاتخدعن عن **الحديث** وأهله — **فالرأى ليل والحديث نهار؟!**
ولربما جهل الفتى طرق الهدى — والشمس طالعة لها أنوار

فالدين عنده «نصوص».. بل و«ظواهر هذه النصوص».. فقط !.. وهذه «النصوص» ـ وحدها ـ هى «العلم» أيضا.. ووفق الصياغة الشعرية لواحد من أعلام هذا التيار.. فإن :

العلم : قال الله قال رسوله — قال الصحابة ليس خُلْفٌ فيه
ماالعلم نصبك للخلاف سفاهة — بين النصوص وبين رأى سفيه
كلا ولا نصب الخلاف جهالة — بين الرسول وبين رأى فقيه
كلا ولا رد النصوص تعمدا — حذرا من التجسيم والتشبيه
حاشا النصوص من الذى رميت به — من فرقة التعطيل والتمويه[٢٠] !.

فالنصوص وحدها هى العلم ، ولا عبرة بالرأى ، ولا مدخل له فيها حتى لو

(٢٠) المصدر السابق. جـ١ ص٧٩.

أدت ظواهرها إلى «التجسيم والتشبيه» فى حق الذات الإلهية؟!..

وتبعا لهذا «المنهج النصوصى» . رفض الإمام أحمد «الرأى» و «القياس» ـ إلا عند انعدام النصوص ، ولو الضعيفة ، وبشروط تجعله معدوما ـ ورفض «التأويل» و «الذوق» و «العقل» و «السببية» .. وكل ماعدا ظواهر النصوص من أدوات الاستدلال[٢١] ..

ولقد كان هذا المنهج النصوصى يستقطب قطاعا من «العامة» . بحكم القصور الفكرى الذى يقف بهم عند المحسوس ، وظواهر النصوص .. فلما اقترف نفر من المعتزلة ـ وليس تيار المعتزلة كما يظن كثيرون ـ خطيئة استخدام سلطة الدولة فى الضغط على الإمام أحمد كى يقول بقولهم فى «خلق القرآن» ، وأبى الرجل ذلك ، وتحمل فى بسالة المجاهدين ما نزل به من الاضطهاد فى عهود الخلفاء الثلاثة الذين كانوا على مذهب الاعتزال : المأمون .. والمعتصم .. والواثق اكتسب الرجل تجلة وإعظاما لدى قطاعات عريضة من جمهور العامة وكثير من المفكرين والعلماء ... فأضفت محنته على مذهبه الفكرى ما لم يكن يجتذبه ولا يكتسبه بغير هذه المحنة وهذا الاضطهاد؟!..

فلما حدث الانقلاب التركى المملوكى .. وتعسكرت الدولة .. وكان هؤلاء الترك المماليك عسكرا جفاة ضيق الأفق . لا دربة لهم ولا قدرة على استيعاب

---

(٢١) انظر لابن القيم : [الطرق الحكمية] ص ٤٠٠ . و[أعلام الموقعين] جـ١ ص٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٢٦٩ ، ٥٣ ، ٣٣٣ـ٣٣٧ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٣٥٠ ، جـ٤ ص ٢٥٠ ، جـ٢ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ . وانظر لابن تيمية : رسالة [العبودية] ص ٥٦٨ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ . ورسالة [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان] ص ٧٣٦ ، ٧٣٧ . ورسالة [الواسطة بين الحق والخلق] ص ١٤٨ ، ١٤٩ . طبعة دار الفكر ـ بيروت ـ ضمن [مجموعة التوحيد].

العقلانية الإسلامية .. إذ كانت مداركهم وأحلامهم أدنى من مستوى العامة فى هذا الميدان .. ثم هم كانوا بحاجة إلى تأييد العامة فيما اعتزموا من تغييرات وما دخلوا فيه من صراعات مع التيار العقلانى ، الذى كانت له السيادة والهيمنة حتى ما قبل عهد المتوكل العباسى ... لكل ذلك ، وجدنا هؤلاء الترك المماليك ينتزعون أئمة التيار العقلانى من مواقع القيادة والتأثير ، الفكرية والسياسية ، بل ويزجون بالكثيرين منهم فى السجون ، أو ينفونهم من الأرض .. ويأتون بمضطهدى الأمس ، أقطاب التيار النصوصى ، يملئون بهم هذه المراكز للتوجيه والتأثير والتنفيذ .... لقد كان انقلابا فكريا كاملا .. غدت فيه مقولات التيار العقلانى فكرا مُحَرَّماً ومُجَرَّماً يلاحقه الاضطهاد .. وغدى فيه أئمة هذه العقلانية موضع التنديد وأسرى للملاحقة والسجن والاضطهاد ...

وهاهوَ شاعر هذا الانقلاب ـ على بن الجهم [٢٤٩ هـ ٨٦٣ م] ـ المقرب من الخليفة المتوكل يسب المعتزلة ، ويضعهم والشيعة مع النصارى فى سلة واحدة .. ويتحدث عن انتصار حزب المتوكل على «الواثقية» ـ نسبة إلى الخليفة المعتزلى «الواثق» .. الذى حدث الانقلاب على فكرية عهده وتوجهاته .. ها هو على بن الجهم يصور لنا هذا الذى حدث فيقول :

تضافرت الروافض والنصارى وأهل الاعتزال على هجائى
وعابونى وماذنبى إليهم سوى علمى بأولاد الزناء ؟!
أنا المتوكلى هوى ورأيا وما «بالواثقية» من خفاء ..

ثم يوجه سبابه إلى رجل الدولة المعتزلى أحمد بن أبى دؤاد [١٦٠ ـ ٢٤٠ هـ ٧٧٧ ـ ٨٥٤ م] ـ وكان يومئذ معزولا ، مضطهدا ، ومريضا .. فيشير إلى الطابع الفكرى لهذا الانقلاب الذى اقتلع التيار العقلانى

من مواقعه ليزرع فيها النصوصيين .. يقول على بن الجهم ، موجها الحديث إلى ابن أبي دؤاد :

لم يبق منك سوى خيالك لامعا — فوق الفراش ممهدا بوساد
فرحت بمصرعك البرية كلها — من كان منهم موقنا بمعاد
كم مجلس لله قد عطلته — **كى لا يحدث فيه بالإسناد**
ولكم مصابيح لنا أطفأتها — حتى تزول عن الطريق الهادى
ولكم كريمة معشر أرملتها — **ومحدث أوثقت فى الأقياد**
إن الأسارى فى السجون تفرجوا — لما أتتك مواكب العواد !

فهو انقلاب واضح وحاد ضد التيار العقلانى .. أخرج «المحدثين» ، أصحاب بضاعة «الإسناد» من السجون ، ليحل محلهم فيها القائلون بالعدل والتوحيد .. هذه الفكرية التى عُدّت بدعة ، على حد قول على بن الجهم فى هجاء ابن أبي دؤاد عندما نفاه المتوكل ـ وكان من قبل مشير الخليفة ـ أى أعظم من الوزير ـ يقول على بن الجهم :

يا أحمد بن أبي دؤاد دعوة — بعثت إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التى سميتها — **بالجهل منك العدل والتوحيدا** ؟ ! (٢٢)

ونحن لن نتحدث عن تصاعد الاضطهاد الذى أصاب أئمة التيار العقلانى .. فقط نود أن نشير إلى أن اضطهاد فكرهم قد بلغ فى عهد الخليفة القادر بالله [٣٨١ ـ ٤٢٣ هـ ٩٩١ ـ ١٠٣١ م] إلى الحد الذى اجتمع فيه أئمة التيار النصوصى ، بتشجيع من الخليفة ، فأصدروا مرسوما سمى «الاعتقاد

---

(٢٢) الأصفهانى [الأغانى] جـ ١ ص ٣٦٧٠ـ٣٦٧٢ ، ٣٦٩٣ . طبعة القاهرة . دار الشعب

القادري » ، حرموا فيه فكر التيار العقلانى ، وجرموا فيه فكرية العدل والتوحيد ، وعلى نحو يشبه المراسيم الكنسية الغريبة عن روح الإسلام والنادرة الحدوث فى تاريخ المسلمين.. وفى هذا « الاعتقاد » صدرت أوامر الخليفة :

١ ـ بمنع تدريس علم الكلام والمناظرة فى مسائله ، خاصة الاعتزال ومقالات أهله . وأنذر المخالفين بالعقوبة والنكال ، نفيا وسجنا وقتلا !..

٢ ـ وبلعن المعتزلة على منابر المساجد ، حتى يصير ذلك سنة من سنن الإسلام !..

٣ ـ وبتحريم قول المعتزلة فى « التوحيد » .. وفى « خلق القرآن » ..

٤ ـ كما يحرم قول المعتزلة فى « العدل » .. وبتحدث عن أن الخلق لا قدرة لهم ، بل « كلهم عاجزون » !

٥ ـ ويحرم قول المعتزلة فى « المنزلة بين المنزلتين » .. ويقرر مذهب « المرجئة » فى هذا الموضوع ..

ولقد صدر هذا « المرسوم الفكرى » باعتباره « اعتقاد المسلمين ، ومن خالفه فقد فسق وكفر »[٢٣] ؟!..

نعم .. حدث هذا ، رغم امتياز الإسلام وحضارته بالتأكيد على أن الاجتهاد فرض كفاية أى فريضة اجتماعية ، أكثر أهمية وآكد فى التكليف من فروض العين ، يقع إثم التخلف عنها على الأمة جمعاء .. ورغم اتفاق أئمة الاجتهاد فى الأمة على مشروعية التعددية الفكرية ، عندما قرروا أن اجتهاد المجتهد غير ملزم للمجتهدين الآخرين !..

---

(٢٣) آدم متز [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] جـ١ ص ٣٨١ـ٣٨٣ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م

وعلى الذين تحيرهم معرفة الأسباب والبدايات والملابسات التى أصابت إبداعنا الحضارى فى الصميم بما عرف بـ «إغلاق باب الاجتهاد» .. عليهم أن يمسكو بخيوط هذا التحول، الذى أحدثه هذا الانقلاب. ففيه تكمن البداية. ومنه بدأ التراجع والجمود والتخلف والانكسار !..

* * *

وفيما يتعلق بالانحراف عن شريعة الأمة :

فلقد تزامن الضمور الذى أصاب طاقات الإبداع وملكات الاجتهاد، عندما سادت فكرية التيار النصوصى، الذى ثنى بمحاربة «الأشعرية» بعد أن أصاب الاعتزال فى مقاتله .. تزامن ذلك مع انحراف دولة العسكر المماليك ـ وللمرة الأولى فى مسيرتنا التاريخية والحضارية ـ عن شريعة الأمة، وفقه معاملاتها، وقانونها الطبيعى .. فبعد أن كانت الشريعة حاكمة ومهيمنة ولها المشروعية فى كل الميادين، ابتدع المماليك الازدواجية القانونية والقضائية .. فأبقوا حكم الشريعة فى الأحوال الشخصية ـ شئون الأسرة ـ وقضاء العامة .. أما «الدولة» أى «الدواوين السلطانية»، و«العسكر»، أى الطبقة الحاكمة، فإنهم قد استعاروا واستوردوا لقضائها وتنظيم شئونها والفصل فى منازعاتها القانون الذى كان سائدا فى المواطن الأصلية التى جلبوا منها، والذى وضعه الخان الوثنى جنكزخان [٥٦٢ ـ ٦٢٤ هـ ١١٦٧ ـ ١٢٢٧ م] فاقتحم القانون الأجنبى، الغريب عن طبيعة الأمة، على الشريعة حصنها وحماها، تعبيرا عن غربة هذه السلطة عن حضارة الأمة، وشاهدا على التحولات التى مثلت التراجع والتخلف لازدهارها الحضارى ..

ومؤرخ العصر المقريزى [٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١ م] يضع يدنا

على ملابسات هذا التحول . فيقول : « إن جنكزخان قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسة » ... جعله شريعة لقومه . فالتزموه كالتزام أول المسلمين حكم القرآن » فلما حكم الترك المماليك البلاد « جمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الردىء ، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية ، من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية .... واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان ، والاقتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم .. على مقتضى الياسة ، وجعلوا إليه ، مع ذلك ، النظر فى قضايا الدواوين السلطانية .. »(٢٤) !...

صحيح أن هؤلاء الترك المماليك قد أسلموا .. وبعبارة المقريزى : فهم « قد ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية » .. لكنهم قد وقفوا بالتدين عند « شكل » الإسلام ، لأنهم قد أصابوه فى اللب عندما طعنوه فى عقلانيته ، فضمرت طاقة الاجتهاد فى أمته .. ثم ثنوا بانتزاع جهاز الحكم وطبقات الحكام من ولاية الشريعة الإسلامية وسلطانها ، فاستنوا ـ جزئيا ـ السنة السيئة التى مارسها الاستعمار الغربى الحديث فى ميدان التشريع والقضاء ؟!..

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الهوة تتسع بين « القانون الإسلامى » ـ فقه المعاملات ـ وبين واقع المسلمين .. فضمور طاقات الاجتهاد قد تطور منحدرا إلى ما عرف بـ « إغلاق باب الاجتهاد » .. وعزل القانون الإسلامى عن الهيمنة

(٢٤) [الخطط] جـ٣ ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ . طبعة القاهرة . دار التحرير.

على جهاز الدولة وحكامها وجيشها قد أعجزه عن مجاراة الواقع ـ المتطور دائما ـ فجمدت الأحكام ، وتطور الواقع بعيدا عن سلطان هذه الأحكام .. وقنع فقهاء السلاطين بالتبرير لما حدث ويحدث .. وقنع فقهاء العامة بالتفصيل فى فقه العبادات .. وذلك هو السر وراء الغنى الزائد عن الحد فى «فقه العبادات» ، والفقر المخل فى «فقه المعاملات» .. فالأول قد استمر حيا متطورا ، لدواعى الممارسة والاستعمال .. أما الثانى فلقد جمد وتحجر ، عندما عزل عن ميدان الواقع ، فذبلت مباحثه ، وأصابه جفاف شديد .. وغدونا ، عندما تلمسنا طريقنا إلى اليقظة والنهضة ، ندرك أكثر فأكثر فداحة الخطب والجرم الذى صنعه بشريعتنا ـ وهى القانون الطبيعى للأمة ـ هؤلاء الترك المماليك !

* * *

وفيما يتعلق بالظلم الاقتصادى والاجتماعى للرعية :

لقد أحرز المماليك أعظم الانتصارات على الجبهة العسكرية ، وكانوا فرسان الشرق المهرة فى ميادين القتال لعدة قرون .. ولولاهم لتغير وجه العالم والتاريخ .. فهم فى عين جالوت [سنة ٦٥٨ هـ سنة ١٢٦٠ م] الذين أنقذوا الشرق وحضارته من المصير الدامى والمرعب الذى لقيته بغداد على يد جحافل الهمج التتار [سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨ م] وبسالتهم فى التصدى للغزوة الصليبية هى التى أنقذت بلادنا من مصير المستعمرات الاستيطانية اللاتينية الذى خططت له الكنيسة الكاثوليكية الأوربية ، ومولت تنفيذه المدن التجارية الأوربية ، وانخرطت فى الجيوش لتحقيقه الجماهير الأوربية الغوغائية المتعصبة

تحت قيادة فرسان الإقطاع الصليبيين ..

تلك صفحة ناصعة ـ على الجبهة الحربية ـ فى تاريخنا الإسلامى ـ لفرسان المماليك ..

وبقدر ماكان هذا العمل عظيما ، كان الثمن الذى دفعته الأمة فى سبيله غاليا ، بل وفادحا ؟! ..

لقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلدا من بلاد الإسلام ، حولوا أرضه إلى « إقطاع » لجنودهم وقادة هؤلاء الجنود .. كان ذلك « شريعة » من شرائع الفتح والاستعمار الاستيطانى الذى أقاموه فى بلادنا .. أما دول العسكر ـ من الغز والمماليك ـ فإنهم صنعوا شيئا قريبا من صنيع الصليبيين ـ فى هذا الميدان ـ فالبلاد التى دافعوا عنها وحموا حماها من الغزو الصليبى ، أو حرروها من احتلاله ، قد أقطعوا أرضها لجنودهم وقادة هؤلاء الأجناد !! .. صحيح أنهم لم يجلوا الفلاحين عن أرضهم ، ولم يقتلوهم ـ كما كان يصنع الصليبيون ـ وإنما أنقذوا حياتهم .. ولكنهم حولوا هؤلاء الفلاحين إلى « أقنان » فى نظام « الإقطاع الحربى » الذى طرأ على نظم استغلال الأرض الزراعية منذ ذلك التاريخ ..

يحدثنا المؤرخ أبو شامة [٥٩٩ ـ ٦٦٥ هـ ١٢٠٢ ـ ١٢٦٧ م] فى أخبار [سنة ٥٦٤ هـ سنة ١١٦٨ م] عن خطط وتخطيط الصليبيين لتوزيع أرض مصر إقطاعا على جنودهم إذا هم انتصروا عليها فى الحملة التى تحركوا فيها لهذا الغرض فى ذلك العام .. ويقول : إن ملكهم أحضر « وزيره ، وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيالته ـ [فرسانه] ـ وفرق قراها على أجناده .. وكان ، لعنه الله ، لما دخل ديار

مصر ، قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قراها ، وتعرف له خبر ارتفاعها ـ[دخلها]ـ . »[٢٥] !

لكن الصليبيين قد هزموا أمام جيش الغزّ والترك الذى قاده أسد الدين شيركوه [٥٦٤ هـ ١١٦٩] الذى أقطع بلاد مصر لجنوده كما يقول المؤرخ أبو شامة أيضا ؟! ..[٢٦]

وصارت سنة من سنن دول العسكر ـ الغزّ والمماليك ـ تغير بها نظام استغلال الأرض الزراعية ، وتحول بها الفلاح إلى «قن» ـ ليس عبدا حتى يباع ويسترق ـ وليس حرا ـ وإنما هو مربوط بالأرض ، التى أُقطعت للجند كبعض من أدوات زراعتها ! ـ.. وعن هذه السنة السيئة ، التى مثلت المصدر الأول للبؤس الاجتماعى والظلم الاقتصادى ، ونكبت الشعب بالأوبئة والمجاعات : يحدثنا المقريزى ـ مؤرخ العصر ـ فيقول : « ... **واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية ، ولا فيما مضى قبلها من دول ، لعساكر البلاد إقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء ـ[نظام الالتزام]ـ ولم يعرف ما يسمى اليوم بالفلاحة ، والذى يسمى فيه المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا ـ[أى مربوطا بالأرض مقيدا إليها]ـ فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يُباع ولا يُعتق ، بل هو قن ما بقى ، ومن ولد له كذلك ؟!.. حدث ذلك عندما تغير الرسم ، وفُرقت الأرض إقطاعات على الجند** .. »[٢٧] .

---

(٢٥) [كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية] جـ١ ص ٤٣٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

(٢٦) المصدر السابق . جـ١ ص٤٠٢ .

(٢٧) [الخطط] جـ١ ص ١٥٧ ، ١٥٣ .

لقد أنقذ المماليك الأرض ، وحولوها إلى إقطاع حربى لأجنادهم وأمرائهم ... واستمر هذا الإقطاع الحربى سنة متبعة فى استغلال الأرض الزراعية ـ وهى الثروة الأولى فى ذلك العصر ـ حتى رأينا « الروك الناصرى » ـ [أى مسح الأرض ـ فك الزمام] ـ الذى تم فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون [٦٨٤ ـ ٧٤١ هـ ١٢٨٥ ـ ١٣٤١ م] فى [سنة ٧١٦ هـ سنة ١٣١٦ م] يقسم الأرض إلى أربعة وعشرين قيراطا .. للسلطان ـ وهو مملوك ـ أربعة .. وللأجناد ـ وهم مماليك ـ عشرة .. وللدولة ـ وهى مملوكية ـ عشرة .. ولا شىء للفلاح [٢٨] ؟!..

وكما أنقذوا الأرض من التتار والصليبيين ، فلقد أنقذوا ما على هذه الأرض من فكر وحضارة ظلت تقاوم وتبث أشعة التقدم والاستنارة بكل الاتجاهات ... لكن الثمن كان غاليا ، والمهر كان فادحا ؟! .. فلقد أصيبت قسمة « العدل » ، التى ميزت إسلامنا وحضارتنا ، بهذا الإقطاع الحربى فى الصميم ! ..

* * *

وفيما يتعلق بالعروبة الحضارية :

كانت « عجمة الدولة والسلطة الحاكمة » فى دول العسكر المماليك ، وكذلك فى الدولة العثمانية ثغرة وحاجزا صنع المغايرة بين الحكام وجمهور الأمة فى اللغة ، التى هى فى حال لغتنا العربية أكثر من سبيل للتخاطب بين الناس ..

---

(٢٨) القلقشندى [صبح الأعشى] جـ٣ ص٤٣٢ . طبعة دار الكتب المصرية . ود. محمد عمارة [فجر اليقظة القومية] ص ١٦٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

فهى لغة القرآن والشريعة والسنة ، وقسمة من القسمات الثوابت فى حضارتنا العربية الإسلامية ..

ولقد أصابت العربيةَ من تأثيرات التراجع الحضارى فى ظل دول العسكر المماليك أمراضٌ كثيرة .. فهى أداة الإبداع ، تنمو بنموه ، ويصيبها الذبول عندما يلحقه الضمور .. فبعد الرقة والدقة والجزالة والإحاطة التى جعلت من العربية لغة الحضارة ، فى مختلف ميادينها وعلومها وفنونها ، النظرية والعملية .. أصابتها «الركاكة» ، وغرقت فى «الشكل» السطحى ـ سجعا ولعبا بالألفاظ ومحسنات لفظية ـ لأن هذا الشكل السطحى كان الوعاء المناسب للمضمون المتدنى لكثير من اهتمامات أدبائها فى ذلك الحين .. صحيح أن المماليك لم يحاربوا العربية ، ولم يتخذوا لهم لغة سواها .. لكن العجمة الغالبة عليهم ، والتردى الذى أصاب الحياة الفكرية والإبداع العقلى أصاب الوعاء والأداة ـ العربية ـ كما أصاب المضامين والأغراض .. وفى أشعار ذلك العصر شواهد كثيرة على هذا الذى نقول ..

ولقد كانت محنة العربية فى ظل الدولة العثمانية أشد منها فى ظل دولة المماليك .. فلقد أضافوا إلى أمراض الركاكة التى أصابتها حربا أعلنوها عليها ، عندما احتفظوا بمغايرتهم اللغوية للأمة العربية ، فاحتفظوا بلغتهم التركية ، رغم فقرها الشديد ، ورغم أنها مجرد خليط مستعار أغلبه من العربية والفارسية .. فأصبحت التركية ـ لا العربية ـ لغة الدولة ودواوينها ، تجتذب الخاصة والعامة من راغبى الالتحاق بوظائف الدولة والاقتراب من السلطة ، وأصحاب الحاجات لدى دواوين الدولة وسلطاتها .. ولذلك ، فهى لم تنافس العربية فقط ، حتى فى الولايات العربية التى حكمها العثمانيون ، وإنما تعدى الأمر وتصاعد ـ فى ظل

ما عرف بمحاولة الأتراك « تتريك العرب » ! – تعدى الأمر وتصاعد إلى حد إزاحة التركية للعربية من مدارس المشرق العربى ، حتى غدا تعلم أبناء العرب للغتهم العربية فى المدارس مطلبا تناضل فى سبيله الأحزاب والجمعيات ، وقضية تناقش فى المؤتمرات (٢٩) ؟!

صحيح أن من العثمانيين علماء تعربوا وبرعوا فى العربية .. وسلاطين – كمحمد الفاتح [٨٣٣ – ٨٨٦ هـ ١٤٣٠ – ١٤٨١ م] – كان من رأيهم أن يتعرب الأتراك العثمانيون حتى يندمجوا فى « الأمة الأم » – الأمة العربية – فيتسلحوا بأدواتها الحضارية ، ويشرفوا بشرفها التابع من دورها الخاص فى حياة الإسلام .. لكن هذا التيار لم يكن الغالب ولا المؤثر ، وهذا الرأى لم يقدر له الانتصار .. فظل الأتراك العثمانيون على عجمتهم ومغايرتهم العرب لغويا .. وقادتهم التطورات إلى أن شنوا الحرب على العربية ، وتوهموا – بسفاهتهم – إمكانية تتريك العرب وتحويلهم عن لغة القرآن ؟! ..

لقد كانت مأساة تجسدت فى موقف الأتراك العثمانيين من العربية .. وعن هذه المأساة تحدث فأجاد جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ – ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ – ١٨٩٧ م] عندما قال : « **لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة ... إنها لو تعربت لانتفت بين الأمتين – [العربية والتركية] – النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية ، بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين**

---

(٢٩) انظر [وثائق المؤتمر العربى الأول] – الذى عقد بباريس سنة ١٩١٣ م – ص ١١٥ ، ١١٦ . تقديم ودراسة د. وجيه كوثرانى . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .

الإسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات ... كيف يعقل تتريك العرب ؟!.. وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ؟!.. وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل.. من أعز الجامعات وأكبر المفاخر.. فالأمة العربية هى «عرب» قبل كل دين ومذهب[٣٠] ..»

لكن .. إذا كانت العربية قد أصابها ما أصابها من ركاكة وتوقف عن التطور وملاحقة الجديد فى الفكر ومصطلحات العلوم .. مثلها فى ذلك مثل الأعضاء التى تكف عن الحركة الحيوية فيصيبها الضعف والضمور .. فإن هذا الذى أصابها قد ظل فى نطاق الأعضاء ، وبعيدا عن القلب النابض بمصدر الحياة !.. ذلك أن ارتباط العربية بالقرآن الكريم ، وارتباط العروبة بالإسلام ، قد جعل من هذه القسمة هوية ثابتة وخصيصة لهذه الأمة تستعصى على الزوال ... فحيثما كان القرآن يتلى كانت العربية تحيا .. وعلى امتداد وطن الأمة صمدت المؤسسات العريقة والمنارات الصامدة ـ من الأزهر.. إلى الزيتونة .. إلى القرويين.. إلى الجامع الأموى .. الخ .. الخ .. ـ احتضنت الشعلة ، وحافظت عليها ، فلم تستطع إطفاءها الرياح التى هبت فى ظل عسكرة الدولة وتأثيراتها السلبية على قسمات الحضارة العربية الإسلامية ..

* * *

(٣٠) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

وفيما يتعلق بعلاقة الفقهاء بالسلاطين :

فى بداية الطور العربى الإسلامى لحضارة هذه الأمة ، وعندما كانت الحياة الفكرية بسيطة بساطة مجتمع شبه الجزيرة العربية ، كان مثقفو الأمة هم « القراء » ـ قراء القرآن الكريم وحفظته ـ .. ومع نشأة العلوم والفنون ، وتعقد الحياة الفكرية بتعقد المشكلات وتشابك القضايا المستجدة وثراء المواريث الفكرية فى البلاد التى فتحها العرب المسلمون ، عرفت الحياة الفكرية : « الفقهاء » ، و« المتكلمين » و« المحدثين ، و« المفسرين » ، و« المؤرخين » ، و« علماء الطبيعة » وظواهرها ، و« الفلاسفة » ، مع مبدعى الفنون ، شعرا ، ونثرا ، وموسيقى .. الخ .. الخ .. وكانت الموسوعية هى طابع العصر ، فكان العَلَم الواحد يجمع العديد من هذه العلوم والفنون .. وكانت علوم الشريعة فى المقدمة ، لشرفها النابع من جمعها بين شئون الدين والدنيا .. ولذلك كان « الفقهاء » هم أبرز « مثقفى » الأمة فى ذلك التاريخ ..

وقبل عسكرة الدولة والمجتمع كانت استقلالية الفقهاء عن التبعية للدولة أمرا بارزا وملحوظا وقصة العلاقة بين الإمام مالك [٩٣ ـ ١٧٩ هـ ٧١٢ ـ ٧٩٥ م] والإمام أبو حنيفة [٨٠ ـ ١٥٠ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م] والإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١ هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م] وبين الدولة العباسية نموذج ومثل لهذه السمة التى ميزت مواقف الأغلبية الساحقة من فقهاء الأمة بالشموخ المتواضع ، والاستقلالية الأبية النبيلة عن التبعية للخلفاء والولاة .. ناهيك عن نماذج الحسن البصرى [٢١ ـ ١١٠ هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م] وواصل بن عطاء [٨٠ ـ ١٣١ هـ ٧٠٠ ـ ٧٤٨م] وعمرو بن عبيد [٨٠ ـ ١٤٤ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦١م] وجعفر الصادق [٨٠ ـ ١٤٨ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٥م] وزيد بن على

[٧٩ ـ ١٢٢هـ ٦٩٨ ـ ٧٤٠م] من الفقهاء والرواة والمتكلمين الزاهدين المجاهدين الثوار..

تلك سمة غلبت على الحياة الفكرية للأمة ـ سمة استقلالية الفكر والمفكر ـ وهى قد لعبت دورها العظيم فى تنمية ملكات الخلق والإبداع، ونمت، هى أيضا، عندما ارتوت من نبع هذا الخلق والإبداع.. فالحرية تثرى الفكر، والفكر الحر يزيد عود الحرية قوة وعزما!.

لكن عسكرة الدولة والمجتمع، وقد أصابت الإبداع الفكرى فى الصميم، نراها قد قللت من شأن العلم والفكر، ومن ثم من شأن المفكرين والعلماء.. فلم تعد الإمامة لمن بلغ فى العلم مرتبة الاجتهاد، وإنما غدت السلطنة لمن غلب؟!.. وعندما مالت الكفة لحساب «القوة» على حساب «العقل»، تبدلت مؤهلات «الصفوة»، فغدت الفروسية والمكر والدهاء وقهر الخصوم هى سبل الوصول إلى السلطة والدولة، وهى الموازين التى تزن بها الدولة من تقربهم من الرجال..

وحدث أن اهتم العسكر الترك ـ كعادتهم ـ بشكل التدين أكثر من اهتمامهم بجوهره، فهم لا يستطيعون غيره.. وهو أكثر جلبا لرضا العامة؟!.. فى الوقت الذى عزلوا فيه الشريعة عن أن تكون قانون «الدولة» وحكامها، نراهم يستبدلون الفخامة المترفة بالبساطة فى إقامة المساجد وما ألحق بها من المدارس.. فتحول المسجد إلى مؤسسة ضخمة لا قبل للفقراء بإقامتها مستقلين، فأقامتها الدولة، بواسطة السلاطين والأمراء، وأوقفت عليها الأوقاف الدارّة، بعد أن انتزعت أرضها من ملاكها وفلاحيها.. وغدا الفقهاء الذين يعلمون تلاميذهم، فى هذه المؤسسات التى أقامتها وتنفق عليها الدولة، غدوا «موظفين» لدى دولة العسكر المماليك.. فغلبت سمة التبعية للدولة على كثير من الفقهاء، للمرة الأولى فى

تاريخ أمتنا الحضارى .. وكان ذلك تحولا سلبيا أصاب حياتنا الفكرية والسياسية فى الصميم !..

ففريق من الفقهاء ربطتهم التبعية الاقتصادية بالدولة ، فغضوا الطرف عن تجاوزاتها ، ووقفوا إزاء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند أضعف الإيمان ؟!..

وفريق قادته هذه التبعية الاقتصادية إلى «التبرير» .. تبرير التجاوزات التى تقترفها الدولة ضد الرعية ... ورحم الله من قال : «من يأكل عيش الكافر يحارب بسيفه» ؟! .. فما بالك إذا كان صاحب «العيش» «سلطانا» ممن «يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» ؟!..

بل لقد ألجأت المخاطر الخارجية المحدقة بالوطن والأمة والحضارة .. ألجأت بعضا من الفقهاء المجتهدين المجاهدين إلى أن يغضوا الطرف عن تجاوزات الدولة وانحرافات الأمراء والسلاطين ، إيمانا منهم بأن الخطر الخارجى هو الأعظم ، وأن مجاهدة الدولة ـ مع ظلمها ـ لن يفيد ـ فى ذلك الظرف العصيب ـ سوى العدو الخارجى الذى يهدد الأمة والحضارة بالفناء .. فرأينا مجتهدا مجاهدا مثل ابن تيمية [٦٦١ـ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م] ، لبصيرته السياسية والحضارية العبقرية يقف مع الدولة المملوكية ، ينصرها ويناصرها ، ويجمع لنصرتها الأعوان والإمكانات ، بل ويطوع الأحاديث النبوية ـ بالتفسير المتعسف ـ كى تشهد بأن المماليك هم الفئة المنصورة التى تنبأ بها الرسول ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ ... كل ذلك إيمانا من ابن تيمية أن بقاء الإسلام وحضارته رهن بقوة هذه الدولة وانتصارها على التتار .. فلقد كانت الأمة فى «حالة حرب ضروس» .. ولن يفل حديد التتار الهمج المتوحشين إلا حديد فرسان المماليك .. والضرورات

تبيح المحظورات ، بل قد توجبها ! .. وعلماء الأمة ، من أهل السنة والجماعة ، قد أجازوا إمامة المفضول دينيا إذا كان أفضل سياسيا وأقدر على مواجهة التحديات المحدقة بالأمة .. و«إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر» ـ كما جاء فى المأثورات ؟! .. ثم إنه ـ ابن تيمية ـ على مذهب شيخه الإمام أحمد بن حنبل ، الداعى إلى طاعة الدولة ، والبيعة لمن غلب ، والناهى عن الخروج والثورة وتجريد السيف ضد الحكام ، حتى ولو جاروا وظلموا .. فعنده أن «السيف باطل ، ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية ، وأن الإمام قد يكون عادلا ، ويكون غير عادل ، وليس لنا إزالته وإن كان فاسقا ..»[(٣١)] !

فسيرا على هذا النهج ، نهى ابن تيمية عن مناهضة الدولة المملوكية ـ مع تسليمه بظلمها ـ ، وقال : إن «المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف ، وإن كان فيهم ظلم .. لأن الفساد فى القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة ، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ..»[(٣٢)] !

وهو ـ كما نرى ـ موقف من مواقف «السياسة» الإسلامية ، أشبه ما يكون بما نسميه فى اصطلاحاتنا المعاصرة : «تقديم التناقضات الرئيسية على التناقضات الثانوية» .. فتناقض الأمة ودولتها الظالمة مع الخطر الخارجى كان الرئيسى والحاكم ، لأنه هو «التناقض العدائى» على نحو جذرى ، أما تناقض الأمة مع دولتها الظالمة ، فلقد كان ـ فى ظل التناقض مع التتار ، وبالقياس

---

(٣١) الأشعرى [مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين] جـ٢ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م .

(٣٢) [منهاج السنة] جـ ٢ ص ٨٧ طبعة القاهرة ـ الأولى ـ

عليه ـ تناقضا ثانويا ، من الواجب تأجيله .. أو استخدام الأساليب غير العنيفة فى مواجهة مظالمه وانحرافاته ، دون السيف ـ أى الثورة والقتال ـ .. ولهذا وجدنا ابن تيمية يقف ، مع فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند درجة الإنكار باللسان .. فانتقد الواقع وانحرافاته ، وتصح للحكام .. حتى لقد مات الرجل فى سجن المماليك ؟!.. لكنه لم يدع إلى الثورة والتغيير للمنكر بالعنف والثورة والقتال ، لا لجبن منه أو تقصير ، فلقد كان مجاهدا ، حمل السلاح وقاتل ، ولكن ضد العدو الرئيسى والخطر الأكبر : جحافل التتار !..

فى ضوء هذه الرؤية السياسية والحضارية يجب أن يفهم موقف ابن تيمية من دولة العسكر المماليك ، ويجب أن تقرأ كلماته التى تحلل الموقف السياسى والعسكرى والحضارى تحليلا عبقريا ، عندما يقول :

« ... إن سكان اليمن ، فى هذا الوقت ، ضعاف عاجزون عن الجهاد ، أو مضيعون له ، وهم مطيعون لمن ملك هذه البلاد ، حتى ذكروا أنهم أرسلوا بالسمع والطاعة لهؤلاء [التتار] !... وأما سكان الحجاز ، فأكثرهم ، أو كثير منهم خارجون عن الشريعة ، وفيهم من البدع والضلال والفجور ما لايعلمه إلا الله ، وأهل الإيمان والدين فيهم مستضعفون عاجزون . وإنما تكون القوه والعزة ، فى هذا الوقت ، لغير أهل الإسلام بهذه البلاد ؟... وأما بلاد أفريقية ـ[تونس]ـ فأعرابها غالبون عليها ، وهم من شر الخلق ، وهم مستحقون للجهاد والغزو !... وأما المغرب الأقصى ، فمع استيلاء الإفرنج على أكثر بلادهم ، لا يقومون بجهاد النصارى الذين هناك ، بل فى عسكرهم من النصارى الذين يحملون الصلبان خلق عظيم ! . ولو استولى التتار على هذه البلاد لكان أهل المغرب معهم من أذل الناس ، لاسيما والنصارى تدخل مع التتار ،

فيصيرون حزبا على أهل المغرب !....... **فهذا وغيره مما يبين أن هذه العصابة -[عسكر المماليك]- ، التى بالشام ومصر ، فى هذا الوقت ، هم كتيبة الإسلام ، وعزهم عز الإسلام . فلو استولى عليهم التتار لم يبق للإسلام عز ولا كلمة عالية ولا طائفة ظاهرة عالية يخافها أهل الأرض تقاتل عنه ... فهم -[المماليك]- من أحق الناس دخولا فى الطائفة المنصورة التى ذكرها النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله فى الأحاديث المستفيضة عنه : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»[٣٣] ... وثبت عنه فى الصحيح ، أنه قال : «لا يزال أهل الغرب ظاهرين»[٣٤] .. والنبى تكلم بهذا الكلام وهو بالمدينة النبوية . فما يغرب عنها فهو غرب ، كالشام ومصر....»[٣٥] ؟!**

لكن هذا الموقف العبقرى ، والمفهوم ، الذى اتخذه ابن تيمية - ومن رأى رأيه - من دولة العسكر المماليك ، والذى ناصر الدولة فى جهادها للخطر الأعظم .. وانتقدها ، بالوسائل السلمية ، على مظالمها وتجاوزاتها .. هذا الموقف المفهوم ، قد استفاد منه «تيار التبرير» و «المسايرة» و«إيثار السلامة» ، عندما وقفوا عند رفضه للثورة على الدولة الظالمة ونهيه عن قتال الحكام الجائرين ، دون إبراز للملابسات التى أملت هذا الموقف .. تلك التى أوضحها ابن تيمية عندما قال لنا : لقد كان هناك تحالف «تترى - صليبى» ضد عالم الإسلام .. وكان هناك عجز عن مواجهة هذا التحدى المدمر فى أغلب بلاد

---

(٣٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة والدارمى والإمام أحمد

(٣٤) رواه مسلم

(٣٥) [الفتاوى الكبرى] جـ٤ ص ٣٤٦-٣٥٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م

الإسلام .. اليمن .. والحجاز .. وإفريقية .. والمغرب الأقصى .. ولم يكن هناك سوى فرسان المماليك ودولتهم من يعلق الإسلام والمسلمون عليهم الآمال فى مواجهة هذا التحدى «التترى ـ الصليبى» .. فلذلك وجبت نصرة المماليك، فى ضوء هذه الظروف والملابسات ..

لقد أغفل «أهل التبرير» الملابسات التى حكمت رأى ابن تيمية فى الدولة المملوكية .. فاستمر «التبرير» بإطلاق .. بل وغدا السمة الغالبة والنغمة السائدة حتى بعد انحسار الخطر التترى وانهيار آخر الحصون والقلاع الصليبية [سنة ٦٩٠ هـ سنة ١٢٩١ م] .. عندما لم يبق من دولة العسكر المماليك سوى السلبيات التى أصابت بها حضارتنا العربية الإسلامية .. وعندما زالت الدواعى القاهرة التى تبرر للأمة إسلام الزمام والقياد والمقدرات لسلطة جائرة متغلبة على البلاد والعباد.

* * *

تلك هى أبرز سمات ومظاهر التراجع الحضارى الذى أصاب حضارتنا العربية الإسلامية عندما تعسكرت «الدولة»، وامتدت آثار «العسكرة» إلى كثير من ميادين الإبداع الحضارى ..

لقد أصاب الضمور قسمات «العقلانية» .. و«العروبة» .. و«عبقرية التشريع للدولة والمجتمع والعمران» .. و«العدل الاجتماعى» .. ـ وهى من أبرز السمات المكونة لهوية الأمة الحضارية ـ وبضمور الإبداع فى هذه الميادين، ندرت نماذج المبدعين فيها، من المجددين المجتهدين، ذوى الشموخ الذى يرفعهم عن حطة التبعية للسطان ومذلتها .. وعند ذلك، سادت نماذج التبعية والتبرير للسلاطين وتجاوزاتهم .. وشاعت الركاكة .. وانتشرت الخرافة .. وفشا التواكل

وزهد الدراويش .. وأصابت تصورات العامة وعقائدهم الكثير من مظاهر الشرك الخفى ، عندما قدسوا المزارات .. والأموات .. واتخذوا الوسائط كى تقربهم وتشفع لهم وتقضى لهم الحاجات .... وبدلا من «دور الحكمة» وبيوتها .. ومجامع الإبداع والترجمة ... ومدارس الفقهاء ومذاهب المتكلمين .. امتلأت المدن والحواضر بالتكايا والخوانق ، وأصبح «مشايخ الطرق الصوفية» ـ الذين لا علاقة لهم بحقيقة التصوف ، شرعيا كان أو فلسفيا ـ هم أعلام العصر ، وليس الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة وأساطين البحث فى علوم الطبيعة وأسرارها ....

تلك كانت أبرز أسباب تراجعنا الحضارى .. وأهم مظاهر وظواهر هذا التراجع الذى أصاب حضارتنا العربية الإسلامية بالتوقف والجمود ..

* * *

ونحن إذا شئنا ، عند هذا الحد من هذا الحديث ، شهادة على صدق هذا الذى رأيناه فإن لدينا الكثير مما سطره أئمة اليقظة الإسلامية الحديثة فى هذا الموضوع ..

● فالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] يقول عن التأثيرات السلبية لدول العسكر المماليك على عقلانية حضارتنا وعروبتها : «.. **كان الإسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ... حتى سيطر الترك والديلم وغيرهم .. ممن لم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام ، والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم فلبسوا ثوبه على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شىء إلى وجدانهم ، فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم ، أما**

العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم على أن يندرجوا فى سلك العلماء ، وأن يتسربلوا بسرابيلهم ، ليعدوا من قبيلهم ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ، ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم ـ وهم أغرار ـ من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه أو مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه .

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى إقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره . والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة وأركس[٣٦] الناس فى الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى تقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية ، ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة بأن لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات

---

(٣٦) أى أعادهم إلى حالتهم الأولى فى الضلالة قبل أن يهتدوا .

والضعاف[37] ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام.

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم وغلا للأيدى عن العمل. والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول الخرافات إنما هو السذاجة، وضعف البصيرة فى الدين، وموافقة الهوى ـ أمور إذا اجتمعت أهلكت ـ فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم ويباينها على خط مستقيم.

هذه السياسة ـ سياسة الظلمة وأهل الأثرة ـ هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات!

فجل ما تراه الآن مما تسميه العامة إسلاما فهو ليس بإسلام، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها، ووصل الناس ـ بما عرض لدينهم من البدع والخرافات ـ إلى الجمود الذى ذكرته، وعدوه دينا، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله وعلى دينه...... هناك استعجم الإسلام وانقلب عجميا ؟!..»[38]

هكذا صور الإمام محمد عبده الانقلاب الحضارى الذى صنعه الترك المماليك، وهو الانقلاب الذى جعل الإسلام «عجميا» ؟!..

---

(37) أى الأحاديث الموضوعة المكذوبة.. والضعيفة الإسناد.

(38) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ3 ص 317ـ319. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة 1972 م.

● والإمام الشهيد الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م] ـ هو الآخر ـ يدلى بشهادته فى هذه القضية ، **فيقول** :

« إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين !. وقد جاء فى الأثر : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » !.. وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى وانتقل الأمر من أيديهم إلى أيدى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ..... فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه .... ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها ..[39] » !.

تلكم شهادتان .. إن كان الأمر لا يزال بحاجة إلى إثبات بعد هذا الذى قدمناه ؟!..

* * *

لقد حققت دول العسكر المماليك لأمتنا نصرا مؤزرا . ضد التتار .. وضد أطول وأبشع غزوات العصور الوسطى ، الغزوة الصليبية [٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م] .. لكنها ، على الجبهة الحضارية ، أصابتنا بالتراجع والهزيمة والجمود ... ولقد حدث وتزامنت هذه المفارقة مع نهضة الغرب الأوربى ، الذى اكتشف من خلال صراعه المسلح معنا ، تراثه اليونانى ، فأضاف إليه إبداع حضارتنا فى المنهج التجريبى ، وإضافاتها فى العلوم الطبيعية . فبنى عليهما نهضته الحديثة العملاقة .. فكان أن انتصر المهزوم عسكريا فى الميدان

---

(٣٩) [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

الحضارى . وانهزم المنتصر عسكريا فى هذا الميدان ؟!.. وشهد التاريخ كيف تبادلنا المواقع الحضارية ـ من حيث النهضة والتراجع ـ مع الغرب الأوربى .. فلقد كنا سادة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وكانوا يعيشون الجهل المظلم .. وعندما أهدى هارون الرشيد [١٤٩ـ١٩٣ هـ ٧٦٦ـ٨٠٩ م] «ساعة» تضبط الوقت إلى ملكهم شرلمان [٧٤٢ـ٨١٤ م] فأحضر شرلمان قساوسة الإمبراطورية ـ مفكرى الغرب يومئذ ـ لرؤيتها ، أصابهم الرعب من حركتها ، وقالوا : لابد وأن يكون قد تقمصها شيطان ؟!... حدث ذلك على عهد الرشيد وشرلمان... فلما حدث وتبادلنا معهم المواقع ، رأينا شيوخ الأزهر ـ وهم سلالة الذين صنعوا المجد العلمى لحضارتنا ـ يذهبون لزيارة مقر البعثة العلمية التى صبحت الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣ـ١٢١٦ هـ ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م] فإذا رأوا تجربة كيمائية بسيطة فى زجاجة اختبار ، أصابهم ما أصاب قساوسة الغرب عندما رأوا ساعة الرشيد فى بلاط شرلمان ؟!.. وبلسانهم تحدث الجبرتى عن علم الفرنسيين هذا فقال : « **ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ، تنتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا** .. » ؟؟!!..[40]

والأزهر ، الذى كان يدرس طلابه علم الفلك ، ويشتغل علماؤه بصناعته ، عندما كانت الكنيسة الأوربية تحاكم جليليو [١٥٦٤ ـ ١٦٤٢ م].. تبادل مع الغرب المواقع ، فنهضت جامعات الغرب ومعاهده فحققت الانتصارات الفلكية الباهرة... وتخلفنا نحن ، حتى ليحكى الجبرتى [١١٦٧ـ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢ م] ذلك الحوار الذى دار بين الوالى التركى على مصر سنة ١١٦٢ هـ ١٧٤٩ م ـ أحمد باشا ـ وبين شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى

(٤٠) [عجائب الآثار] جـ٣ ص ٣٧.

[١٠٩٢ ـ ١١٧٠ هـ ١٦٨١ ـ ١٧٥٧ م] حول مكان علم الفلك ـ وكان الوالى من المهتمين بمباحثه ـ فى مناهج الأزهر التعليمية.. وهو حوار شاهد على تبادلنا المواقع مع الغرب فى الاهتمام بهذه العلوم التى تؤسس عليها النهضات الحضارية......

الـوالى : المسموع عندنا بالديار الرومية ـ [التركية] ـ أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها، فلما جئتها وجدتها ـ كما قيل ـ: تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ؟!.

شيخ الأزهر : هى ـ يا مولانا ـ كما سمعتم، معدن العلوم والمعارف.

الـوالى : وأين هى ؟! وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا، **وغاية تحصيلكم: الفقه، والمعقول، والوسائل ونبذتم المقاصد ؟!..**

شيخ الأزهر : نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام.. **وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث !..**

الـوالى : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلة، وغير ذلك..

شيخ الأزهر : نعم.. معرفة ذلك من فروض الكفاية، وإذا قام به البعض سقط عن الباقين، **وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرقة الطبيعة، وحسن**

الوضع ، والخط ، والرسم والتشكيل ، والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك ، غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك .."[41] ؟!.

تلك كانت حال الأزهر ـ أعظم منارات العلم فى أمتنا يومئذ ـ وذلك هو حظه من العلوم التى نهض بها الغرب وتسلح ، ثم خرج للاستكشاف والاستعمار والهيمنة والاحتواء ؟..

وبلغت الهزيمة قمة المأساة .. فضاعت الأندلس ، بعد سقوط غرناطة [سنة ٨٩٧ هـ سنة ١٤٩٢ م] ... واكتشف الغرب طريق رأس الرجاء الصالح [سنة ٩٠٣ هـ سنة ١٤٩٧ م] فالتف من حول الأرض العربية ، ليحتل بلاد الإسلام فى شبه القارة الهندية والشرق الأقصى تمهيدا للانقضاض على القلب العربى من مواقع عدة : مصر ـ بحملة بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م] فى [سنة ١٢١٣ هـ سنة ١٧٩٨ م] .... والجزائر فى [سنة ١٩٤٦ هـ سنة ١٨٣٠ م] .... وعدن فى [سنة ١٢٥٤ هـ سنة ١٨٣٨ م] ... ثم الاحتلال الإنجليزى لمصر [سنة ١٢٩٩ هـ سنة ١٨٨٢ م] والفرنسى لتونس [سنة ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م] والإيطالى لليبيا [سنة ١٣٢٩ هـ سنة ١٩١١ م] والفرنسى للمغرب [سنة ١٣٣٠ هـ سنة ١٩١٢ م] .. ثم عمت البلوى عندما تمخضت الحرب العالمية الأولى [١٣٣٢ ـ ١٣٣٧ هـ ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م] عن اكتمال الهيمنة الغربية على كل وطن العروبة وعالم الإسلام ؟! .. فوصل المسلمون وعالمهم إلى قمة المنحدر الذى صنعت بداياته ونسجت خيوطه الهزيمة الحضارية التى صنعتها عسكرة الدولة والمجتمع فى ظل دول العجمة التى بدأت بالترك المماليك .. لقد نجحوا عسكريا ،

---

(٤١) [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] المجلد الأول ص ٢٧٦ وما بعدها . طبعة دار فارس . بيروت .

بقيادة الملك الأشرف [٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ ١٢٩٠ ـ١٢٩٣ م] فى إزالة آخر الحصون الصليبية من عكا [سنة ٦٩٠ هـ سنة ١٢٩١ م] فحققوا بهذا النصر أحلام الناصر صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م] .. ولكنهم بالهزيمة الحضارية التى صنعوها قد أصابوا الأمة بالضعف والهزال ، بل والشلل ، الذى أعجزها عن صد الغزوة الاستعمارية الحديثة ، فكان أن دخل الجنرال الفرنسى جورو [١٨٦٧ ـ ١٩٤٦ م] على رأس الجيش الغازى إلى دمشق [سنة ١٣٣٨ هـ سنة ١٩٢٠ م] ، فذهب إلى قبر صلاح الدين ليقول له : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » ؟! .. فالهزيمة الحضارية التى صنعوها قد أثمرت ، فى النهاية ، ضياع الكثير ، بما فيه النصر العسكرى الذى أحرزوه ! !.

* * *

على أننا نظلم الحقيقة ، كما نظلم أمتنا وتاريخها وحضارتها إذا لم ننبه إلى حقيقتين من حقائق هذا الموضوع :

أولاهما : أن التراجع الحضارى لم يكن كاملا ، والتخلف لم يكن شاملا ، والجمود لم يكن عاما فى كل ميادين الفكر والعلم والإبداع .. فعلاوة على الجهود العملاقة التى نهض بها أعلام أفذاذ فى كتابة التاريخ ، الذى حفظ للأمة ذاكرتها .. وفى تدوين الموسوعات التى جمعت علوم الحضارة وفنونها ، فحفظتها من الضياع ، وخففت كارثة تدمير التتار لمكتبات بغداد ... وغير ما صنعه الأزهر الشريف ، والزيتونة ، والقرويون ، والجامع الأموى ، ومدارس بخارى ، وسمرقند الخ من احتضان العربية وعلومها ، والقرآن والحديث وعلومهما .. كانت هناك المدارس التى قامت ، منارات للعلم الدينى واللغوى ، منذ عصر صلاح الدين الأيوبى .. ففى مصر وحدها ـ على سبيل المثال ـ انتظم

التعليم فى ثلاثين جامعا ومسجدا ورباطا وزاوية وخانقاه ـ وذلك غير الأزهر الشريف .. كما انتظم التعليم فى مائة وخمس وعشرين مدرسة . فى المدة من [سنة ٥٦٦ هـ سنة ١١٧٠ م] سنة إنشاء «المدرسة الناصرية» إلى [سنة ١١٨٨ هـ سنة ١٧٧٤ م] عندما أنشئت «مدرسة محمد بك أبو الذهب» بجوار الأزهر الشريف[٤٢] ..

وغير مدارس العلم .. وجهود الجمع والتصنيف للموسوعات .. والجهود العملاقة فى فن التاريخ .. كانت هنالك ومضات للإبداع فى عدد من العلوم . وإضافات ذات شأن فى بعض الفنون ..

لكن ذلك كله كان أدنى من المستوى الطبيعى لهذه الأمة ولحضارتها ... فإذا ما قورن بالذى كان يحدث فى بلاد الحضارة الغربية . مركز التحديات التاريخية لبلادنا وأمتنا وحضارتنا . وضحت المفارقات الصارخة . وظهر جليا للعيان أن هذه «الذبالة» التى ظلت مضيئة فى الليل الطويل لدول العسكر المماليك ، لم تكن ، إذا ما قيست بمنارة حضارتنا فى عصر ازدهارها ، أو قورنت بالنهضة الغربية الحديثة ، لاتسمن أو تغنى عندما يجد الجد . وتبدأ دورة جديدة من دورات الصراع التاريخى بين أمتنا والحضارة الغربية الطامعة فى احتواء عالم الإسلام ..

وهذا بالفعل ، هو الذى كان .. فعندما هبت على بلادنا عاصفة الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة . وضح للعيان أن تخلفنا الحضارى قد نزع أسلحة الأمة الفاعلة ، بينما يواجهها خصمها بعلوم قد نسيتها . وتطبيقات لهذه العلوم

---

(٤٢) انظر فى مدارس مصر وجوامعها التى كانت مدارس للعلم : الملحق الخامس من كتاب [التعليم فى مصر] لأمين سامى باشا . ص ٢ ـ ٣٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩١٧ م .

قد جهلتها ، فكانت الهزيمة التي حولت بلادنا إلى فريسة للغرب ، يفرض عليها الهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ويجاهد لاحتواء عقلها بفكرية التغريب...

وثانيتهما : أن الدولة العثمانية [٦٩٩ - ١٣٤٢ هـ ١٢٩٩ - ١٩٢٤ م] قد مثلت محاولة هامة وجادة لتجديد شباب الدولة المملوكية عندما أصابها الضعف ، والتف الغرب حول وطنها بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح [سنة ٩٠٣ هـ سنة ١٤٩٧ م] .. ولقد نجح العثمانيون في نقل المعركة إلى قلب أوربا ، فمدوا حدود عالم الإسلام ، واتخذوا مواقع الهجوم عندما عجزت الدولة المملوكية عن النهوض بمهام الدفاع ؟!... كذلك نجح العثمانيون في توحيد أغلب بقاع العالم الإسلامي في إطار الامبراطورية العثمانية ، فمدوا في عمر الوحدة الإسلامية ، واستثمروا قوتها في تأخير الاجتياح الأوربي لعالم الإسلام لعدة قرون...

لكن هذا الإنجاز العثماني ، على أهميته الكبرى ، لم يكن على مستوى الخطر القادم من الغرب ، الزاحف بأسلحة النهضة الأوربية وعلومها .. فبداوة العثمانيين التي صبغت دولتهم بالصبغة العسكرية ، قد جعلت منهم قوة عسكرية ضاربة لا تستند إلى إبداع حضاري ينمي العمران ويمدن الحياة في البلاد التي تفتحها الجيوش ، وهم لذلك كانوا تجديدا « للقوة » التي ضعفت في دول العسكر المملوكية ، ولم يكونوا تجديدا « للحضارة » العربية الإسلامية ..

ولقد حرم العثمانيون من « الزاد الحضاري » اللازم لعمران البلاد المفتوحة والضروري لتمدن الامبراطورية العظمى التي أقامتها قوتهم العسكرية ، حرمهم من هذا « الزاد الحضاري » نفورهم من العروبة واحتقارهم للعرب .. فلم يتعربوا

حتى يصبحوا جزءا من الحضارة العربية الإسلامية ، وإنما احتفظوا بمغايرتهم للعرب ، فوقفوا ـ كالترك المماليك ـ فى كثير من الأحيان عند شكل التدين بالإسلام ، دون أن يفجروا طاقات الإبداع الحضارى الإسلامية ، والتى هى عربية الهوية والمزاج !..

ولعل هذه «الثغرة القاتلة» هى التى تصاعدت بالنفور التركى من العرب ، فجعلت الإدارة التركية للولايات العربية العثمانية على نحو من الفوضى ودرجة من الظلم زادا من ضعف الأمة وتخلفها الحضارى .. فلم يشهد الخط البيانى لحضارتنا العربية الإسلامية ، خلال الحقبة العثمانية ، أى درجة من درجات الصعود ...

فلما ضعفت الدولة العثمانية ، «كقوة عسكرية ضاربة» ، وزاد من هذا الضعف خلل الإدارة ، وفوضى الجند ، وزيادة المظالم والتعديات ... لم يكن هناك الإبداع الحضارى القادر على ترميم الثغرات التى انفتحت فى «الجدار العسكرى العثمانى» فزادت أمراضها استفحالا ، وبلغت أدواؤها حد الاستعصاء على الإصلاح !..

وحتى عندما فكرت فى الإصلاح ، فإن نفورها من العروبة قد صرفها عن التوجه للتعرب وتجديد الحضارة العربية الإسلامية ، وتأسيس إصلاحها على نمطها الحضارى ، وإنما ذهبت منذ عهد السلطان سليم الثالث [١٢٠٣ـ١٢٢٢ هـ ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ م] إلى الغرب ، تطلب «التحديث» على النمط الغربى ، حتى جاء الوقت الذى استلهمت فيه من الغرب مفهومه العنصرى للقومية ، فكانت محاولاتها الخرقاء لتتريك العرب فى القرن التاسع عشر الميلادى ، تلك التى زادت حدتها بصعود وتصاعد تيار الحركة الطورانية

المعادية للعرب والعروبة ، الأمر الذى أتاح الفرصة لبروز فكر قومى عربى معاكس ، شحنته قوى موالية للغرب بالعداء للرابطة العثمانية ، والفصل بين العروبة والإسلام ..

تلك هى «الثغرة القاتلة» التى أعجزت الدولة العثمانية عن تجديد الحضارة العربية الإسلامية ، والتى تقفت بها عند حدود «تجديد القوة الضاربة لدول العسكر المماليك» التى سبقتها .. ولذلك عجز العثمانيون عن تجديد شباب قوتهم عندما دب فيها الضعف .. فتبدل صمودهم أمام الغرب خضوعا وتسليما .. فتسللت أوربا ـ أولا ـ بالامتيازات ، إلى ولايات الدولة العثمانية [43] .. ثم أخذت تقتطع الأجزاء تلو الأجزاء من هذه الدولة .. وظلت تحرس ضعف «الرجل المريض» ، ترتيبا لأوراق تنافسها الاستعمارى على تركته ، وتحينا للظرف المناسب للإجهاز عليه ، حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، فأجهزت على «رمز» الخلافة الإسلامية ، و«وعاء» وحدة عالم الإسلام ، وقسمت أشلاءه بين دولها الاستعمارية .. وذلك حتى لا يظل «الرمز» و «الوعاء» يغريان رواد اليقظة الإسلامية بتحويل «الرمز» إلى «حقيقة فاعلة» ، وملء «الوعاء» بما يصلح شأن المسلمين ويجدد شباب حضارة الإسلام ..

فلا الومضات التى ظلت تبعث الضوء فى أماكن متفرقة وميادين متناثرة من عالم الإسلام ..

ولا القوة الضاربة للدولة العثمانية .. قد استطاعت الحيلولة بين التراجع الحضارى وبين النهاية المأساوية التى انتهت إليها الأمور ... وصدق جمال الدين

---

(٤٣) انظر كتابنا [فجر اليقظة القومية] ص ٢٨٧ـ٢٨٩ . طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .

الأفغانى عندما أشار إلى أن « المقدمات » قد بلغت من القوة حدا جعل السقوط حتما وقدرا مقدورا .. فلقد قال :

« إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين فى الشرق كان من شاهق عظيم . ولا يمكن للحكيم الوقوف فى سبيل سقوطه وهو فى وسط الانحدار . أو بقربه من نقطة المركز .

ذلك الشاهق العظيم . شاهق حكمة الدين ؟!. وإذا كان انحطاط الأمم مرضا . وله سير معلوم . فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير . بل غاية ما يمكنه : الإتيان بالملطفات والمسكنات ، حتى ينتهى السير . ويبل العليل ، ويدخل فى دور النقاهة .. نعم .. لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ، ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان .. ؟![44]..

(٤٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

اليقظة الإسلاميّة

١ - البدَايات .. والتحدّيات

لكن ... ماكان لهذا الواقع ، رغم بؤسه وقسوته ، أن يصيب حضارتنا العربية الإسلامية بالموات . بل إن المرء ليتردد كثيرا فى وصف ما أصاب هذه الحضارة ، يومئذ ، بمصطلح « الانحطاط » ! ..

فحيوية الإسلام ، ومكانته فى عقل الأمة وضميرها ووجدانها ، كانت دائما وأبدا قوة دفع وطاقة مقاومة لما تراكم على فعالياته من قيود وشوائب وبدع وخرافات .. وكون هذا الإسلام دينا ودنيا ، عقيدة وشريعة ، عبادات ودولة ، شعائر ونمطا سلوكيا فى الحياة ، علوم وحى وشريعة تطبع علوم الدنيا والحضارة بطابع الإيمان ... لذلك كله كان لابد لهذا الدين من أن يستنفر « عقل الأمة » لمقاومة التخلف والتراجع الحضارى ، بالاجتهاد والتجديد .. وبالجهاد لوضع هذه الاجتهادات فى الممارسة والتطبيق ..

ثم ، إن أمة صنعت بالإسلام ما صنعت من فتوحات باهرة ، على كل الجبهات ، وفى مختلف الميادين .. فى الحرب .. وإقامة الدولة .. وبناء الحضارة .. وتراثها فى ذلك حى ، جمعه وبوّبه ونظمه أعلام التأليف والتصنيف الموسوعى ، فى عصر توقف الخلق والإضافة والإبداع .. إن أمة قام بين ظهرانيها وأمام عقولها صرح هذا التراث الحضارى ، كان ولابد لعقلها أن يتحرك لمواصلة النهوض برسالة الأسلاف ...

وجهود المؤرخين العظام : ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ١٣٣٢ ـ

١٤٠٦ م] والقلقشندى [٧٥٦ ـ ٨٢١ هـ ١٣٥٥ ـ ١٤١٨ م].. وتقى الدين المقريزى [٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٤١ م].. وبدر الدين العينى [٧٦٢ ـ ٨٥٥ هـ ١٣٦١ ـ ١٤٥١ م].. وابن تغرى بردى [٨١٣ ـ ٨٧٤هـ ١٤١٠ ـ ١٤٧٠م] وابن إياس [٨٥٢ ـ ٩٣٠هـ ١٤٤٨ ـ ١٥٢٤ م].. كان لابد وأن تحفظ للأمة ذاكرتها الحضارية ، التى تستنفرها للاجتهاد والجهاد كى تتجاوز السقطة وتنهض من الوهدة التى أوقعتها فيها دول العسكر الترك المماليك..

ولقد كان معدن الأمة ، هو الآخر ، عاملا إيجابيا يدفع التطور فى اتجاه اليقظة والمقاومة لهذا التخلف والتراجع والجمود.. فى كل المنعطفات التاريخية . وأمام التحديات الكبرى التى هددت كيان الأمة وتميزها عبر مسيرتها التاريخية والحضارية المليئة بالتحديات ، كانت دائما وأبدا تمتلك الإجابة الإيجابية والحركة الفاعلة تجاه ما يفرض عليها من تحديات... فأمام الحصار «البيزنطى ـ الفارسى» ، ومحاولات الاحتواء ، نهضت بالفتوحات الإسلامية . فامتلكت زمام قيادة الشرق ، وحررته من القهر البيزنطى ـ الفارسى العتيق.. وأمام التحدى الفكرى للمذاهب الغربية ، «هلينية» و«غنوصية» و«لاهوتا مسيحيا» تحول عن أصوله الشرقية إلى نسق فكرى ملىء بالتأثيرات اليونانية... أمام هذا التحدى ، المسلح بفلسفة اليونان وعقلانيتهم . صاغت الأمة عقلانيتها الإسلامية ، وفلسفتها المتميزة ، فنشرت إسلامها وأبدعت حضارتها ، منتصرة على هذه التحديات... وأمام جحافل الدمار الصليبى والتترى . أقامت الأمة نظام فروسيتها ـ الذى جاء ـ لأسباب أشرنا إليها ـ تركيا مملوكيا ـ فكسرت به شوكة أطول وأبشع حملات الغزو والإبادة التى شهدها ذلك التاريخ...

واستمرارا لهذا التاريخ ، وإعمالا لذات القانون الذى حكم تاريخ الأمة ومواقفها إزاء التحديات العظمى ، اختلج عقل الأمة ووجدانها فقدم ، من ترسانة مقاومتها ومخزون طاقاتها ، صور المقاومة للتخلف والتراجع والجمود الحضارى ... وكان ذلك فى صورة الجهود الفكرية والعملية التى تمثلت فى أعلام الاجتهاد والتجديد ...

ذلك هو السلاح الذى امتشقته الأمة لتقاوم به عوامل التخلف والتراجع والجمود .. فرسول هذه الأمة ، عليه الصلاة والسلام ، قد علّمها أن المنظومات الفكرية ، دينا كانت أو حضارة ، إذا أصابها التطور بما يقلل من فعالياتها ، بالبدع والخرافات والتخلف والجمود ، فإن التجديد هو السبيل لليقظة والنهوض من جديد لمواصلة الطريق .. فهو القائل : «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها»[1] !

وإذا كان حديث الاجتهاد والتجديد .. والأعلام الذين ساروا على دربه يحاولون مقاومة عوامل التخلف ومظاهره ، سعيا إلى إيقاظ الأمة وبعث نهضتها من جديد ... إذا كان هذا الحديث من الثراء بحيث يحتاج إلى عمل مفرد وجهد مستقل وكبير .. فإننا نكتفى ، فى هذا المقام ـ تبديدا لوهم شائع يحسب أصحابه أن الظلام كان تاما ، والاستسلام كان عاما ـ نكتفى بذكر أسماء كوكبة من العلماء والأعلام ، الذين تميزت إبداعاتهم الفكرية بومضات تجديدية ، مثلت عوامل مقاومة لما شاع فى ذلك العصر من تخلف وتراجع وجمود ...

فن سلطان العلماء ، العزبن عبد السلام [٥٧٧ـ ٦٦٠ هـ

(١) رواه أبو داود

١١٨١ـ١٢٦٢م] وتلميذه الفذ ، الإمام القرافى ، أبو العباس أحمد بن إدريس [٦٨٤ هـ ١٢٨٥] .. وحتى عصرنا الراهن امتدت وتناثرت جهود العلماء المجددين .. من مثل : ابن الوزير ، محمد بن إبراهيم الوزير [٧٧٥ـ٨٤٠ هـ ١٣٧٣ـ١٤٣٦م] .. والمقبلى ، اليمنى ، صالح بن مهدى [١٠٤٧ ـ ١١٠٨ هـ ١٦٣٧ ـ ١٦٩٦ م] .. وولى الله الدهلوى [١١٠ ـ ١١٧٦ هـ ١٦٩٩ ـ ١٧٦٢ م] .. ومرتضى الزبيدى [١١٤٥ ـ ١٢٠٥ هـ ١٧٣٢ ـ ١٧٩٠ م] .. وصالح بن محمد بن نوح الفُلاّنى [١١٦٦ ـ ١٢١٨ هـ ١٧٥٣ ـ ١٨٠٣ م] .. وعثمان دان فوديو (الفودى) [١١٦٨ـ ١٢٣٢ هـ ـ ١٧٥٥ ـ ١٨١٧ م] .. وعمر مكرم [١١٦٨ـ ١٢٣٧ هـ ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢ م] .. ومحمد بن على الشوكانى [١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤ م] .. وحسن العطار [١١٩٠ ـ ١٢٥٠ هـ ١٧٧٦ ـ ١٨٣٥ هـ] .. والشهاب الألوسى [١٢١٧ ـ ١٢٧٠ هـ ٨٠٣ ـ ١٨٥٤ م] .. ومحمد بن على السنوسى [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م] .. والحاج عمر (سيدوتل) [١٢١٢ ـ ١٢٨٠ هـ ١٧٩٧ ـ ١٨٦٤ م] .. ورفاعة رافع الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م] .. وعبد القادر الجزائرى [١٢٢٢ ـ ١٣٠٠ هـ ١٨٠٧ ـ ١٨٨٣ م] .. ومحمد أحمد (المهدى) [١٢٦٠ ـ ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥ م] .. ومحمد قدرى (باشا) [١٢٣٧ ـ ١٣٠٦ هـ ١٨٢١ ـ ١٨٨٨ م] .. وأبو الطيب محمد صديق خان [١٢٤٨ ـ ١٣٠٧ هـ ١٨٣٢ ـ ١٨٨٩ م]. وخير الدين التونسى [١٢٢٥ ـ ١٣٠٨ هـ ١٨١٠ ـ ١٨٩٠ م] .. وعبد الله النديم [١٢٦١ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦ م] .. وجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] .. وعبد

الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م].. ومحمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م].. ومصطفى كامل (باشا) [١٢٩١ ـ ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م].. وحسين بن محسن الأنصاري [١٣٢٧ هـ ـ ١٩٠٩ م].. وعبد الحميد الزهراوي [١٢٧٢ ـ ١٣٣٤ هـ ١٨٨٥ ـ ١٩١٦ م].. وعبد العزيز جاويش [١٢٩٣ ـ ١٣٤٧ هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٢٩ م].. ومحمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م].. ومحمد إقبال [١٢٨٩ ـ ١٣٥٧ هـ ١٨٧٣ ـ ١٩٣٨ م].. وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠ م].. ومحمد مصطفى المراغي [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥].. ومصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦ م].. وشكيب أرسلان [١٢٨٦ ـ ١٣٦٦ هـ ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦ م].. وحسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ـ ١٩٤٩ م] ومحمد فريد وجدي [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤ م].. وعبد الوهاب خلاف [١٣٧٥ هـ ١٩٥٦م].. وعبد القادر المغربي [١٢٨٤ ـ ١٣٧٦هـ ١٨٦٧ ـ ١٩٥٦ م].. ومحمد الخضر حسين [١٢٩٣ ـ ١٣٧٧ هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م].. ومحمود شلتوت [١٣١٠ ـ ١٣٨٣ هـ ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م].. ومحمد الفاضل بن عاشور [١٣٢٧ ـ ١٣٩٠هـ ١٩٠٩ ـ ١٩٧٠ م].. ومالك بن نبي [١٣٢٣ ـ ١٣٩٣ هـ ١٩٠٥ ـ ١٩٧٣ م].. وعلال الفاسي [١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م].. وأبو الأعلى المودودي [١٣٢١ ـ ١٣٩٩ هـ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩ م].. وعبد الجليل عيسى [١٣٠٥ ـ ١٤٠٠هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٨٠م].. ومحب الدين الخطيب [١٣٠٣ ـ ١٣٨٩ هـ ١٨٨٦ ـ ١٩٦٩ م].. ومحمد أبو زهرة [١٣١٦ ـ ١٣٩٤ هـ ١٨٩٨ ـ ١٩٧٤ م].. وعلى الخفيف... الخ.. الخ..

إنهم أمثلة ـ مجرد أمثلة ـ لأعلام شهدت جهودهم فى الفكر والممارسة أن **تخلفنا الحضارى ، على قسوته وبشاعته ، لم يصل بحضارتنا إلى حد « الموات » .. فلقد كانت روح المقاومة دائمة الفعل ، تجاهد لإيقاظ الامة وإنهاضها وبعث حضارتها من جديد ..**

ونحن نلاحظ أن سمات التجديد والاجتهاد لم تكتمل دائما لدى كل مجتهد ومجدد من هؤلاء المجتهدين المجددين .. فكثيرون منهم كانت تجديداتهم فى ميدان دون ميدان أو ميادين .. كما نلاحظ أن توجهاتهم التجديدية لم تكن متطابقة فى كثير من الأحيان وعديد من المجالات .. وهذه الحقيقة تضع يدنا على أمور هامة ، منها :

١ ـ أن تغاير الزمان والمكان وتنوع التحديات لابد وأن يترك بصماته على فكر المفكر واجتهاد المجتهد .. وأن مراعاة هذه الحقيقة شرط للتقييم الموضوعى لإضافات أى من هؤلاء المفكرين ..

٢ـ وأن تنوع ميادين التجديد والإبداع وتغايرها عند الواحد منهم بالمقارنة مع غيره ، توجب علينا احتضان تراثهم جميعا ، لنستخلص من كل عناصر التجديد والإبداع ، فبذلك نبلغ أقصى درجات الاستفادة ، وننجو من نهج التعصب لمفكر بعينه أو مذهب بذاته ، ذلك النهج الذى يفرض علينا ضم الغث إلى الثمين ، وخلط السلبيات والجمود ، لدى هذا المفكر ، بما قدم من إيجابيات وتجديد ... فهم جزء متميز من تراثنا ، وعلينا أن نحتضنهم جميعا ـ مع نظرائهم ـ لنستخلص ما يزكى فى واقعنا الراهن توجهات وعوامل الاجتهاد والنهضة واليقظة والتجديد ..

٣ ـ إن تعدد الرؤى والمناهج لدى كثير من هؤلاء الأعلام تضع يدنا على

سمة من السمات الهامة التى تتميز بها حضارتنا .. وهى سمة «التعددية» فى ميادين «الاجتهاد» ... فأصول الإسلام وعقائده وأركانه وغيبياته وشعائر عباداته ، هى جميعا مما اتفق المسلمون عليها ، فتلقوها جميعا مجمعين عليها ومجتمعين ، حتى لقد قال خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز : «إن هذه الأمة لم تختلف فى الدين» ... أما الفروع ، والسبل والوسائل والأدوات والمناهج ، وشئون الدنيا المتعلقة بسياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران - أى الحضارة - التى هى إبداع بشرى محكوم بمقاصد الشريعة الإلهية ، فإنها هى التى شهدت الاجتهاد ، والتعددية فى هذا الاجتهاد ...

ومن الأمور التى استقر عليها أمر هذه الأمة أن اجتهاد المجتهد غير ملزم لغيره من المجتهدين .. وقصة الإمام مالك عندما رفض رغبة المنصور العباسى [٩٥-١٥٨ هـ ٧١٤-٧٧٥م] جعل كتابه [الموطأ] القانون الملزم للدولة والأمة ، شهيرة وذات دلالة فى هذا الباب .. لقد رفض أن يكون اجتهاده ملزما لغيره من المجتهدين ... وهذه الحقيقة تفرض علينا ، ونحن نتوجه لإزكاء روح اليقظة فى أمتنا ، احتضان عواملها أينما وجدناها فى مختلف ميادين الإبداع لدى جميع المجتهدين والمجددين .. وأيضا تفرض علينا الإيمان بمشروعية التعددية فى الرؤى والسبل والمناهج عند الأعلام والمفكرين والجماعات الساعية إلى هذه النهضة ، والعاملة فى ميدانها .. **فإذا كان الإسلام هو فكرية - «أيديولوجية» - الأمة .. وإذا كانت هذه الأمة قد اتفقت وتتفق على أصوله وأركانه وعقائده وغيبياته كما جاءت فى السمعيات ، فإن قضية الحضارة العربية الإسلامية ، سياسة واجتماعا واقتصادا وعمرانا وعلوما إنسانية ، هى مما تتعدد فيها الرؤى وتتمايز فيها الاتجاهات بتعدد وتمايز جماهير الأمة ومفكريها إزاء هذه المعضلات ... فالتعددية ، إذن ، فى الدعوات**

والاجتهاد والحركات والجماعات العاملة فى ميدان الإحياء الإسلامى واليقظة الإسلامية هى ظاهرة طبيعية ، بل وصحية .. أما الذين يتصورون الوحدانية والانفراد بالنجاة فى هذا الميدان لفرقة بذاتها وجماعة بعينها ، قائلين إن من عداها هم فى النار ، فإنهم يخلطون بين «عقائد» الإسلام و«حضارة» الإسلام ؟ ! .. فى عقائد الإسلام وأصوله وأركانه ، لا تعددية ، بل ولا رأى ولا اجتهاد .. وفى هذا الميدان ، نعم النجاة للفرقة «المتبعة» دون «المبتدعين» ، الذين مآلهم جميعا إلى النار .. أما فى ميدان «الحضارة» فإن الاجتهاد ، ومن ثم التعددية ، هما السبيل الطبيعية ، بل الواجبة لتنمية «الإبداع» الذى هو السبيل إلى بناء الحضارة ، وإلى تجديدها ونهضة أمتها ..

بهذه الروح .. وفى ضوء هذه الحقيقة ، يجب أن ننظر إلى تمايز اجتهادات الأئمة المجتهدين ، وإلى التعددية فى مجال الدعوات والحركات والجماعات الساعية إلى البعث الحضارى لأمة الإسلام .

٤ ـ لابد أن ننتبه ، ونحن ننظر فى فكر اليقظة الإسلامية واهتمامات دعاتها وحركاتها ، إلى أن الهجمة الاستعمارية الغربية الحديثة قد أحدثت إضافات وتحولات فى اهتمام أعلام هذه اليقظة وحركاتها .... فقبل هذه الهجمة .. كانت جهود الاجتهاد والتجديد منصبة على إنجاز مهمة محددة ، هى كسر قيود الجمود ، والبعث الحضارى الذى يتيح للأمة نفض غبار التخلف عن عقلها وطاقاتها كى تواصل مسيرتها الحضارية من جديد ... وعندما بدأت الهجمة الاستعمارية الغربية الحديثة بحملة بونابرت على مصر أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وعلى امتداد القرن التاسع عشر ، وضعت حركة اليقظة الإسلامية فى مقدمة مهامها ـ إلى جانب محاربة الجمود بالاجتهاد والتجديد ـ مهمة التصدى للزحف الاستعمارى

الغربى على بلاد الإسلام ... ولقد ظل الحال كذلك حتى سقوط الخلافة العثمانية أوائل العقد الثالث من هذا القرن العشرين ، عندما نجح الغرب الاستعمارى فى احتلال مجمل عالم الإسلام ، وفرض عليه التبعية السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وأحرز ـ أيضا ـ قدرا كبيرا من النجاح فى فرض التبعية الفكرية على بلادنا ، بأدواته المباشرة ، و« بالنخبة » و« الصفوة » التى صنعها على عينه ، وضرب عقولها وفق مناهج حضارته وصاغ توجهاتها وأذواقها وفق فلسفة الحضارة الغربية ... هنا ، وعند هذه المرحلة من مراحل المواجهة بين دعوات وحركات اليقظة الإسلامية وبين التحديات التاريخية المانعة لنهضة الأمة ، بدأ تركيز رواد اليقظة ومفكروها وحركاتها على محاربة آثار ومظاهر « التغريب » فى عقول الأمة وواقعها ...

وهذه الحقيقة ، تستدعى منا ـ قبل الإشارة إلى أبرز دعوات اليقظة الإسلامية وحركاتها ـ إشارات إلى ما يعنيه « التغريب » ..

* * *

التغريب :

لقد جاء الغرب إلى بلادنا ، فى غزوته الاستعمارية الحديثة ، وقد وعى دروس غزوته الصليبية فى العصور الوسطى .. فلقد كان فى الغزوة الصليبية مجردا من الفكر والحضارة ، ليس لديه ما يغرى أهل البلاد التى سيطر عليها فرسانه الصليبيون ، الذين كانوا كما قال الفارس المؤرخ أسامة بن منقذ [٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ ـ ١١٨٨ م] : كانوا « بهائم » ليس لديهم سوى « فضيلة » « القتال » ؟! .. فلما استفزت فروسيتهم الهمجية فروسيتنا الإسلامية ، واندحرت غزوتهم واستسلمت حصونهم لم يخلفوا وراءهم ـ بعد قرنين من

الزمان ـ أى أثر فى عقل الأمة الإسلامية يغرى بالاقتداء والاستلهام والتقليد .. فكان جلاء قوات الغزو إنجازا كاملا للاستقلال الوطنى الكامل ..

جاء الغرب فى غزوته الحديثة وهو على وعى كامل بهذا الدرس ... وكان عازما على أن يلحق عالم الإسلام بالمركز الغربى إلحاقا مؤبدا ، فخطط ، منذ البدء ، لتلافى مصيره فى غزوته الصليبية .. فالاحتلال العسكرى لابد يوما أن يستفز الحس الوطنى فيجليه .. والنهب الاقتصادى لابد وأن يستنفر المصالح القومية فتنتزع الأمة ثرواتها من مغامريه وشركاته .. والأيدى العاملة الرخيصة التى تعتصر احتكاراته جهودها لابد وأن يوقظ الاستغلال حسها الطبقى فتثور على هذا الاستغلال .. إذن .. كيف السبيل لتأبيد تبعية عالمنا الإسلامى للغرب وحضارته ؟! ..

لقد فكروا ـ وهم يبيتون لغزوتهم الحديثة ـ فى هذا الأمر .. وكانت روح الاستعلاء والعدوان ، المميزة لحضارتهم الغربية قد جعلتهم مؤمنين بأن إلحاقنا بهم إنما يمثل « رسالة » الرجل الأبيض ! ! .. فالحضارة الغربية ـ بزعمهم ـ هى الحضارة الإنسانية الوحيدة ، بدأت باليونان ، وانتهت بنهضة الغرب فى العصر الحديث .. وما العرب المسلمون إلا نقلة لمواريث اليونان خلال غفوة الغرب فى عصره الوسيط .. وفلسفة هذه الحضارة صاغها تشارلز داروين Darwin [١٨٠٩ ـ ١٨٨٢ م] فى قانون : البقاء للأصلح ، والأصلح هو الأقوى .. فإذا ما خرج الرجل الأبيض غازيا ـ وهو الأقوى ـ فإن هذا « القانون » يدعوه إلى أن يمسخ وينسخ المواريث الحضارية للأمم والبلاد التى تسقط فى قبضته ، وأن يلحقها بمركز الأرض ومصدر حضارتها الوحيدة فى الغرب ! .. فتلك « رسالة » ينهض فيها الرجل الأبيض بتطبيق « القانون » العلمى ؟! .. ولذلك ، فإن الهدف من هذه الغزوة لا يقف ، فقط ، عند احتلال الأرض ونهب الثروة واستغلال

الإنسان ، وإنما يتجاوز ذلك ـ لكى يؤيد ويؤيد كل ذلك ـ إلى احتلال العقل ، حتى تظل التبعية ـ تبعيتنا ـ للمركز الغربى قائمة دون جيوش احتلال ، لأنها ستكون ـ أى التبعية ـ مذهبنا نحن ، ومطلبنا نحن التابعين ... وعلى هذا الدرب بدأت جهود الغرب الاستعمارى فيما تسميه بـ «التغريب» ، أى إلحاق الشرق بالغرب، باحتلال عقله، وشده إلى المركز الغربى بخيط من التبعية الفكرية ، خفى وناعم ولذيذ ؟!..

لقد بدأ فأطلق على بلادنا أسماء ، فقبلناها ، دون أن نفطن إلى أنها «طعم» و«طعام» يؤدى تناوله إلى ترسيخ فكرة : أن الغرب هو «المركز» وماعداه فهو «الهامش ـ التابع» .. فـ «الشرق الأدنى» هو كذلك لأنه الأدنى من المركز الغربى .. وكذلك .. «الأوسط» و «الأقصى» ؟!.. إنه هو «وحدة القياس» ؟! ... ثم مضى على هذا الدرب حتى غدت مفاهيمه وتجاربه ومذاهبه، بل و«تقاليعه»، هى أول مايقفز إلى ذهن «النخبة» و«الصفوة» التى تغربت ، كمعايير ووحدات قياس ، عندما يذكر أمر من الأمور .. فليبراليته هى النموذج لليبراليتنا .. وشموليته هى النموذج للشموليين منا .. ومذاهبه الأدبية والفنية هى الغاية والنموذج .. وفلسفته هى الفلسفة .. والروح المادية الحاكمة لعلومه الإنسانية ، هى التى سرت فى دراساتنا لهذه العلوم الإنسانية .. وكل ماهو غربى فهو المتحضر ، وما عداه رجعية وتعصب وتخلف متلكئ فى مجرى تطور التاريخ ؟ ! ..

وعلى درب «التغريب» هذا ، وفى ميادينه يستطيع الباحث أن يرصد الكثير من المعالم والشواهد التى مثلت ، ولا تزال ، «جهودا» و «معارك» و «أفكارا» و «دعوات» حاول بها الغرب وعملاؤه والذين خدعوا بمقولاته أو اندهشوا وانبهروا بزخرف دعاويه ، إغواء أمتنا بالالتحاق بحضارته الغربية ، والتخلى عن

درب «التواصل الحضارى» ، الذى يجعل نهضتنا المأمولة الامتداد المتطور لحضارتنا المتميزة..

● فـ «بالتبشير» خلق لمذاهبه الدينية ركائز وكنائس فى بلادنا ، انتزعت أرضا التحقت بمراكز اللاهوت فى بلاده.. وكان ذلك على حساب إسلامنا حينا ، وعلى حساب كنائسنا الوطنية الشرقية فى أغلب الأحايين ؟!..

● و«بالاستشراق» ، الذى ارتاد أعلامه ميادين تحقيق مخطوطات تراثنا والكتابة عن مذاهبنا وفرقنا ومجتمعاتنا.. سلط الضوء على كل ما يؤدى إلى ضعفنا وتشرذمنا ، لتسهل التبعية ويتيسر الإلحاق.. فتوجهت جهود كثير من الدراسات الاستشراقية لتسليط الأضواء على الفرق الشاذة ، والأقليات النافرة ، والمذاهب الدخيلة ، تعطيها أكثر من حقها ، وتضفى عليها جمالا لا تملكه... وبث أغلب هذه الدراسات فى عقول قرائها أن أسلافنا لم يكونوا غير نقلة وحفظة لتراث اليونان ، ليتولد فى هذه العقول اقتناع باستحالة إبداعنا لمستقبل متميز ونهضة مستقلة ، طالما أن التميز والاستقلال ليسا أكثر من خرافة حتى فى تاريخنا الحضارى وتراثنا الذى نفخر به ونتيه ؟!... وحتى الدراسات التى لم تقل ذلك ولم تقصد إليه جعلت معاييرها فى تقييم تراثنا معايير غربية ، فأسهمت ، هى الأخرى ، فى تكريس روح التغريب فى ثقافتنا المعاصرة ؟!..

● وانطلاقا من «المعايير الغربية» ، التى جعلت حضارة الغرب ، وتطوره التاريخى «وحدة القياس» فى كل شىء ، شهدت ساحات الفكر فى بلادنا ـ تحت هيمنة الاستعمار ودعاة التغريب ـ الكثير من الدعوات التى قامت حولها المعارك الفكرية...

فالمستشرقون يدرسون «مقدساتنا» كتاريخ بشرى ، لا قداسة له.. وفى هذه

الدراسات غير الخطأ والجهل والمغالطات ، غمز ولمز كثير .... وعلى هذا الدرب سار منا نفر ، تناولوا بعضا من مقدساتنا بنفس الروح وذات المعايير ! ..

واللاتينية عندهم قد أحلت المكان للغات القومية .. فرأيناهم يدعون إلى دفن العربية ، وإحلال العاميات المحلية مكانها .. متجاهلين الفروق الموضوعية التى تميزنا عنهم فى هذا الميدان .. فنحن أمة واحدة ، أما هم فقوميات وأمم عدة .. وأن العربية ، فضلا عن أنها رباط الوحدة القومية للأمة الواحدة ، فهى لسان «الإسلام ـ الدين» ، ولم تكن كذلك لاتينيتهم فى علاقتها بالمسيحية .. والذين دعوا إلى ذلك ، لقصور زعموه فى وفاء العربية بمتطلبات النهضة العلمية الحديثة ، لم يقولوا لنا : وكيف استطاعت العربية يوما أن تكون لسان العلم العالمى ؟ .. ولم يقولوا ـ أيضا ـ هل ستنهض بهذه المهمة ـ خيرا من العربية ـ العاميات المحلية ؟! .. لم يقولوا شيئا من ذلك ، فلقد كان الهدف واضحا : إزاحة العربية لمصلحة اللغات الغربية الوافدة ؟! .. واستخدام التعددية فى اللهجات العامية ، لتنفصم عروة وثقى من عرى وحدة الأمة .. وفوق ذلك ، وقبله ، جعل العلاقة منبتة بين حاضرنا ومستقبلنا وبين تراثنا الحضارى ، المكتوب بالعربية ، وذلك حتى لا يكون هذا الحاضر والمستقبل الامتداد لماضى الأمة الحضارى ، وإنما الهامش التابع للمركز الغربى وحضارته الغربية ! ... فلما فشلت هذه المعركة ، خاضوا أخرى دعوا فيها إلى الإبقاء على العربية مع كتابتها بالحرف اللاتينى ، لتتغرب الأمة وتغترب عن دينها وتراثها .. تحقيقا لذات الأهداف المبتغاة من «التغريب» ! ..

● وحتى يوهمونا بأن «تقدمنا» لابد وأن يكون «تحديثا» على النمط الغربى ، وأن خيارنا فى الخلاص من مشكلاتنا لابد وأن يكون «خيارا» غربيا ،

ذهبوا يوهموننا بوحدة نمط التطور فى تاريخنا وتاريخهم ، منطلقين من الاستعلاء الذى يريد أن يفرض على الأمم والشعوب «النمط الغربى» ، لا للمستقبل فقط ، وإنما للماضى وتطوره الحضارى أيضا !..

فكما كانت علاقة دينهم بدولتهم «كهانة» و«ثيوقراطية» و«تفويضا إلهيا» و«حكما بالحق الإلهى»، زعموا أن إسلامنا كان كذلك ، وأنه قد جعل خلافتنا الإسلامية حكما مطلقا ، الخليفة فيه يستمد سلطانه من الله ، لا من الأمة.. وولايته على دين الناس ودنياهم عامة ومطلقة كولاية الله ـ سبحانه ، ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الناس..

ولما كانت مسيحيتهم قد طلبت أن يدع الناس ما لقيصر لقيصر وما لله لله، لأنها رسالة روحية مهمتها خلاص الروح وتنظيم مملكة السماء، ولا مدخل لها فى سياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران المدنى.. فلقد حاولوا تصوير إسلامنا مسيحية؛ ليجردوه من جوانبه المدنية ، فزعموا «أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ، ولا دعوة لدولة ، وأنه لم يكن للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملك ولا حكومة ، وإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها. ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعيا إلى ملك..»[٢] !..

وهم بذلك لا ينكرون حقائق التاريخ وحدها ، بل ويتنكرون لحقيقة التمايز بين الحضارات والأمم فى أنماط التطور... فإذا كانت هيمنة الكنيسة على الدول والمجتمعات الغربية قد أصابتها بالجمود والجهل والتخلف فى كل الميادين ، فإن

---

(٢) على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٦٤ ، ٦٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.

احتكام أمتنا إلى شريعتها هو الذى أثمر أزهى عصور ازدهارنا الحضارى، وقمة استنارتنا وعقلانيتنا .. ولم تدخل أمتنا ـ كما سبقت إشاراتنا ـ إلى طور التراجع والتخلف والجمود إلا عندما أزاحت دول العسكر المماليك الصبغة الإسلامية عن قطاعات من الواقع وعن القانون الذى ينظم حركة هذا الواقع !..

ولما كانوا قد حلوا مشكل استبداد كنيستهم بدولتهم وفق «المعيار الانجيلى»: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فلقد أرادوا أن تكون «علمانيتهم» ، التى تفصل «الدين» عن «الدولة» ، هى النهج الذى يحكم علاقة الإسلام بالسياسة فى بلادنا.. فارتبط تزايد نفوذهم الاستعمارى بين ظهرانينا باستبدال قانونهم ـ المعبر عن فلسفة حضارتهم ـ بفقه المعاملات الإسلامى ، الذى هو القانونى الطبيعى للأمة الإسلامية ، المتسق مع عقيدتها ، والمحقق لمقاصد شريعتها ، والذى تكن له الاحترام..

● وعلى عكس مفهوم حضارتنا «للأمة» ـ وهو المفهوم الذى برئ من عصبية العرق ـ حتى لقد وفق وجمع وألف بين الولاء للدوائر «الوطنية» و«القومية» و«الإسلامية» ، دونما تعارض أو تناقض .. على عكس هذا المفهوم ، رأيناهم يزرعون فى واقعنا الفكرى والسياسى «المفاهيم القومية» للحضارة الغربية ، فقامت ، تبعا لها ، فى عقول البعض وتوجهاتهم وبرامج أحزابهم التناقضات بين هذه الدوائر ، ورأينا من يقف عند الدائرة «الوطنية» دون «القومية» ، ومن يهمل ، بل وينكر الدائرة «الوطنية» و«الإسلامية» معا ، مانحا ولاءه فقط للدائرة «القومية» ، لأن المفاهيم والمعايير الغربية لهذه المصطلحات ، وتطبيقات تلك المفاهيم قد صنعت ذلك فى التطور القومى لأمم الحضارة الغربية ؟!..

● نعم.. لقد نجح الغرب الاستعمارى ، مستخدما سلطانه السياسى

والعسكرى والاقتصادى ، ومستفيدا من هيمنته الاستعمارية على ميادين التأثير الفكرى وأدواتها فى بلادنا ، ومستندا إلى الإنجازات الرائعة التى حققتها نهضته الحضارية الحديثة .. نجح فى خلق « نخبة » و « صفوة » متغربة من أبناء أمتنا ، أغلبها سلك هذا السبيل عندما انبهر بروعة الحضارة الغربية وهو يقارنها بتخلفنا الموروث عن نظم وأحقاب دول العسكر الترك والمماليك ، ظانا أن هذا « الميراث » هو حقيقة الإسلام وحضارته ، فاعتقد ـ « مخطئا ـ ومخلصا » ؟ ! ـ أن السبيل إلى التقدم ، وإلى مغالبة الغرب ، والانعتاق من قيوده الاستعمارية ، هو فى استعارة الحضارة الغربية بحلوها ومرها ، بخيرها وشرها ، فدعا إلى أن نكون غربا ، نصيب كما يصيبون ، ونخطئ كما يخطئون .. وحتى يدعم من منطلقات هذه الدعوى ، ويجمع لها المبررات ، ذهب ليوهم الأمة أنها والغرب يجمعها جامع حضارى واحد هو حضارة البحر المتوسط ، وأن هذا الجامع هو أكثر الجوامع الحضارية أصالة ومتانة وجدوى فى تاريخنا ، وأن غيره من التأثيرات الحضارية ـ إفريقية ـ أو آسيوية (إسلامية) ـ إنما هى عابرة وسطحية وموقوتة [٣] ؟ ! ..

وإنصافا للحقيقة ، ولهذا الفريق من « النخبة » و « الصفوة » المتغربة ، فإن الكثير من أعلام هذا الفريق ، قد عاد ـ بعد مرحلة الانبهار ـ فراجع موقفه ، وانحاز إلى الخيار العربى الإسلامى .. ومنهم من انتقد مرحلة « تغربه الفكرى [٤] » .. ومنهم من أشار لذلك ، عمليا ، بالاهتمامات التى ركز عليها فى إنتاجه الفكرى الجديد ..

---

(٣) نموذج لذلك : د . طه حسين فى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

(٤) انظر ما كتبناه عن موقف الدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م] فى كتابنا [العلمانية ونهضتنا الحديثة] ص ١٦٥ ـ ١٧٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

لكن فريقا آخر من الذين تغربوا لم يكن دافعهم إلى تبنى هذا «الخيار» والدعوة إليه «خطأ المخلصين» المنبهرين بالحضارة الغربية ، والساعين إلى إنهاض الأمة كى تتحرر من هيمنة استعمارها .. وإنما كان دافعهم الكراهة للإسلام ، والرغبة فى إزاحة نمطه الحضارى عن النهضة المنشودة ، فكان النموذج الغربى فى الحضارة هو البديل ، الذى ليس لديهم سواه ، كى لا تصطبغ نهضتنا بالإسلام الذى يكرهون ؟ !

وهذا الفريق من المتغربين هو الذى تكون من عدد من المسيحيين الشوام ، الفارين من تسلط الدولة العثمانية ، فتبلور تيارهم المتغرب على أعتاب دار المعتمد البريطانى فى مصر ، ثم جعلوا من صحيفة «المقطم» [١٨٨٩ـ١٩٥٢ م] مدرسة لهذا اللون من فكرية التغريب ... ولقد نحا نحوهم ، وسار على دربهم نفر ضئيل من أبناء الوطن ، حمل للإسلام العداء الذى يحملون .. وكان سلامه موسى [١٨٨٨ـ١٩٥٨م] الصوت العالى لهذا الفريق .. فهو القائل : «إنه إذا كانت **الرابطة الشرقية سخافة** ، لأنها تقوم على أصل كاذب ، **فإن الرابطة الدينية وقاحة** . إننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا .. ونحن فى حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان .. وحكومة ديمقراطية برلمانية ، كما هى فى أوربا ، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ، أوتوقراطية دينية ... **وكلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى أغراضى .. يجب علينا أن نخرج من آسيا**(٥) ، **وأن نلتحق بأوربا** ، **فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له وشعورى بأنه غريب عنى** ، **وكلما زادت معرفتى بأوربا زاد**

---

(٥) الإشارة إلى الإسلام ، القادم من آسيا ؟!..

حبي لها وتعلق بها ، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها . وهذا هو مذهبي الذى أعمل له طول حياتى سرا وجهرا ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب ...[6] » ؟ !..

هكذا أرادوا ، بالتغريب ، نفى « الإسلام ـ الحضارى » ، عندما أنكروا التمايز الحضارى ، تاريخيا ، والتعددية الحضارية للأمم العريقة فى مواريثها الحضارية ، ومن ثم أنكروا التمايز فى سبل اليقظة والنهضة الحديثة ، وأرادوا بـ « الخيار الغربى » فى « التحديث » تأبيد تبعية أمتنا العربية الإسلامية للمركز الغربى والهيمنة الغربية ...

وهكذا وجدت دعوات اليقظة الإسلامية وحركاتها وجماعاتها ـ منذ أواخر القرن التاسع عشر ـ أن التحديات التى تواجهها والعقبات التى تجابهها ، قد أضيفت إليها مخاطر « التغريب » .. فكان عليها أن تبذل جهدا ملحوظا على الجبهة الحضارية ، لصياغة مشروع حضارى عربى إسلامى ، يكون دليل اليقظة الإسلامية إلى النهضة المستقلة استقلالا حقيقيا عن الحبائل والشراك التى صنعها ويصنعها الاستعمار على جبهة « فكرية التغريب » ..

ومنذ تلك المرحلة أضيف هذا التحدى إلى المهام الأولى لليقظة الإسلامية : مجابهة الجمود بالاجتهاد والتجديد ... والتصدى للغزوة الاستعمارية بالجهاد والتحرير !..

---

(٦) سلامة موسى [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م [والنص مأخوذ من كتاب : د. محمد محمد حسين [الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر] جـ ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م].

اليقظة الإسلامية

٢- أبرز الدعوات .. والتيارات والجماعات

على امتداد تاريخ حركة اليقظة الإسلامية ، تعددت فى إطارها الرؤى والسبل والمناهج والأساليب والأدوات .. وتعددت كذلك ، فى هذا الإطار الرموز والجماعات ..

فعلاوة على الأعلام والعلماء المجددين .. وفضلا عن المؤسسات « الفكرية - التعليمية » - من مثل الأزهر ، ومن سار على دربه - والتى وإن حدت من فاعليتها فى « حركة » اليقظة علاقاتها وروابطها بـ « الدول » و « الحكومات » ، إلا أنها كانت ، فى كثير من المراحل ، « ترسانات » الصياغة « لفكر » اليقظة والإعداد « لدعاتها » - .... علاوة على هؤلاء الأعلام وهذه المؤسسات كانت هناك الدعوات المنظمة .. والتيارات المتميزة .. والجماعات والجمعيات .. تلك التى اتخذت من « سلاح التنظيم » سبيلا لزيادة فعاليات « الأفكار والنظريات » ..

ولقد أثبتت هذه التجربة وخبرتها ، ولا تزال تثبت ، الأهمية العظمى « لسلاح التنظيم » فى حركة اليقظة الإسلامية .. وفى الحركات الفكرية والعقائدية على وجه العموم ..

● فبغير « الجماعة » و « سلطة الدولة والإمارة » ما كان لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] أن تصنع ما صنعت ، بل ولا أن تبقى حية فاعلة بعد وفاة رائدها ..

● وبغير «الطريقة» السنوسية و«زواياها» ما كان لدعوة شيخها محمد بن على السنوسى [١٢٠٢-١٢٧٦هـ ١٧٨٧-١٨٥٩م] أن تنهض بما نهضت به من إنجازات... وكذلك الحال مع الدعوة «المهدية» فى السودان..

● ولولا «الحزب الوطنى الحر»، الذى أقامه جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ ١٨٣٨-١٨٩٧م] بمصر فى سبعينيات القرن التاسع عشر.. ثم «جمعية العروة الوثقى»، التى امتدت «عقودها» -فروعها- عبر أوطان المسلمين -وخاصة مصر والهند- لما ترك الأفغانى البصمات الفاعلة والدائمة التى تركها فى حركة اليقظة الإسلامية، ولوقفت هذه التأثيرات عند النطاق الفكرى لواحد من فلاسفة الإصلاح..

● وحسن البنا [١٣٢٤-١٣٦٨هـ ١٩٠٦-١٩٤٩م] ما نظن أنه قد بلغ فى العلم قريبا من مرتبة الإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م].. ومع ذلك، فلقد غدا أكثر أعلام اليقظة الإسلامية فعالية وتأثيرا، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه أبرز أعلامها فى القرن الرابع عشر الهجرى على الإطلاق.. ومرجع ذلك إلى «التنظيم» الذى أسسه وهو فى العام الثالث والعشرين من عمره؟!، والذى أحدث به ما أحدث، وأنجز بواسطته ما أنجز، وما تزال بصماته بارزة على امتداد العالم الإسلامى، حتى فى صفوف الأجيال الجديدة التى تفرزها حركة اليقظة الإسلامية المعاصرة.. فلقد كان التنظيم، فى دعوته، «الأداة» التى تمتد بالدعوة إلى الآفاق، و«الوعاء» الذى يجمع الطاقات حولها من كل الآفاق، لينظمها ويوجهها من جديد!.. ولولا هذا التنظيم لكان البنا مجرد «داعية» دمث الخلق، و«واعظ» ذى سلطان ساحر للقلوب!.. لكنه -بالتنظيم- صنع ما لم يصنعه العلماء والدعاة والوعاظ، رغم استشهاده وهو فى سن الشباب!..

فإذا كانت اليقظة الإسلامية قد بدأت بالاجتهادات التى أبدعها علماء أعلام .. فإن واحدا من أبرز دروس مسيرتها هو ضرورة تجسد هذه الاجتهادات ـ بالتنظيم ـ فى المجامع والمؤسسات البحثية والمنابر الفكرية والجماعات والجمعيات ... ورحم الله عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ـ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ـ١٩٠٢م] ـ مؤسس «جمعية أم القرى» ـ فلقد قال عن ميزة الجمعيات المنظمة : «إنها تفى بما لا يفى به عمر الأفراد..»[1] ؟!..

ولذلك ، كان ضروريا ـ عند هذا الحد من هذه الدراسة ـ أن نلقى بعض الضوء على أبرز التيارات والدعوات والجماعات الناهضة برسالة اليقظة الإسلامية فى عصرنا الحديث .. وعلى وجه التحديد ـ وبإيجاز يفرضه المقام ـ :

١ ـ الوهابية .. فى شبه الجزيرة العربية .

٢ ـ السنوسية .. فى ليبيا وشمالى إفريقيا .

٣ ـ المهدية .. فى السودان .

٤ ـ الجامعة الإسلامية .

٥ ـ جماعة الإخوان المسلمين .

٦ ـ الجماعة الإسلامية .. بالهند وباكستان .

٧ ـ تيار «الرفض» الجديد ـ (التيار الانقلابى) ـ .

وذلك حتى تكتمل معالم حركة اليقظة الاسلامية ، وما فى ساحتها من رؤى ومناهج وتيارات ...

---

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ٢٤٣ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م

(١)
الوهابية

فى بيئة بدوية بسيطة ، هى « نجد » ، بشبه الجزيرة العربية ، ولد ونشأ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م] ..

وكانت السيادة الإسمية والرسمية على موطنه لخلفاء آل عثمان .. وكان ابن عبد الوهاب سليل أسرة من الفقهاء ، أخذ عنهم علوم الدين ، كما درس على علماء مكة والمدينة ، وظهر نزوعه المبكر إلى النهج السلفى ، الرافض لما طرأ على عقائد الإسلام وعباداته من بدع وخرافات وإضافات ..

لقد نظر ابن عبد الوهاب فوجد عامة الناس يتخذون الوسائل والوسائط شفعاء إلى الله ، بل ويتوجهون إليهم بالطلب والدعاء والاستغاثة فى الملمات .. كما وجد البدع قد أصابت العبادات ، بالزيادة والنقصان .. فلما عرض صورة « إسلام العامة » هذا على حقيقة « إسلام السلف » وجد أن الإسلام الأول ـ إسلام السلف ـ قد أصبح « غريبا » !.. فكان أن وجد نفسه فى ذات الموقف الذى وقفه إمام السلفيين القدماء : الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م] عندما دعا إلى العودة لإسلام شبه الجزيرة ، الأول ، إسلام ماقبل عصر الفتوحات ، ذلك الذى يكفى الإنسان منه النصوص ، دونما حاجة إلى العقلانية الكلامية أو الفلسفية ، وما أثمرت من « قياس » و « رأى » و « تأويل »[١] !.. وكانت بيئة « نجد » ، البسيطة ، أكثر ملاءمة للإسلام

---

(١) انظر الفصل الذى كتبناه عن « السلفية » بكتابنا : [تيارات الفكر الإسلامى] ص ١٢٥ ـ ١٦١ .

السلفى البسيط ، فظواهر النصوص تكفى للإجابة على علامات استفهام إنسانها البسيط ، كما تكفى لتصحيح معتقداته وتصوراته وإعادة عباداته إلى إطار الإسلام الصحيح والبسيط ..

بدأ ابن عبد الوهاب بدعو إلى إسلام السلف ، ويبشر بفكر ابن حنبل ، وابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م] وابن قيم الجوزية [٦٩١ ـ ٧٥١هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م] ويركز على إصلاح « العقائد » وتقويم « التصورات » وتصحيح « العبادات » .. فحكم بالشرك ، الظاهر والجلىّ ، على المتوسلين إلى الله بالأولياء والصالحين والمشاهد والمزارات والرموز ، بل رأى أن شركهم هذا هو أعظم من شرك الجاهلية الأولى[٢] .. ورفض ـ كما صنع أعلام السلفية الأولى ـ أن يحتكم لغير النصوص ، فهاجم « القياس » ، حتى لو كان صحيحا ، وأعرض عن « التأويل » فى فهم النصوص وتفسيرها[٣] .. وأعلن أن « الرأى » لاوزن له بجانب النصوص[٤] ..

وكان طبيعيا أن تصطدم هذه الدعوة السلفية بفكرية العصور الوسطى ، تلك التى كان يرعاها خلفاء آل عثمان ! ..

ولم يقف أمر هذا التصادم عند الحدود الفكرية .. فلقد كان ابن عبد الوهاب أكثر من « شيخ » ، وأعظم من « فقيه » ، وأكبر من « داعية » .. ومن ثم فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها أو مواعظ يلقيها أو مذهب فقهى يبشر به ، أو حتى حلقة من الأتباع والمريدين .. لقد أراد أن تكون

---

(٢) ابن عبد الوهاب : رسالة [هدية طيبة] ـ مطبوعة ضمن [مجموعة التوحيد] ص ١٥٦ .

(٣) المصدر السابق . رسالة [هذه مسائل الجاهلية] ص ٨٧ .

(٤) عبد الكريم الخطيب [الدعوة الوهابية] ص ١٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م

« لدعوته » « دولة » ، تضمن لها التطبيق والانتشار والاستمرار .. فالله يزع « بالسلطان » مالا يزع « بالقرآن » ؟! .. ولقد زاد هذا العزم والمسعى من احتمالات التصادم ومن حجمه مع خلفاء آل عثمان ! ..

غادر ابن عبد الوهاب « حريملا » ـ التى بدأ فيها دعوته ـ إلى « العيينة » ، فعرض مذهبه على رئيسها عثمان بن أحمد بن معمر ، الذى استجاب لدعوته ، فعقد معه عهدا أن ينصر دعوة [لا إله إلا الله] ، ويسخر قوته لاقتلاع عقائد « الشرك » ورموزه ، مقابل « أن يملكه الله نجدا وأعرابها ! »[٥] .. فتحرك جيش « العيينة » ، وفى مقدمته ابن عبد الوهاب ، لهدم القباب ، واقتلاع الأشجار وإزالة الرموز التى كان العامة يقدسونها ويتخذونها وسائط تقربهم ـ بزعمهم ـ إلى الله زلفى ! .. وكان قبر الصحابى زيد بن الخطاب [١٢هـ ٦٣٣م] ، باليمامة ، من بين القباب التى قاد ابن عبد الوهاب عملية هدمها ، بعد أن أجفل حتى جند أمير « العيينة » عن الإقدام على هدمه ! .. ولقد استفز ذلك أعراب الناحية ، فخشى عثمان بن معمر عداءهم ، فطلب إلى ابن عبد الوهاب مغادرة المنطقة خوفا على حياته .. فغادر « العيينة » إلى « الدرعية » سنة ١١٥٨هـ سنة ١٧٤٥م .

وفى « الدرعية » تحالف ابن عبد الوهاب مع أميرها محمد بن سعود [١١٧٩هـ ١٧٦٥م] .. فسادت الدعوة السلفية فيها وفى نجد وما تاخمها .. ثم أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى موسم الحج والزيارة .. وبدأ الحجاج يسمعون ويتناقلون آراءه التى تحكم « بالكفر » حتى على خليفة المسلمين العثمانى ؟! ..

---

(٥) المرجع السابق . ص ٦٤ .

وكان ابن عبد الوهاب يقود الجهاد ، فى طليعة جيش ابن سعود .. فهاجموا « كربلاء » ، بالعراق ، واستولوا على الكنوز الذهبية والفضية النفيسة لمشاهدها ومزاراتها سنة ١٢١٦هـ سنة ١٨٠١م .. ودخلوا المدينة المنورة سنة ١٢٢٠هـ ١٨٠٥م ، وأزالوا القباب والشواهد الخاصة بمزارات الصحابة فى مقابر البقيع .. وفى العام التالى ذهب ابن سعود إلى مكة ، حاجا ومستعرضا قوته ، فبايعه « شريفها » ، وطرد من كان بها من رجال الدولة العثمانية .. وهكذا تمت للوهابية ـ الدعوة والسلطة ـ السيطرة على الحرمين ونجد والحجاز ، فتصاعد تحديها « للدولة العثمانية » ، و« لفكريتها » المثقلة بالشعوذة والخرافة !.

لكن العثمانيين ، بعد أن فشلوا فى مواجهة الوهابية ، استعانوا بمحمد على باشا [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] والجيش المصرى ، الذى أسقط الدولة الوهابية وأجهز عليها عندما احتل عاصمتها « الدرعية » فى ٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٣هـ (٨ سبتمبر سنة ١٨١٨م) ، بعد سنوات طويلة من القتال .. وبعد ثلاثة أرباع القرن على ظهور دعوة ابن عبد الوهاب .. وبقيت الوهابية « دعوة » تسعى لإقامة « الدولة » ، حتى تيسر لها ذلك فى العقدين الثانى والثالث من القرن العشرين ، على يد الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٣ ـ ١٣٧٣ هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٣ م] ..

* * *

● كانت الوهابية ، على جبهة « **العقائد والشعائر الدينية** » ، حركة تجديد سلفية ، نشأت فى بيئة عربية بسيطة ، لم تعرف الفكر المركب ، لخلوها من تعقيدات الحضارة وأنماطها الفكرية المركبة ، فكانت صورة إسلامها هى صورة الإسلام العربى الأول فى عصر صدر الإسلام .. ومن هنا كانت ثورة تجديدية

ضد صورة الإسلام العثماني ، ذلك الذي أثقلته البدع والخرافات طوال العصر الذي فقدت فيه حضارتنا مقومات الإبداع وقسمات الاستقلال .. وكان « التوحيد » الإسلامي الخالص ، كما بشرت به الوهابية ، إسهاما في إعادة روح التميز والاستقلال إلى البناء الحضاري لأمتنا على جبهة « العقائد والشعائر الدينية » ..

● والوهابية ، كامتداد للفكر السلفي ، الرافض للتأثيرات الفلسفية اليونانية في حضارتنا ، قد تبنت إبداع أعلام السلفية ـ وخاصة ابداع ابن تيمية ـ في صياغة « منطق إسلامي » متميز لحضارتنا ، بدلا من « منطق أرسطو » الذي تبناه عدد من فلاسفة المسلمين ، أو تأثروا به .. فإزاء هذه القسمة من قسمات تمايزنا الحضاري ، كانت السلفية ، عند ابن تيمية ، تتويجا لجهود عربية إسلامية استقلالية بدأت ونمت .. بدأت بإبداع الإمام الشافعي ، محمد بن إدريس [١٥٠ ـ ٢٠٤هـ ٧٦٧ ـ ٨٢٠م] في « أصول الفقه » ، التي قدمها في مقابل « منطق أرسطو » ، الذي رفضه باعتباره ابنا للغة اليونان ، يستحيل أن يكون منطقا لأهل اللغة العربية ! .. ونمت هذه الجهود بإبداع المتكلمين المسلمين ـ من المعتزلة وغيرهم ـ لأصول الدين ـ علم الكلام ـ الذي رفضوا فيه وبه منطق أرسطو ، لارتباطه « بالميتافيزيقا » اليونانية الوثنية ـ التي لم تعرف الوحي ولم تعترف به ـ والمخالفة لإلهيات المسلمين والإسلام ! ..

ولقد توج ابن تيمية هذه الجهود ، التي تمت على درب التمايز والاستقلال الحضاري ، بنقده لمنطق أرسطو، الذي رآه مقيدا للفطرة الإسلامية بقوانين صناعية متكلفة ، وحائلا بقوانينه الكلية الثابتة دون الوفاء بالحاجة الإسلامية المتغيرة .. وداخلا فيما لاضرورة له ، حيث لم يشتغل به الصحابة ولا الأئمة ،

ومع ذلك فلقد توصلوا ـ كما يقول ـ إلى كل نواحى العلم ؟!.. توجت هذه الجهود بتبلور منطق الحضارة العربية الإسلامية الاستقرائى، القائم على الملاحظة والتجريب، فى مقابل منطق أرسطو، القائم على المنهج القياسى، والنابع من روح الحضارة اليونانية، التى لم تحفل بالتجربة بقدر ماركنت إلى النظر الفكرى والفلسفى[6]..

وعلى هذه الجبهة الفكرية، كانت الوهابية، كامتداد للفكر السلفى، إسهاما فى الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية.. وإن تكن بداوة بيئتها، وفقر الفكر الفلسفى عند أعلامها قد جعل إسهامها على هذه الجبهة متمثلا فى رفض التبعية الفكرية، مع العجز عن الإبداع فى بلورة البديل وتطويره !..

● وعلى « جبهة العروبة ».. كانت الوهابية إسهاما فى الجهد المبذول كى تستعيد الأمة هذه القسمة من قسمات استقلالها الحضارى.. فهى « كدعوة » و« كدولة » . قد مثلت طليعة التحديات العربية للسلطنة العثمانية المتسلطة على أغلب أقاليم الوطن العربى.. ثم هى، فى المجال الفكرى، قد سحبت ـ إسلاميا ـ الشرعية والمشروعية عن ولاية العثمانيين على العرب، عندما تبنت وأبرزت موقف أغلب فقهاء الإسلام ـ ومنهم فقهاء السلفية ـ المنحاز لضرورة توافر شرط العروبة القرشية فيمن يتولى منصب الخليفة والإمام !..

لقد مثلت الوهابية ـ بهذا الموقف الفكرى والعملى ـ فى يقظتنا الحديثة:

---

(٦) د. على سامى النشار [مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالم الإسلامى] ص ١٨٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٧٨ ـ ٣٨٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

بعدا قوميا . لم يصل بها إلى حد جعلها حركة قومية عربية ـ بالمعنى المتعارف عليه فى الأدب السياسى الحديث ـ لكنه مثل إسهاما بارزا على درب العروبة الساعية كى تنفض عن كاهلها سلطة الترك العثمانيين !..

● لكن الوهابية ، بسبب من بداوة البيئة التى نشأت بها ، قد اتخذت موقفا غير ودى من « العقلانية » ومن « التمدن » ... فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على ماتثيره بيئتها البدوية البسيطة من مشكلات ، وماتطرحه من علامات استفهام .. ومواريثها السلفية ، التى بدأت بإمام السلفية أحمد بن حنبل ، قد رفضت « عقلانية المسلمين » ضمن رفضها « لعقلانية اليونان » !.. وجاءت الوهابية ، محكومة بأوضاع بيئتها البدوية ، فرفضت « التمدن » عامة ، كجزء من رفضها ذلك « التمدن الغربى » الذى كان يتسلل إلى عالم الإسلام من تلك الثغرات التى فتحها الغرب فى جدار آل عثمان ؟!..

ولقد دفع الوهابية على هذا الدرب ، وأوغل بها فى هذا السبيل خلطها الشديد بين ماهو « دنيا » وماهو « دين » ، فلما لم « تميز » بينهما ، **حسبت أن تجديد « الدنيا » يتحقق بما يتجدد به « الدين » . فدعت إلى « السلفية الدنيوية » كما دعت إلى « السلفية الدينية » . وغفلت عن أن تجديد ثوابت الدين لابد فيه من « الاتباع » دون « الابتداع » ، بينما تجديد متغيرات الدنيا لابد فيه من « الابتداع » ، فى إطار المقاصد الدينية والأطر العامة التى نزل بها الروح الأمين على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ .. ولم تدرك الوهابية أن « الاتباع » هنا لايثمر « التجديد » ، بل يؤدى إلى « الجمود » !..**

ولقد تحدث الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] عن هذه السلبية فى الدعوة الوهابية ، رغم اتفاقه معها فى « السلفية الدينية » .

التى جعلته يدعو إلى « **فهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى** .....»[7] ... يتحدث الإمام محمد عبده عن قصور الوهابية على جبهة « العقلانية » و« التمدن » ، فيقول : « **إنهم أضيق عطنا ـ [أفقا] ـ وأحرج صدرا من المقلدين ، فهم وإن أنكروا كثيرا من البدع ، ونحوا عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه ، إلا أنهم يريدون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، بدون التفات إلى ماتقتضيه الأصول التى قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء**[8] » ..

* * *

فى هذه المواقع ، وعند هذه الحدود وقفت الوهابية على جبهة نضال أمتنا لاستعادة استقلالها الحضارى ، وبلورته ، فى عصرنا الحديث ....

لقد انتصرت « للسلفية الدينية » ... و« للعروبة » ... لكنها تخلفت عن مستويات طموحات أمتنا الحضارية على جبهة « التمدن » ، عندما استبدلت ـ على هذه الجبهة ـ «سلفية الدين» «بمستقبلية الدنيا وتمدنها» !.. فوقفت صلاحيات فكريتها فى « التمدن » عند حدود البيئة البدوية التى نشأت وتبلورت فيها ، وعجزت عن تلبية حاجات البيئات العربية الإسلامية المتحضرة ، ذات الفكر المركب والطور الحضارى المتقدم !..

لكنها كانت طليعة الدعوات المنظمة ذات التأثير ، فى تيار اليقظة الإسلامية الحديث .[9]

---

(٧) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص٣١٨ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م . (٨) المصدر السابق . جـ٣ ص ٣١٤ .

(٩) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا [تيارات الفكر الإسلامى] ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨ .

(٢)
السّنوسِيّة

تميزت نشأة إمام السنوسية محمد بن على السنوسى [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م] عن نشأة محمد بن عبد الوهاب .. فلقد ولد السنوسى بقرية « الواسطة » ، بالقرب من « مستغانم » ، بمقاطعة « وهران » الجزائرية ، فى بيئة عربية لاتغلب عليها البداوة ..

وكان طموحه إلى العلم والفروسية ملحوظا منذ النشأة المبكرة ، فمنذ الصبا كان يقسم يومه إلى قسمين ، أحدهما لطلب العلم . والثانى للفروسية والتدرب على القتال !.. وهو قد درس فى « القرويين » ، بمدينة فاس المغربية ، و « الأزهر » ، بالقاهرة .. وانخرط فى عدد من طرق التصوف .. وتلقى العلم عن عدد من شيوخ مكة والمدينة ..

وكان السنوسى مالكى المذهب فى الفقه .. وليس بين الإمام مالك بن أنس [٩٣ ـ ١٧٩هـ ٧١٢ ـ ٧٩٥م] وبين « العقلانية » مابين أحمد بن حنبل والمنهج العقلى من خصام ؟!.. وفى بيئة غير عارية من قسمات المدنية والتمدن كون السنوسى طريقته ، وشرع يبث الدعوة ويصنع الدعاة ..

● ولقد كانت سلفية السنوسية متميزة ، لذلك ، عن سلفية الوهابية .. فهى تشاركها فى الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد لتجديد الدين ، وفى رفض فكرية السلطنة العثمانية ، لما أثقل إسلامها من خرافات وزوائد وبدع .. لكن الطريقة السنوسية قد مزجت « الشريعة » بشىء من « التصوف » ، وخلطت

« البرهان » « بالإشراق » !.. فهى « بالشريعة والبرهان » تجدد الدين ، عندما تعود إلى متابعة كى تفهم عقائده وشعائره وشرائعه... وهى « بالتصوف » تستعين على تربية النفس وتقويم السلوك وصقل الملكات والسمو بالوجدان !.. صنعت ذلك المزيج مع ميل ملحوظ إلى « الشريعة والبرهان » !..

ولقد أنجزت السنوسية على هذا الدرب إنجازا عظيما ، فهى قد صححت عقائد الذين انخرطوا فيها من الأتباع والمريدين ، وكثير منهم ، وخاصة فى الصحراء الغربية ، كانت تشوب عقائدهم الإسلامية ، بل وشعائرهم عناصر وثنية وجاهلية عديدة !.. وهى قد نشرت الإسلام بين أقوام أفارقة كثيرين كانوا وثنيين ، فقطعت الطريق على التبشير الاستعمارى الذى كان يمهد ، بالمسيحية ، الأرض للنهب والاحتلال والاحتواء !.. ولقد كان لها الفضل فى صنع « الحزام الإسلامى » ، الممتد فى وسط أفريقيا ، من شرقها إلى غربها ، وإقامة سلطنات وإمارات إسلامية عدة حاربت الاستعمار الغربى وأعاقت سيطرته سنوات.. وصنعت ذلك أيضا عندما تصدت للاستعمارين الإيطالى والإنجليزى على الجبهة الشمالية والشرقية ، وعندما أقلقت السيطرة الفرنسية على بلاد الشمال الأفريقى..

وكان هذا إنجازا هاما وإسهاما بارزا استعانت السنوسية فى صنعه « بسلفيتها المجددة » ، تلك التى واجهت بها خرافة عصر الجمود وخطر المد الاستعمارى على هوية الأمة واستقلالها الحضارى ويقظتها الحديثة..

● وعلى جبهة « العروبة » ـ عروبة « الدولة » و « الفكر » و « الحضارة » ـ أسهمت السنوسية إسهاما بارزا وملحوظا.. فهى قد نشرت العربية مع نشرها الإسلام فى أصقاع جديدة.. وهى قد رفضت الاعتراف بشرعية التسلط العثمانى على حكم الأمة العربية ، عندما تبنت وأبرزت موقف فقهاء الإسلام من ضرورة

عروبة الخلافة وقرشيتها .. وفى كتاب السنوسى [الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية] يدافع عن هذا الشرط من شروط الخليفة ، ويستشهد برأى أبى الحسن الماوردى [٣٦٤ـ ٤٥٠هـ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨م] ويرفض رأى الذين يشيعونها فى غير العرب من المسلمين !..

ثم إن السنوسية السياسية قد اتخذت من الدولة العثمانية موقفا يتراوح مابين « الصمت الحذر » ، و « المراوغة » ، أو « العداء » !.. فهى قد أزعجت طلائع المد الاستعمارى الغربى على إفريقيا ، وأقلقت الاستعمار الفرنسى فى المغرب العربى ، وخاصة فى الجزائر ، حتى لقد كتب وزير الخارجية الفرنسى جابرييل هانوتو G.Hanotaux [١٨٥٣ ـ ١٩٤٤م] وهو يتحدث عن « المسألة الإسلامية » ، فعبر عن انزعاجه من « كفاح » السنوسيين ضد الأوربيين ، و « كراهيتهم للمدنية » الأوربية !.. وصرح بأن موقفهم غير الودى من الدولة العثمانية ، ومقاطعتهم لها سببها مابين هذه الدولة وبين أوربا من علاقات !.. وعبر عن مخاوفه من مقاومتهم للسيطرة الأوربية المسيحية الاستعمارية فقال : « ... **إن جراثيم الخطر لاتزال موجودة فى ثنايا الفتوح وطى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم؟!** »..... ثم يستطرد هانوتو فى الحديث عن خطر السنوسية على الاستعمار الفرنسى ونمطه الحضارى فيقول : « **لقد أسس الشيخ السنوسى . فى جهة ليست بعيدة من الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر ـ [؟!] ـ مذهبا خطيرا ، له أشياع وأنصار ... ومن مذهبهم التشدد فى القواعد الدينية .. ولقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية [العثمانية] بسبب مابينها من العلاقات وبين الدول المسيحية ـ [الاستعمارية الأوربية] ـ .. وهم يطرحون حبائل الدسائس التى أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحنا**

فى إفريقيا الجنوبية ؟! . فهناك ، فى قرانا وبلداننا ـ [كذا ؟!] ـ ترى درويشا فقيرا ، متدثرا بأرديته البيضاء ، المعلمة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لايلويه عن ذلك شىء .. وهذا الدرويش ـ الذى ينتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية ، راويا حوادث الأقطاب الأولياء من مشايخ الإسلام ـ إنما يبذر فى القلوب ، حيثما حل وأينما توجه ، بذور الحقد والضغينة علينا .. »[10] ؟! ..

وعندما ضغطت الدول الأوربية الاستعمارية على السلطان العثمانى عبد الحميد [١٢٥٨ ـ ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨م] كى يوقف النشاط السنوسى ، استجاب لهذا الضغط ـ بعد تمنع وإبطاء ـ فاستدعى المهدى السنوسى [١٢٦٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٤٤ ـ ١٩٠٢م] ليقيم فى الآستانة ، فى « قفص ذهبى » ! كالذى احتبس فيه ذلك السلطان جمال الدين الأفغانى ، حول ذات التاريخ ؟! .. ولكن المهدى السنوسى تخلص من هذا الفخ ، متلطفا .. بل ونقل مقره بعيدا فى الصحراء الليبية ، فغادر « جغبوب » إلى « الكفرة » ، فلما زاد الخطر واقترب ، انتقل من « الكفرة » إلى « قرو » ، بالسودان الأوسط ؟! ..

ذلك أن السنوسية كانت تدرك أن الضعف العثمانى قد حول الدولة العثمانية إلى جدار ملىء بالثغرات التى يتسلل من خلالها نفوذ الغرب الاستعمارى كى يلتهم ديار العروبة والإسلام .. حتى لقد غدا « الترك ـ كما يقول أحمد الشريف السنوسى [١٢٨٤ ـ ١٣٥١هـ ١٨٦٧ ـ ١٩٣٣م] ـ : مقدمة النصارى ـ [أى المستعمرين الأوربيين] ـ مادخلوا محلا إلا ودخله النصارى ! » .. وحتى

---

(١٠) [الإسلام والرد على منتقديه] ص ١٨ ، ١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

ليقول المهدى السنوسى [١٢٦٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٤٤ ـ ١٩٠٢م] : « الترك والنصارى : إنى أقاتلهم معا ! ».

فالسنوسيون ، بموقفهم مع العربية ، ومع الإسلام العربى ، وبعدائهم لأعدائها ، أوربيين كان هؤلاء الأعداء أو أتراكا عثمانيين ... وأيضا ، بما أعادوا وبعثوا من فروسية عربية فى الخلق والقتال ، وبما انحازوا إليه من ضرورة عروبة الخلافة وقرشيتها ، كانوا أصحاب إسهام عظيم على هذه الجبهة من جبهات الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الاسلامية ..

● وإزاء قسمة « التمدن » ، أبدعت السنوسية نموذجا متميزا يجتذب الأنظار ويدعو البصائر إلى التأمل العميق .. فالسنوسى كان صاحب نظر فى العلوم الطبيعية ، واقتناء لأدواتها ، إلى جانب تبحره فى علوم الدين واجتهاده فيها !.. وأمام الخطر الاستعمارى الشامل والمحدق والمهدد لكيان الأمة ، أدرك الرجل أن لابد من « المرابطة » ، بما عناه هذا النظام فى تاريخ الإسلام من تنظيم لطاقات الأمة وحشد لها فى وحدات مقاومة متراصة تتصدى ، « بالبناء وبالقتال » ، لخطر الأعداء !.. فكانت فكرة « الزاوية » السنوسية ، كمؤسسة متكاملة لصنع الرجال ، دينيا ودنيويا ، وتنمية المجتمع ، ومجاهدة الأعداء ، ونشر العروبة والإسلام !.. كانت « الرباط » الإسلامى الحديث ، الذى يبعث ويجدد روح « الرباط » و« المرابطة » الإسلامية الأولى ، تلك التى قال عنها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ! »[١١] ... والتى قامت عليها وباسمها دولة جددت الإسلام بالمغرب حينا من الدهر ، هى دولة « المرابطين » [٤٤٨ ـ ٥٤١هـ ١٠٥٦ ـ ١١٤٦م] ...

(١١) رواه : البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة والدارمى وابن حنبل .

كانت « الزاوية » السنوسية هى : مؤسسة « الحكومة » ـ [الطريقة] ـ .. ومزرعة الدولة .. ونموذج المجتمع الجديد الموعود .. فغير المسجد ، تجد فيها : منزلا لقائدها ـ [المقدم] ـ وللوكيل ، وللشيخ .. وفيها بيوت للضيوف وعابرى السبيل ، وللفقراء الذين لا مأوى لهم ، وفيها مساكن للخدم ، ومخازن للمؤن واصطبل ، ومتجر ، وفرن ، وسوق ... وحول هذه المبانى « العامة » توجد المساكن الخاصة بالقبائل التى تقوم « الزاوية » فى منطقتهم ، لتطويرهم وقيادتهم ...

و « للزاوية » أرض زراعية خاصة بها ، وآبار جوفية ، وصهاريج لحفظ المياه .. وأرضها وحدائقها تزرع جماعيا ، تعمل فيها القبائل ، بلا أجر ، يوم الخميس من كل أسبوع ؟! .. كما تتدرب فيها يوم الجمعة من كل أسبوع على الفروسية والقتال ! .. ومحصول أرض الزاوية ينفق على احتياجات فقرائها ، وضيوفها ، غذاء وكساء وتعليما وعلاجا وزواجا ، ومابقى يذهب لمقر « الطريقة » الرئيسى ..

و « مقدم » الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة ، وقائد قبائلها فى الجهاد ! .. و « الوكيل » هو المشرف على الزراعة وشئون الإدارة والاقتصاد .. أما « الشيخ » فإنه يتولى التعليم وشئون الزواج .. ومن هؤلاء الثلاثة ومن رؤساء القبائل المحيطة « بالزاوية » يتكون مجلس إدارتها ..

تلك هى « الزاوية » السنوسية : أداة التنمية المتميزة ، التى صاغتها البيئة ، والتى جعل منها الخطر الاستعمارى قلعة للذب عن العروبة والإسلام والجهاد فى سبيل الله ! .. ولقد وصفها السنوسى فقال : « **إن الأرض تبتهج من حولها بأنواع الأشجار ، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار ، وتنتشر فيها العمارة ، وتتسع**

الإدارة .. والعاملون فيها ، بالزراعة والحرف ، هم السابقون عند الله للعاكفين على الأوراد والأوراق والمسابح !»..

لقد صاغت بيئة « الزاوية » ، وحدد الخطر المحدق بأهلها الصورة والحدود التى جاء عليها هذا النموذج السنوسى فى « التمدن » ... وهو وإن لم يكن النموذج الأصلح لبيئات أكثر تطورا ، إلا أنه قد كان ، فى واقعه وظروفه ، إنجازا عبقريا على درب التمايز والاستقلال الحضارى .. كما كان أداة فاعلة من أدوات اليقظة الإسلامية التى واجهت التخلف الموروث ، والوافد الغربى ، استعمارا .. وفكرا جاء فى ركاب الاستعمار !..[١٢]

(١٢) انظر عن السنوسية : د. أحمد صدقى الدجانى [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م . وشكيب أرسلان [حاضر العالم الإسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م و د. محمد عمارة [العرب والتحدى] ص ١٦١ـ١٧٥ . و [تيارات الفكر الإسلامى] ص ٢٦١ـ٢٧٠ .

(٣)
المَهْـدِيَّـة

فى جزيرة « لبب » ، على بعد خمسة عشر كيلومترا من « دنقلة » ، بالسودان ، ولد مؤسس « المهدية » ــ « المهدى » ــ محمد أحمد [١٢٦٠ ــ ١٣٠٢هـ ١٨٤٤ ــ ١٨٨٥م] فى أسرة فقيرة . قعدت بها إمكانياتها الفقيرة عن أن ترسله إلى الأزهر الشريف كى يتعلم فيه ، فاحترف النجارة ، لكنه حصّل علم « الفقهاء الفقراء » المحليين !.. ومارس التعليم ... ثم اتجه إلى التصوف ، فزهد ، وتنسك ، حتى ذاعت شهرته ، وعلا نجمه ، وأصبح ، فى « الطريقة السمانية » ، خليفة له « راية » و« مريدون » !.. ثم أصبح شيخا لهذه الطريقة سنة ١٢٩٧هـ سنة ١٨٨٠م ..

وكان لمحمد أحمد طموح إلى الإصلاح العام للمجتمع ، وإلى بناء مجتمع على غرار مجتمع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى صدر الإسلام ... ولقد استعان على ذلك الإصلاح بالفقهاء والحكام ، لكنهم خذلوه ، فاتجه إلى عامة الناس ؟!..

وفى الأول من شعبان سنة ١٢٩٨هـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١م أعلن محمد أحمد على الناس أنه « المهدى » ، وأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد جاءه فى الرؤيا ، وكلفه « بالمهدية » .. ودعا الناس إلى الإيمان به « مهديا » ، وإلى الهجرة إليه ، والجهاد معه لإقامة الدين ، وتحرير البلاد من الأتراك

والأجانب ، وإنقاذ ديار الإسلام قاطبة « من غانة إلى فرغانة »[١٣] ..

* * *

كانت مهمة التجديد واليقظة والتحرير بالسودان أكثر صعوبة منها فى غيره من البلاد ... فوحدة الشعب لم تتبلور بعد ، والتفتت الإدارى والتمزق القبلى يثقلان الخطو نحو بلوغها .. والفقهاء قد تحولوا إلى أتباع للحكام ، يبررون مظالمهم ، ويحكمون قبضتهم على العقول والقلوب .. والمتصوفة قد استقطبوا عامة الناس إلى « أقطابهم » ! واقتسموهم فى « طرقهم » ! ، وأشاعوا فى حياتهم الخرافة التى قتلت فيهم الطموح وأماتت منهم الطاقات وعطلت لهم العقول ؟!..

وأمام هذه المهمة الصعبة وقف محمد أحمد .... **فبلغت به المعاناة حد تمثل الأسطورة ـ « المهدية » ـ رؤية منام ، بل ويقظة ! .. وغدت هذه الأسطورة البوتقة الأفعل فى صهر الأمة وتوحيد الجماعة واستنفارها للجهاد خلف مهديها للتجديد والتحرير والإصلاح ! ..**

* * *

● ولقد واكبت المهدية صعود نجم « الثورة العرابية » ضد الخديوى توفيق [١٢٦٨ ـ ١٣٠٩هـ ١٨٥٢ ـ ١٨٩٢م] والتدخل الأوربى الاستعمارى فى

(١٣) « غانة » : مدينة عربية إسلامية ، فى أقصى جنوب المغرب العربى .. و« فرغانة » : مدينة إسلامية فى بلاد ما وراء النهر ، متاخمة لبلاد التركستان ـ التى تمثل الآن إحدى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى ـ ... والعبارة تعنى : من مغرب عالم الإسلام إلى مشرقه ! .. انظر : صفى الدين البغدادى [مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع] تحقيق : على البيجاوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م

مصر.. وكان هذا التدخل ، الذى تسلل إلى بلادنا من الثغرات التى صنعها عجز الأتراك العثمانيين ، قد جعل السودانيين ، بقيادة « المهدى » ، يرون فى هذا الثالوث ، المكون من : الأوربيين.... والأتراك... والحكومة الخديوية : عدوا واحدا وبلاء متحدا..!

فبعد معاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ سنة ١٨٤٠م ، التى قننت اختراق تجربة مصر المستقلة من قبل أوربا والعثمانيين ، زاد النفوذ الأجنبى فى مصر ، وخاصة زمن حكم الخديوى سعيد [١٢٧٠ - ١٢٧٩هـ ١٨٥٤ - ١٨٦٣م] والخديوى إسماعيل [١٢٧٩ - ١٢٩٦هـ ١٨٦٣ - ١٨٧٩م] .. وبصورة أكبر عندما تولى الحكم الخديوى توفيق [١٢٩٦هـ ١٨٧٩م]... وانعكس ذلك على السودان ، الذى كانت إدارته للحكومة الخديوية المصرية ، حتى بلغ الأمر حد تعيين العديد من الأوربيين حكاما على أقاليم السودان ، ليحكموه باسم الخديوى !.. ففى « بحر الغزال » حكم الإيطالى « جيسى » ، ثم خلفه الإنجليزى « لبتون بك » !.. وفى « دارفور » حكم النمساوى « سلاطين » !.. وفى « كوبى » حكم « أميليانى » !.. وفى « الفاشر » حكم « مسيداليا » !.. وفى « لادو » حكم الألمانى « منتزر » !.. وفى « فاشودة » حكم النمساوى « ارنست ماترو » !...

وكان السودانيون يسمون الحكم الخديوى بالحكم التركى ، ويصفون حكامهم بالأتراك !.. وزادت مبررات هذا الوصف عندما انحاز الخديوى توفيق إلى الغرب والأتراك ضد الثورة العرابية !..

وكانت المظالم الاجتماعية لهذا الحكم « التركى » قد بلغت فى السودان وبأهله حد المأساة !...

وأمام هذا « العدو » كان رد فعل « المهدية » المعادى للأتراك .. فهم « كفرة » ، لابد من جهادهم ، وهم أعداء ، لابد من « مغايرتهم » ، حتى فى الزى والعادات والتقاليد ، ولاسبيل للتعامل معهم إلا السيف !..

يقول « المهدى » لأتباعه ، فى أحاديثه ومنشوراته ، معبرا عن ماتراه : « قسمة عربية ، معادية للسيطرة التركية »... **يقول : « اتركوا كل مايؤدى إلى التشبه بالترك الكفرة ، كما قال الله تعالى فى الحديث القدسى : [قل لعبادى ، المتوجهين إلىّ ، لايدخلون مداخل أعدائى ، ولايلبسون ملابس أعدائى ، فيكونون هم أعدائى ، كما هم أعدائى ..] .. فكل الذى يكون من علاماتهم ولباساتهم فاتركوه[١٤] !.**

وهو يحدثهم عن أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمره بذلك ، وحرضه عليه ، فعداء الترك واحد من « المهام المهدية » ، فيقول لأتباعه : « لقد حرضنى سيد الوجود ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قتال الترك وجهادهم .. لقد أمرنا النبى أمرا صريحا بقتال الترك ، وأخبرنا بأنهم كفار ، لمخالفتهم أمر الرسول باتباعنا ، ولإرادتهم إطفاء نور الله تعالى الذى أراد به إظهار عدله .. ولقد أعلمنى الرسول أن الترك لا تطهرهم المواعظ ، بل لايطهرهم إلا السيف ، إلا من تداركه الله بلطفه !..»[١٥].

وهو يذكرهم بظلم الترك وعسفهم فيقول : « إن الترك قد وضعوا الجزية فى رقابكم ، مع سائر المسلمين .. وكانوا يسحبون رجالكم ، ويسجنونهم فى القيود ، ويأسرون نساءكم وأولادكم ، ويقتلون النفس التى حرم الله بغير

---

(١٤) [منشورات المهدية] ص ١٦٦ . تحقيق : د. محمد ابراهيم أبو سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م.

(١٥) المصدر السابق . ص ٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٣٢ .

حقها ، وكل ذلك لأجل الجزية التى لم يأمر الله بها ولا رسوله .. فلم يرحموا صغيركم ولم يوقروا كبيركم !..» (١٦) .

فشحن قومه بشحنة قومية ، عندما استنفر فيهم روح « المغايرة » للأتراك .. وكان هذا إسهاما « للمهدية » على درب التمايز القومى عن الأتراك العثمانيين ..

* * *

● وأمام « الفكرية » التى بلغت بها « طرق » التصوف والمتصوفة قمة الخرافة والشعوذة ، كانت دعوة « المهدية » إلى سلفية تحرر العقل من هذه القيود والأغلال التى عطلت طاقات الفكر الإسلامى ، وتكشف عن هذا الفكر الركام الذى أفقده معالمه الحقيقية .. فدعت « المهدية » إلى العودة للمنابع ، وإسقاط التفسيرات التى جاءت بنت زمانها وظروفها ، بعد أن مر الزمان وتغيرت الظروف .. فالمتقدمون رجال « فكروا » لعصورهم ، ونحن رجال « نفكر » ، فى إطار الأصول ، لعصرنا ... ولقد حدث « المهدى » أنصاره ، وحاور مجادليه فقال لهم : « لاتعرضوا لى بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين ، فلكل وقت ومقام حال ، ولكل زمان وأوان رجال .. ولقد كانت الآيات تنسخ ، فى زمن النبى ، على حسب مصالح الخلق ، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح .. نحن نقفوا آثار من سلف من المهتدين السالفين ، على نهج محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ... فاتبعوا ، أحبابى ، كلام الله فى القرآن ، ولاتتبعوا ترهات فايت الزمان ! . وقد بايعتمونى على أن لاتشركوا بالله شيئا !..» (١٧) .

---

(١٦) المصدر السابق . ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٧) المصدر السابق . ص ٢٨٨ ، ٣١ .

لقد عادت « المهدية » ، على الجبهة الفكرية ، لتستلهم المنابع الأولى .. فالمهدى : خليفة الرسول ، وخلفاؤه هم خلفاء الراشدين الأربعة ... وهم قد تخطوا بذلك تجارب الأمة المأساوية التى مزقت الشمل وأفقدت حضارتنا الاستقلال ... وعلى الجبهة الفكرية ألغت « المهدية » تراث المذاهب الفقهية ـ أو حولته إلى « تراث تاريخى » ـ و دوّن « المهدى » للشعب أحكاما فقهية لم تلتزم بمذهب فقهى واحد ـ وإن وضح فيها أثر المذهب الشافعى أكثر من غيره ـ ... كما ألغت « الطرق الصوفية » وتراثها الخرافى ... وعادت تستلهم الكتاب والسنة ، وتعلى من قدر « المصلحة » فى تفسيرها لنصوصها المتعلقة بأمور الدنيا ، وتسلك سبيل الاجتهاد إلى هذه السلفية المجددة ! ..

وكان هذا إسهاما لاينكر على درب الاستقلال الحضارى للأمة ، ويقظتها الإسلامية الحديثة ..

* * *

● وعلى جبهة « التمدن » ، وجدت « المهدية » فى « **جماعية الفكر الاجتماعى للإسلام** » : الفكر النظرى الذى يلبى احتياجات المجتمع السودانى ، القبلى والبسط ، والذى لم تمايز فيه بعد الطبقات تمايزا جادا وراسخا وعريقا .. كما وجدت فيها العلاج الثورى الناجع للمظالم الاجتماعية التى رزح الناس تحت نيرها واكتووا بنارها قرونا تطاول عليها الأمد ! ..

لقد انحاز الحكام وأغلب الفقهاء إلى صف أعداء « المهدية » ، ومعهم المنتفعون بالظلم الاجتماعى الذى ساد قبل الثورة ... أما أتباع « المهدى » وأنصاره فإن أغلبيتهم الساحقة قد تألفت من العامة والفقراء والأعراب ، الذين حرموا من الثروة ، ومن العلم معا ! .. و « **المهدى** » **قد استنفر جماهيره إلى الجهاد**

بالجنة الموعودة ، وهيأ لهم سبل العيش وأدوات الجهاد بالجماعية الإسلامية التى أقامها لهم فى الثروات والأموال والاقتصاد ..

وعندما كان خصوم « المهدية » يعيبون عليها فقر أتباعها فى المال والتعليم ، كان « المهدى » يفاخر ويفخر على هؤلاء الخصوم بهذا الفقر ؟! فيراه شرفا يسلكه هو وأتباعه فى سلك السلف الصالح .. فيقول : « إن أتباع الرسل كانوا هم الضعفاء والجهلاء .. أما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم إلا بعد أن خربوا ديارهم وقتلوا أشرافهم وملكوهم بالقهر ، كما قال تعالى ، حاكيا عن قوم نوح : [وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى][18] .. وقال تعالى : [وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين][19] .. ولقد قال أهل الغنى والطغيان عن أتباع نبينا : إنهم الأجلاف الأعراب ، عراة الأجساد ، جياع الأكباد .... فلم ينفعهم غناهم ، بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة .. وجعلهم الله غنيمة لضعفاء الأعراب الذين كانوا يستهزئون بهم .. وكذلك نرجو الله أن يكون الأغنياء ، ومن وراءهم ، غنيمة للبقارة والجهلاء والأعراب !.. »[20] .

ويرد « المهدى » على خصومه ، من الأثرياء ، والفقهاء المدافعين عن الأثرياء ، بحجة أنه قد كان فى صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كانوا أغنياء يملكون أسباب الثروة ، يرد « المهدى » على خصومه هؤلاء ،

---

(18) هود : 27 .

(19) سبأ : 34 ، 35 .

(20) [منشورات المهدية] ص 313 ، 314 .

ويناقش شبهتهم ، فيقول : « ... إن الصحابة الذين باشروا الأسباب[21] ، لم يدخلوا فيها إلا بعد الخروج عن كل شيء ، حتى تمكن نور الإيمان فى قلوبهم ... ومن كان عنده منهم أسباب فهى إنما كانت فى أيديهم ، لا فى قلوبهم ... **وكانوا عليها كالوكلاء ، ينفقونها حسب أوامر موكلهم ومولاهم ، ولذا قال لهم ربهم : [وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه]**[22] ولم يقل : وأنفقوا مما ملكتموه !.. وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : آخر أصحابى دخولا الجنة : عبد الرحمن بن عوف ، لمكان غناه .. وهو أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى ؟!..»[23].

وانطلاقا من هذا الفكر الإسلامى المنحاز إلى الجماعية ، واستجابة لضرورات المجتمع السودانى وطابعه ، أقام « المهدى » التجربة الاجتماعية المتميزة عن التطبيقات العثمانية والمملوكية ، وعن تطبيقات الحضارة الأوربية فى الأموال والاقتصاد ... **فى البيعة له « بالمهدية » ، كان المبايعون يعطونه أنفسهم وأموالهم .. وهو هنا الرمز والتجسيد للجماعة و« للدولة » ! ... وفى الأرض الزراعية ، وقف بالملكية عند الحد الذى يستطيع الإنسان المالك أن يزرعه .. ومازاد على ذلك « يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج » ... أما الدكاكين ، والوكالات التجارية ، والقيصريات ، والمعاصر والطواحين ، وموانى السفن ـ [المشارع] ـ والحدائق ... الخ .. الخ .. فلقد اعتبرت ، كالفيء ، مصالح عامة ، فهى للمجاهدين والمساكين !..**

---

(21) الأسباب : تقارب ما تسميه اليوم « رأس المال » الذى يستثمر .

(22) الحديد : ٧ .

(23) [منشورات المهدية] ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٢٦٧ .

وفى هذا التنظيم الاجتماعى الجماعى ، تقررت للإنسان المقادير الكافلة سد ماله من احتياجات ضرورية ، دون مازاد عن الضرورات .. « فمن انضم للجهاد فله ضرورته ، والزائد على الضرورة إنما هو على العبد ، لا له ! .. ومصالح الخلق كلها متعلقة ببيت المال ! .. » كما يقول « المهدى »[٢٤] ..

هكذا أبدعت « المهدية » فى « التمدن » ، وفى ميدانه الاجتماعى خاصة ، أمرا متميزا ، استلهمت فيه جماعية الإسلام ، واستجابت به لضرورات المجتمع ومصالحه ..

أما فى الميدان السياسى « للتمدن » فلقد كانت « المهدية » إبداعا يستلهم الأسطورة التراثية التى جعلت من « المهدى » ذلك البطل الأسطورى الذى تعده السماء لينتشل المجتمع من أزمته ويخلصه من مأزقه ، فيملأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت بالجور والفساد ![٢٥] ..

* * *

هذا عن دعوات التجديد الدينى السلفية : « الوهابية » .. و « السنوسية » .. و « المهدية » .. ومدى إسهام تجديدها السلفى فى الاقتراب من مطلب أمتنا فى « الاستقلال الحضارى » و « اليقظة الإسلامية » ..

وإذا كانت هذه الدعوات وحركاتها قد منعتها « بداوة البيئة » من أن تولى « التمدن » ما يجعله النموذج الصالح للتعميم ، والوافى باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية المسلحة بحضارتها الحديثة .. فإن هناك « فصيلة » أخرى

---

(٢٤) المصدر السابق . ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ١٦٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ـ ٢٧١ .

(٢٥) لمزيد من التفاصيل ، انظر كتابنا [تيارات الفكر الإسلامى] ص ٢٧١ ـ ٢٨٤ .

من فضائل التجديد الديني قد برئت دعوتها من هذه الثغرات والسلبيات ، وهى مدرسة [الجامعة الإسلامية] ، التى تبلورت من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] وعبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م] وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] .... فتيار [الجامعة الإسلامية] هذا قد استفاد من تجارب أمتنا فى هذا الميدان .. ولذلك وجدنا عنده :

(أ) السلفية فى الدين ، تجدده .. والعقلانية أداة فى هذا التجديد ..

(ب) والعروبة فى القومية .. على أسس حضارية ، غير عرقية ..

(جـ) والموازنة بين الخصوصية الحضارية ، وبين الاستفادة من الحضارات الأخرى ..

(د) والنظرة المستقبلية المستنيرة فى « التمدن » ..

(هـ) والموازنة بين « الخصوصية القومية » للعرب ، وبين « الرابطة الإسلامية » الجامعة لقوميات أمة الإسلام ..

فى فكر أعلام هذا التيار ـ الذى لم تقم بعد التجربة التى تجسده ـ تكتمل العناصر الأولية والضرورية لمشروع الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية !..

(٤)

تيّار الجَامِعة الإسلاميّة

أعلام هذا التيار :

أعلام تيار [الجامعة الإسلامية] كثيرون ، وانتشارهم ، بالذات أو بالفكر ، قد غطى أنحاء الوطن العربى والعالم الإسلامى ، وقد يتميز واحد منهم بقسمة فكرية عن آخر ، وقد تدعو البيئة أو الأولويات أو طبيعة التحديات إلى أن يكون تركيز بعضهم على قضايا بعينها دون القضايا الأخرى ، لكنهم ، فى مجموعهم ، قد جمعتهم القسمات العامة التى ميزت هذا التيار التجديدى عن غيره من التيارات التى قادت حركة اليقظة الإسلامية الحديثة ..

● وأول أعلام هذا التيار هو جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٣م] .. عربى النسب ـ وإن ولد ونشأ فى بلاد الأفغان ـ فنسبه يرجع إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما .. وعربى العقل والفكر منذ نشأته الأولى ، فقبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد درس : علوم العربية ، والتاريخ ، وعلوم الشريعة ، من تفسير وحديث وفقه وأصول ، وكلام وتصوف ، والعلوم العقلية ، من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية تهذيبية ، وحكمة نظرية ، طبيعية وإلهية ، والعلوم الرياضية ، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ، ونظريات الطب والتشريح !..

وهو سنى المذهب ، فى نشأته ، توثقت علاقاته الشخصية والفكرية

بعلماء الشيعة وفكرها ومراكزها ، بالعراق ، منذ صدر شبابه .. فلما تبلورت دعوته للتجديد واليقظة كان عقله قد وصل به إلى حيث أصبح فوق المذاهب التى فرقت المسلمين ، لأن سلفيته فى الدين تسبق المذاهب ، وعقلانيته ترفض البقاء فى أسر خلافاتها التى تجاوزها العصر ، واستنارته تراها عقبة أمام مايريد تحقيقه لأمته من نهضة وانطلاق ..

وكان عداؤه للاستعمار مبكرا .. ولم يكن بالعداء الفكرى والنظرى فقط ، فلقد انخرط منذ شبابه فى التيار الوطنى الأفغانى الذى قاده الأمير محمد أعظم خان [١٢٨١ ـ ١٢٨٤هـ ١٨٦٤ ـ ١٨٦٧م] لمناوأة النفوذ الانجليزى الطامع فى أفغانستان .. ووصل جمال الدين فى هذا النشاط الوطنى إلى منصب « الوزير الأول » فى البلاد ، وقاد معارك حربية ضد المتعاونين مع الانجليز ، الذين تزعمهم الأمير شير على [١٢٤٠ ـ ١٢٩٦هـ ١٨٢٥ ـ ١٨٧٩م] .. فلما انتصر خصومه ، اضطر للسفر للهند [سنة ١٢٨٥هـ سنة ١٨٦٨م] .. فلما ضيق عليه الانجليز فيها الخناق ، بدأ رحلته إلى الوطن العربى ، فوصل إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ سنة ١٨٦٩م .. ثم الآستانة .. ثم رجع إلى مصر فأقام بها قرابة التسع سنوات [١٢٨٨ ـ ١٢٩٦هـ ١٨٧١ ـ ١٨٧٩م] كانت أخصب فترات حياته الفكرية والنضالية ، وفيها تبلور تياره ومذهبه فى اليقظة والثورة والتجديد ..

ففيها أملى على تلاميذه الأمالى والتعليقات التى شرح بها كتبا قديمة فى الفلسفة الإسلامية .. وكان عهد مصر قد انقطع بهذا اللون من ألوان الفكر منذ أن زالت الدولة الفاطمية ، وأحلت « دول العسكر » تكايا الصوفية وخوانقها والمدارس الأشعرية محل [دار الحكمة] و [مجالس الدعاة] ومنهاج [الأزهر] العقلانى ! ..

وفيها أنشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية ، وكانت من قبله حكومية فى الأساس ، فكانت صحف [مصر] التى رأسها أديب اسحق [١٢٧٢ ـ ١٣٠٢هـ ١٨٥٦ ـ ١٨٨٥م] و[التجارة] التى رأسها سليم نقاش [١٣٠١هـ ١٨٨٤م] و[مرآة الشرق] التى أسسها إبراهيم اللقانى ، طليعة الصحافة الشعبية فى البلاد .. وكان الأفغانى يكتب فيها بتوقيع : « مزهر بن وضاح » !.. كما كان يملى على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم ، حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشباب ، جددت أساليب العربية فى الإنشاء ، وأدخلت فيها فن « المقال » الحديث !..

وفيها تبلور من حوله التيار الشعبى فى التنوير .. ومن قبله كان جهاز الدولة المصرية هو المصدر الوحيد للتنوير .. وفيها كانت التربة الخصبة التى استقبلت بذور أفكاره أطيب استقبال ، حيث نبتت ونمت وأينعت ، وآتت من الثمار ما لم تؤت فى بلد آخر حل فيه هذا الفيلسوف العظيم ..

وفيها أنشأ [الحزب الوطنى الحر] الذى جمع تلاميذه وأنصار دعوته ، وهو الحزب الذى قاد الثورة العرابية . وبعد هزيمتها هيأ نفر من بنيه لنشأة [الحزب الوطنى] الذى قاده مصطفى كامل [١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م] ونفر آخر منهم انضم إلى جمعية [العروة الوثقى] السرية ، التى قادها الأفغانى ، وأصدر مجلتها من باريس ..

ولما نفى جمال الدين من مصر ، بإيعاز من القناصل الأوربيين للخديوى توفيق [١٢٩٦هـ ١٨٧٩م] ذهب إلى الهند .. وهناك منع من الحركة حتى تمت هزيمة العرابيين .. فسافر إلى باريس [١٣٠٠هـ ١٨٨٣م] ، ثم إلى لندن .. ثم عاد إلى باريس ، فأصدر مجلة [العروة الوثقى] ومعه الشيخ محمد

عبده .. فلما توقفت ذهب إلى شبه الجزيرة العربية [١٣٠٣- ١٨٨٦م] ، فايران [١٣٠٤هـ ١٨٨٧م] .. فموسكو .. فميونيخ .. فايران ، ثانية [١٣٠٧هـ ١٨٩٠م] .. فالعراق [١٣٠٨هـ ١٨٩١م] .. فلندن ..

وفى كل هذه المواطن لم يعرف الرجل لنفسه حرفة سوى حرفة الثورة على البالى ، والدعوة إلى اليقظة والتجديد ، ولم يتخذ لنفسه أسرة سوى الأنصار والتلاميذ الذين أعدهم ودفع بهم فى الصراع ضد الزحف الاستعمارى الغربى ، الذى كان يحث الخطا لالتهام بلاد العرب وأقطار الإسلام .. وظل ذلك شأنه حتى نجح السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨م] فى استقدامه إلى الآستانة [١٣١٠هـ ١٨٩٢م] ، وهناك أحاطه بالعيون والجواسيس ، فعاش فى « قفص السلطان الذهبى » ! حتى فاضت روحه إلى بارئها [١٣١٤هـ ١٨٩٧م] ..[٢٦]

● وثانى أعلام هذا التيار : الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] ، الذى تتلمذ على الأفغانى ، ثم فاقه فى التركيز على الإصلاح الدينى ، وإن لم يبلغ شأو أستاذه فى الفكر السياسى .. وهو فلاح مصرى ، فقير فى المال ، بلغ بعقله وفكره إلى مكان هابته فيه الملوك ، فقال عنه خصمه الخديوى عباس حلمى الثانى [١٢٩١ - ١٣٦٣هـ ١٨٧٤ - ١٩٤٢م] : « إنه يدخل علىّ كفرعون ؟! » .. وداعبه أستاذه الأفغانى متسائلا : « قل لى : ابن أى ملك من الملوك أنت ؟! » ..

دخل الأزهر صغيرا ، فصده عن علومه جمود شيوخه وعقم وسائل

---

(٢٦) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م . وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩ .

التعليم فيه .. ثم أعانه نهج الصوفية المتنسكين على مواصلة الدراسة .. حتى كان لقاؤه بالأفغانى [١٢٨٨هـ ١٨٧١م] فحدث له التحول الكبير .. فمن التصوف النسكى تحول إلى التصوف الفلسفى .. ومن أفق طلاب الأزهر المحدود انطلق إلى حيث استشرف الآفاق التى كان يستشرفها أستاذه .. وفى صحبة الأفغانى ، بمصر ، كان أبرز مريديه .. ثم أصبح بعد نفيه « روح الدعوة » إلى التجديد .. وأسهم ، من موقع الاعتدال ، فى الثورة العرابية .. ثم نفى فيمن نفى من قادتها ، فعاش زمنا بباريس ، يحرر [العروة الوثقى] ، وينوب عن الأفغانى فى رحلات سرية لشئون الجمعية التنظيمية .. ثم أقام ببيروت .. فلما سمح له بالعودة إلى مصر ، هجر العمل السياسى ، وركز على محاولة إصلاح المؤسسات الإسلامية : الأزهر ، والأوقاف ، والقضاء الشرعى ، مع التركيز على التجديد الدينى بتحرير العقل المسلم من أسر التقليد ، وتجديد اللغة العربية وتطويرها .. ولقد أصاب الكثير من النجاح فى العديد من الميادين .. ولكن صدامه مع الخديوى عباس حلمى أعاق الكثير من مشروعاته الإصلاحية ، كما أن جمود أغلب شيوخ الأزهر قد منع جهوده الإصلاحية من بلوغ ما أراد لها فى إصلاح الأزهر ، حتى لقد مات كمدا بسبب هذا الإخفاق [١٣٢٣هـ ١٩٠٥م][٢٧] !!..

● وفى المشرق العربى كان عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م] من أبرز من مثلت أفكاره القسمات الفكرية لهذا التيار .. وهى الأفكار التى خلفها لنا فى كتابيه [أم القرى] و [طبائع الاستبداد] ..

ولقد ولد الكواكبى فى حلب ، لأسرة كانت فيها نقابة الأشراف قبل أن

(٢٧) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة . جـ ١ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

يغتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادى [١٢٦٦ ـ ١٣٢٧هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٩م] ..

وفى [١٢٩٥هـ ١٨٧٨م] أصدر الكواكبى صحيفة [الشهباء] ، أول صحيفة عربية تصدر فى ولاية حلب .. فلم يمهلها العثمانيون أكثر من خمسة عشر عددا .. فأصدر ، فى العام التالى ، جريدة [الاعتدال] .. ولقد أوصله نضاله إلى هجران الوظائف ، وإفلاس التجارة ، وتعريض حياته للخطر .. ثم قاده إلى السجن [١٣٠٣هـ ١٨٨٦م] ، فلما اضطر العثمانيون إلى الإفراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية ، أطلقوا سراحه ، ثم عادوا لإلقاء القبض عليه ، ولفقوا له الاتهام بالاتصال بدولة أجنبية ، وحكموا بإعدامه !.. ولكن الجماهير عاودت ضغطها ، فأجبرت العثمانيين على إعادة محاكمته خارج الولاية ، فعرضت القضية على محكمة بيروت ، التى حكمت ببراءته !..

وفى تلك الأثناء كان الكواكبى قد أنشأ [جمعية أم القرى] ، وهى الجمعية التى عقدت مؤتمرها السرى بمكة ، والتى أصبحت مداولات مؤتمرها هذا أساس كتابه [أم القرى] ، وفى هذا المؤتمر حضر ممثلون للبلاد العربية والإسلامية وللجاليات الإسلامية التى تعيش خارج العالم الإسلامى ..

ولما أضحت حياة الكواكبى مهددة فى حلب ، قرر الهجرة منها إلى مصر ، فوصل إليها سرا [١٣١٦هـ ١٨٩٩م] .. وفى مصر أفاد من تناقضات كانت بين حكومتها والدولة العثمانية يومئذ ، فنشر كتابيه ، فصولا فى الصحف ، ثم جمع الفصول فصدرت فى الكتابين .. ومنها قام برحلة إلى بلاد المشرق العربى ، والمناطق العربية والمسلمة فى إفريقيا ..

وبعد نحو أربع سنوات فاضت روحه إلى بارئها ، بمؤامرة دس فيها السم

له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد ، فكان استشهاده [١٣٢٠هـ ١٩٠٢م] ..[٢٨]

● أما فى المغرب العربى ، فإن الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠م] يعد أبرز ممثلى هذا التيار .. وهو من مواليد قسنطينة ، بالجزائر ، وفيها تعلم علوم العربية والإسلام ، ومن شيوخه فى تلك المرحلة : الشيخ حمدان الونيسى ، الذى أخذ عليه عهدا أن يقاطع الحكومة الاستعمارية ، فالتزم العهد ، وصار يأخذه على تلاميذه فيما بعد !..

وفى التاسعة عشرة من عمره [١٣٢٦هـ ١٩٠٨م] ذهب إلى جامعة الزيتونة ، بتونس ، فدرس فيها مالم يكن يستطيع أن يدرسه بالجزائر فى ظل الاستعمار الفرنسى ، الذى كان يحرم العربية ويطارد السمات القومية للجزائريين كى يسحقها ، وليجعل منهم فرنسيين « مسلمين » ، ومن وطنهم الامتداد الفرنسى ، عبر البحر المتوسط ، فى القارة الأفريقية !..

وفى [١٣٣٠هـ ١٩١٢م] سافر ، حاجا ، إلى الحجاز .. وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا وجاوروا بمكة والمدينة ، فعرض عليه بعضهم أن يجاور ، مثلهم ، الحرمين الشريفين ، ولكنه كان قد شرع التفكير فى مقاومة الاستعمار الفرنسى بالجزائر ، فرفض الهجرة ، وقال : « نحن لانهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية فى هذا الوطن » !.. وقبل عودته إلى الجزائر اتفق مع الشيخ البشير الإبراهيمى على خطة لتنفيذ البرنامج الذى لخصته كلماته هذه .. وكانت الخطة هى إعداد جيل من الرجال الذين يواجهون محاولة السحق القومى فى الجزائر ، ويعيدون الجزائر إلى « العروبة

(٢٨) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م .

والإسلام والقومية » .. رجال « يملكون وضوحا فى الهدف ، وفكرة صحيحة توصل إليه ، حتى وإن كانوا ذوى علم قليل ! ويعرفون حدود غاياتهم ، التى تنتهى عند تسليم الأمانة لجيل ثان يعلن الثورة ، ويستخلص الاستقلال من المستعمرين !»

ولقد مكث ابن باديس ثمانية عشر عاما يعد هذا الجيل ، قائلا : أنا لا أؤلف الكتب ، وإنما أريد صنع الرجال !.. فكان يعظ فى المساجد ، ويفسر القرآن ، ويعلم العربية للأطفال ، ويجوب القرى والمدن ويصعد الجبال ، فاجتمع له من [١٣٣١هـ ١٩١٣م] حتى [١٣٣٦هـ ١٩١٨م] ألف من هؤلاء الرجال !..

وعندما أقامت فرنسا احتفالاتها الصاخبة والاستفزازية ، بمناسبة مرور قرن على احتلالها للجزائر [١٣٤٩هـ ١٩٣٠م] كان رد ابن باديس هو إعلان المشروع الذى خطط له منذ [١٣٣٠هـ ١٩١٢م] ، فقامت [جمعية العلماء المسلمين الجزائريين] فى ذى الحجة ١٣٤٩هـ مايو سنة ١٩٣١م حاملة رسالة العودة بالجزائر إلى هويتها العربية الإسلامية ، وممهدة الطريق لجيل الثورة المسلحة على الاستعمار..

وكانت أغلب « الطرق الصوفية » قد أصبحت سندا أساسيا للسلطة الاستعمارية بالجزائر ، فحاربها ابن باديس منذ سنة ١٣٤٣هـ سنة ١٩٢٥م ، وتعرض بسبب ذلك لمحاولة اغتياله [١٣٤٥هـ ١٩٢٧م].

وفى [١٣٤٣هـ ١٩٢٥م] بدأ نشاطه الصحفى.. فشارك فى تحرير صحيفة [النجاح] .. ثم أصدر مجلة [المنتقد] سنة ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٦م ، وكان شعارها : « **الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شىء !** » ، فعطلها

الاستعمار بعد ثمانية عشر عددا .. لكنه عاد فأصدر صحيفة [الشهاب] ، أسبوعية ، ثم شهرية .. كما أصدر صحفا أخرى تعرضت للمصادرة والإلغاء ، منها [الشريعة] ، و [السنة المحمدية] و [الصراط] ...

وقبل أن ينتقل ابن باديس إلى جوار ربه فى ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ إبريل سنة ١٩٤٠م كان قد وضع وطنه بيد الجيل الذى أعاده إلى أحضان العروبة والإسلام ، والذى صنع جيل الثورة المسلحة التى تفجرت ضد فرنسا [١٣٧٤هـ ١٩٥٤م] وحقق بدماء المليون شهيد استقلال الوطن الجزائرى العربى المسلم سنة ١٣٨٢هـ سنة ١٩٦٢م .. فتحقق الهدف الذى رسمه ابن باديس ، بمكة ، قبل نصف قرن ، يوم قال : « **نحن لانهاجر. نحن حراس الإسلام والعربية والقومية فى هذا الوطن** ! » .. فأثبت أن الإسلام والعربية والقومية لن تضيع ، ولن يضيع من أحضانها الوطن إذا كان لها حراس من أمثال عبد الحميد بن باديس .. وأثبت أيضا أنه أبرز ممثلى تيار [الجامعة الإسلامية] وأعظم أعلامه فى بلاد المغرب العربى على الإطلاق !... [٢٩].

هذا عن أبرز أعلام هذا التيار ..

والمناخ الذى تبلور فيه :

فى مصر ـ أكثر المجتمعات العربية الإسلامية تحضرا وتطورا ـ تبلور تيار [الجامعة الإسلامية] حول رائده جمال الدين الأفغانى ... ولذلك ، فلقد كان مستحيلا أن يصطبغ فكر هذا التيار بصبغة « البداوة » ، التى اصطبغت بها دعوات تجديدية إسلامية تبلورت فى محيط بدوى ، « كالوهابية » .

---

(٢٩) انظر الفصل الذى كتبناه عنه بكتابنا [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

مثلا.. وكان مستحيلا أن يقف هذا التيار من « العقلانية » ومن « التمدن » موقفا غير ودى.. كما كان مستحيلا، كذلك، بحكم الانتماء الإسلامى والمنطلقات الإسلامية لهذا التيار، أن يسلك إلى التجديد طريق « التغريب » !..

لقد كان تبلور هذا التيار، بمصر، طليعة قيام « التيار الشعبى »، المتميز عن « جهاز الدولة » ـ الذى انفرد بالتطوير والتنوير للمجتمع حتى ظهور هذا التيار فى سبعينيات القرن التاسع عشر ـ وهو لم « يتميز »، فقط، عن « جهاز الدولة »، بل واتخذ منه موقف « المعارضة » فى الكثير من الأحيان !.. ولذلك فإن هذا التيار قد برئ من « التغريب »، الذى مالت إليه تجربة النهضة المصرية، خاصة على عهد الخديوى إسماعيل [١٢٧٩ ـ ١٢٩٦ هـ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م] بحكم إسلاميته وشعبيته. ثم هو، بحكم موقفه « التجديدى »، قد رفض « جمود » المؤسسات التقليدية، تلك التى وقفت عند فكرية العصر « المملوكى ـ العثمانى »، فأسهمت بسلبيتها تجاه النهضة الحديثة، فى إسلام التجربة « للتغريب » !.. فكان أن اتسم فكر هذا التيار بسمة « التوازن »، المميزة لحضارتنا العربية الإسلامية، عندما طرح تصوره لقسمات المشروع الحضارى المستقل لأمتنا العربية الإسلامية.

لقد تجسد فى تيار [الجامعة الإسلامية] بحث هذه الأمة عن ذاتها، وسعيها للنجاة من خطر المد الاستعمارى، المسلح « بالتقدم » الحضارى الغربى، والمستعين على غزونا « بالتخلف » « المملوكى ـ العثمانى » !.. وللنجاة، كذلك، من « التخلف » « المملوكى ـ العثمانى »، الذى تحول إلى قيد يعوق الأمة عن التصدى لعاصفة الاستعمار و« التغريب.. » !..

ولقد تحول بحث أمتنا عن ذاتها ، فى فكر هذا التيار ، إلى دعوة للتجدد الذاتى فى الدين والدنيا ، ينهض فيها « العقل » بدور المصباح الذى ينير الطريق ـ طريق الدنيا ، وأيضا طريق الدين ! وصولا إلى بلورة حضارة مستقلة تصنع تمدنا إسلاميا متميزا ، وتكون الطور العصرى لحضارتنا التى ازدهرت فى حقبة سابقة من التاريخ ...

ولقد أذَّن هذا التيار ، بصوت الأفغانى ، فى ربوع الشرق بالنهضة ، وبشر بها عندما قال : « لقد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج !... إن هذا الشرق ، وهذا الشرق لايلبث طويلا حتى يهب من رقاده ، ويمزق ماتقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخذ فى إعداد عدة الأمة الطالبة لاستقلالها ، المستنكرة لاستعبادها ..»[٣٠] !..

وبحكم الانتماء الإسلامى لأعلام هذا التيار ، وولائهم الأول للإسلام « الدين » و« الحضارة » ، كان وضوح فكره عن أن الإسلام هو أساس هذه النهضة ، وهو أداتها ، وهو الحافز إليها .. فالإسلام هو « فكرية » ـ [أيديولوجية] ـ الأمة ، الفعالة ، إذا تجددت ، فى بعث طاقاتها ودفعها لبناء حاضرها ومستقبلها ، على نحو مستقل ومتميز حضاريا . وأمام هذا « الكنز » ، الذى يمثل « الفرصة » الطبيعية والمواتية ، لامنطق عند الذين يتركونه ثم يبحثون عن « البديل » ؟!.. « فهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لامندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شىء ، ولايسهل

---

(٣٠) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٣ ، ٢٤٣ .

عليه أن يجد من عماله أحدا . **وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله كل الثقة فيه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث مالا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟!..»** [٣١] .. كما يقول ، ويتساءل الإمام محمد عبده !..

إن أهل المدينة لايلبون أذان من يؤذن لهم من خارج السور ؟!.. وفى أحسن الفروض سيتبع هذا المؤذن «صفوة» من السهل حصارهم ، وتوجيه الاتهام إلى فكرهم الوافد ، ثم اقتلاع هذا الفكر من الجذور !.. وليس كذلك الحال مع فكر هو « أيديولوجية » الأمة كلها ، إذ لاقبل لأعداء هذه الأمة بالتصدى له ، إن هو تحول ، بالتجديد ، إلى طاقة خلاقة تحرك الأمة نحو تحقيق أهدافها !..

لكن كون الإسلام هو أساس النهضة ، وأداتها ، وحافزها ، لايعنى أن فى مأثورات هذا الدين ، وفكر السلف ، وتطبيقات الماضين كل ماتحتاجه « دنيا » حاضرنا ومستقبلنا .. فهو ، فى هذا الميدان ، « حافز » يحمل النفوس على « **طلب السعادة من أبوابها** » ، بصرف النظر عن لون هذه الأبواب ، ومصادرها ، وعقائد مبدعيها ، وأجناسهم القومية ، ومواقعهم على خريطة الكوكب الذى نعيش فيه .. شريطة أن لاتتعارض مع « الأطر » و « المثل » و « الغايات والمقاصد » و « الفلسفات » و « الحدود » التى حددها « الإسلام الدين » .. فـ « **السلفية فى الدين** » تزاملها وتواكبها ، فى فكر تيار [الجامعة الإسلامية] : « **المستقبلية والاستنارة والتفتح فى التمدن والحضارة** » .. ومن هنا

---

(٣١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٣١ .

يأتى المعنى العميق والموحى لكلمات الإمام محمد عبده التى تقول : « **لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ، ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم !** .. »(٣٢)

ذلك أن لحضارتنا العربية الإسلامية موقفا أصيلا وقديما يميز بين ما هو داخل فى السمات والقسمات التى تتميز بها هذه الحضارة وبين ما هو داخل فى « الأدوات » التى تتخذ سبلا لتطوير الدنيا وتقدمها وللاستدلال والنظر فى الموجودات .. فالخصوصية والتميز لاتعنى الانغلاق وسد المنافذ والأبواب دون التفاعل مع حضارات الآخرين .. وقديما عرض أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] لهذه القضية فقال : « إنه يجب علينا أن نستعين ، على ما نحن بسبيله ، بما قاله من تقدمنا فى ذلك . وسواء أكان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة ، فإن الآلة التى تصح بها التذكية لا يعتبر فى صحة التذكية بها كونها آلة لمشارك لنا فى الملة أو غير مشارك ، إذا كانت فيها شروط الصحة . وأعنى بغير المشارك : من نظر فى هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام ! .. »(٣٣)

لكن الشرط الذى لابد من تحقيقه حتى ينهض الإسلام بهذا الدور النضالى والبناء فى تجديد « دنيا » الأمة ، هو أن يتجدد هذا « الدين » : فينفض مجددوه عنه البدع والخرافات والإضافات ، التى جعلته غريبا إذا نحن

---

(٣٢) المصدر السابق جـ٣ ص٢٥١ ، ٢٥٢

(٣٣) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م . [والتذكية هى الذبح] .

عقدنا المقارنة بينه وبين حقيقته وجوهره ، كما تلقاه نبيه ، عليه الصلاة والسلام ، عن الله ، سبحانه وتعالى ... فلابد ، أولا ، من « حكماء لايبالون بغوغاء العلماء المرائين الأغبياء ، والرؤساء القساة الجهلاء ، يجددون النظر فى الدين ، نظر من لايحفل بغير الحق الصريح ... وبذلك يعيدون النواقص المعطلة فى الدين ، ويهذبونه من الزوائد الباطلة ، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده ، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين ... » كما يقول عبد الرحمن الكواكبى (٣٤) ..

فبالسلفية العقلانية يتجدد الدين ... ومن ثم يلعب دوره الخلاق فى تجديد الدنيا ، التى لابد لتجديدها من الاستنارة والنظرة المستقبلية ، المنفتحة على مختلف التيارات الحضارية ، من موقع الراشد الناضج ، المدرك لما بين « الثوابت » و « المتغيرات » من فروق ! ...

الموقف الوسطى (المتوازن) :

ولقد كان واضحا أن تيار [الجامعة الإسلامية] يمثل الموقف الثالث ، والوسط بين التيارين اللذين استقطبا جمهور الأمة وقادتها فى ذلك التاريخ .. فعن يمينه أهل « الجمود » المتحصنون بالمؤسسات العريقة العتيقة التقليدية ، أولئك الذين توقف بهم « الفكر » عند نمط العصر « المملوكى ــ العثمانى » فى التفكير ... وعن يساره دعاة « التغريب » ، الذين بهرتهم حضارة أوربا ، وزادهم بها إيمانا وانبهارا نفورهم من الصورة التى يقدمها للإسلام وتراثه أهل « الجمود » ! .. والإمام محمد عبده يحكى كيف بشر تيار [الجامعة الإسلامية] بهذا الموقف الوسطى الجديد ، فيقول ، وهو

---

(٣٤) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

« يترجم » لنشأته وتربيته ومذهبه : لقد « نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ، ودخلت فيما فيه يدخلون ، ثم لم ألبث ، بعد قطعة من الزمن ، أن سئمت الاستمرار على ما يألفون ، واندفعت إلى طلب شىء مما لايعرفون ، فعثرت على مالم يكونوا يعثرون عليه ، وناديت بأحسن مما وجدت ، ودعوت إليه ، وارتفع صوتى بالدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل . كل هذا أعده أمرا واحدا ...

وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة :

- طلاب علوم الدين ، ومن على شاكلتهم ..
- وطلاب فنون هذا العصر ، ومن هو فى ناحيتهم .. »

ثم يتحدث الإمام محمد عبده عن موقعه فى هذا التيار ، الذى كان الأفغانى رائده ، فيقول : « ... نعم ، إننى لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة ، وهى لاتزال بى ، فى كثير مما ذكرت ، قائمة !.. » [٣٥] .

---

(٣٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص ٣١٨ ، ٣٢٠ .

فنحن هنا بإزاء : موقف ثالث .. وموقع ثالث .. وتيار ثالث ... يتوسط بين أهل « الجمود » ، وبين دعاة « التغريب » ..

وإذا كان هذا التيار يدعو إلى « السلفية الدينية » ، وإلى « فهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ... » ... فإنه لايتطابق ، فى هذا الموقف ، مع نمط السلفية « البدوية » ، التى وقفت عند « ظاهر النص » ، واتخذت من « العقل » موقفا غير ودى .. والتى ، لهذه « البداوة » ، لم تتعاطف مع « التمدن » والموقف المستقبلى فى الحضارة وشئون الدنيا .. فهذا التيار ينتقد ، صراحة ، هذا اللون من « السلفية النصوصية » ، بل ويرى أن أصحابها كانوا « **أضيق عطنا ـ [أفقا] ـ وأحرج صدرا من المقلدين !. فهم ، وإن أنكروا كثيرا من البدع ، ونحوا عن الدين كثيرا مما أضيف إليه ، وليس منه ، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، دون التفات إلى ماتقتضيه الأصول التى قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء** .. »[٣٦] ؟!..

وعلى حين اتخذت « سلفية البداوة النصوصية » هذه موقفا غير ودى من « العقل » فى « الفكر الدينى » ، انعكس على موقفها من « العلم والمدنية » ، رأينا تيار [الجامعة الإسلامية] يعلى من سلطان العقل فى حقلى « الدين » و« الدنيا » جميعا .. بل لقد اعتبر « **الدين** » « **من ضمن موازين العقل البشرى** ، التى وضعها الله لترد من شطط هذا العقل ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى .. » .. فالصلة بينهما ـ

---

(٣٦) المصدر السابق . جـ٣ ص ٣١٤

بين « الدين » و « العقل » ـ متينة ، والعروة بينهما وثقى !.. فالدين : صديق للعلم ، يحرك الإنسان للبحث فى أسرار الكون ، ويحترم الحقائق العلمية الثابتة ، ويعول عليها فى الإصلاح..

وإذا كان الدين ميزانا من موازين العقل البشرى ، فإن هذا « العقل هو جوهر إنسانية الإنسان... وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة ....[37] وهو نقطة الافتراق التى ميزت الإنسان عن غيره من الحيوانات ... جعلها الله محور صلاحه وفلاحه !..»[38].

وبينما رفضت « سلفية البداوة النصوصية » : الحكمة ـ [الفلسفة] ـ بل و « علم الكلام » ؟.. تحدث تيار [الجامعة الإسلامية] عن « الحكمة » باعتبارها « مقننة القوانين ، وموضحة السبل ، وواضعة جميع النظامات ، ومعينة جميع الحدود ، وشارحة حدود الفضائل والرذائل . وبالجملة ، فهى : قوام الكمالات العقلية والخلقية .. فهى أشرف الصناعات !..»[39].

وهذا المقام الرفيع الذى احتله « العقل » فى نهج تيار [الجامعه الإسلامية] ، لم يقف عند حدود فكر « الدنيا .. والحضارة .. والمجتمع » ، بل تعدى هذا الإطار إلى ميدان « الفكر الدينى » .. فالنظر العقلى هو السبيل الذى يصل به المسلم إلى اليقين فى العقائد ، إذ لا يقين مع التحرج من النظر ، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان ، طولها وعرضها ... وحتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد .. فالله يخاطب ، فى كتابه ، الفكر والعقل والعلم ، بدون قيد ولاحد ... والوقوف عند حد فهم العبارة

---

(٣٧) المصدر السابق . جـ٥ ص ٤٢٨ ، جـ٣ ص ٢٩٨ .

(٣٨) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٣٩) المصدر السابق . ص ٢٦٠ .

مضربنا ، ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات ، التي تركنا كتبها فراشا للأتربة وأكلة للسوس ، بينما انتفعت به أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم النور !..

والقرآن ـ وهو وحده المعجز الخارق ـ قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم .. **فهو معجزة عرضت على العقل ، وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها . فالإسلام لايعتمد على شيء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى .** فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولايغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولايخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولايقطع فكرك بصيحة إلهية .... والمرء لايكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به .. فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ، ولو صالحا ، بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير ، كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه !..»[٤٠] .

ولقد كانت هذه « العقلانية الإسلامية » عاملا من عوامل تميز تيار [الجامعة الإسلامية] ، لا عن « سلفية البداوة النصوصية » وحدها ، بل وعن أهل « الجمود » ، الذين تصوروا توحيد الله وتفرده بالخلق مستلزما لإنكار قيام المسببات على أسبابها الطبيعية ، ولإنكار وجود القوانين الكونية والطبيعية الثابتة والحاكمة فى الكون والمجتمعات ..

---

(٤٠) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ١٥١ ، ٢٧٩ ـ ٢٨١ ، جـ٤ ص ٤١٤

كذلك كانت عقلانية هذا التيار مميزة له عن تيار « التغريب » ، الذى تبنى نفر من أهله مادية الغرب الفلسفية ، تلك التى ظن أهلها أن التسليم بوجود السنن والقوانين الثابتة فى الكون والمجتمع يستلزم نفى الألوهية والوحى والرسالات ...

فبهذه « العقلانية الإسلامية » جدد تيار [الجامعة الإسلامية] نظرة الإنسان المسلم للكون ، عندما أقام الموازنة والتوازن بين « التوحيد » ـ الألوهية ـ وبين « الطبائع » ـ السنن والقوانين والعلّيّة ، والارتباط الضرورى بين الأسباب والمسببات ـ ... وعندما ميز بين مهام الرسل والوحى وبين « عالم العقل ونطاقه » .. ورأى أن « حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل هى حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح ، أما تفصيل طرق المعيشة ، والحذق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لادخل للرسالات فيه إلا من جهة العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه كى لايحدث ريبا فى الاعتقاد ولايصيب أحدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق .... فمثلا : حقيقة البرق والرعد والصاعقة ، وأسباب حدوثها ، ليست من مباحث القرآن ، لأنها من علم الطبيعة [أى الخليقة] ، وحوادث الجو التى فى استطاعة الناس معرفتها باجتهادهم ، ولاتتوقف على الوحى . وإنما تذكر الظواهر الطبيعية فى القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال ، وصرف العقل إلى البحث الذى يقوى به الفهم والدين ... لاتقرير القواعد الطبيعية ، ولا إلزاما باعتقاد خاص فى الخليقة ! ... »[٤١] .

---

(٤١) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، جـ ٤ ص ٩٤ .

والأفغانى يتحدث عن هذا الفريق فيقول : « لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم مايحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل مايسمونه « تمدنا » ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى !.. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟!. نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية ـ [القومية] ـ وماشاكلها .. وسموا أنفسهم زعماء الحرية .... ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود مايكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم .. فنقلوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم !... وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم .. وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها !... لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ؟!..»[٤٣].

فكما أن النهضة يعوقها « الجمود » عند فكرية عصر التراجع الحضارى وتخلف التمدن الإسلامى .. فإن « التغريب » يفقدها استقلالها ، ويلبس الأمة غير ثيابها ، ويجردها من إمكاناتها وعوامل قوتها ، ويبدد طاقاتها فيما يفيد عدوها ، فيزيد ضعفها فى مواجهة التحديات !.. كل ذلك على وهم أن تصبح جزءا من حضارة الغزاة... والطريقان ـ « الجمود » و« التغريب » ـ

---

(٤٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٩٥ ـ ٢٩٧

فهذه « العقلانية الإسلامية » تميز هذا التيار « السلفى ـ العقلانى ـ المستنير » عن « سلفية البداوة النصوصية » ..... وعن « أهل الجمود » .... وعن « دعاة التغريب » !..

● فأنصار « سلفية البداوة النصوصية » : قد نفضوا عن العقائد والتصورات والعبادات الدينية غبار البدع والخرافات .. لكنهم وقعوا أسرى لظواهر النصوص .. ثم هم « لم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء .... » !..

● و « أهل الجمود » : « لايتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها !. وجل معلوماتهم : تلك الزوائد التى عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ، ولا يرجى نفعها .. و « علماؤهم » أقرب للتأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع إلى مشايعتها منهم !.. فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية !.. »[٤٢] .. كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ..

● أما « دعاة التغريب » ، سواء منهم من درس فى عواصم الغرب ، فاندهش بحضارته ، وأصبح داعية لتقليدها ، أو من تعلم منهم فى المؤسسات التعليمية التى أقامها محمد على بمصر ، أو العثمانيون بتركيا ، فإن نهجهم ليس كافلا لاستقلال الأمة حضاريا .. بل لقد أصبح هؤلاء بمثابة السبل والقنوات التى يتسلل منها العدو إلى عقل الأمة ووجدانها كى يثبت فى وطنها الأقدام ويحكم حول عنقها الأغلال ؟!..

---

(٤٢) المصدر السابق . جـ٣ ص ١١٢ ـ ١١٤

كلاهما مرفوضان من تيار [الجامعة الإسلامية] ، الذى يستعين على النهضة بـ « الأصالة » وبـ « التجديد والتطور » .. فلانقف حيث وقف « سلف » العصر « المملوكى ـ العثمانى » .. ولانبدأ من حيث انتهى الأوربيون .. ذلك : « أن **الظهور فى مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .. ولاضرورة ، فى إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولاملجئ للشرق فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا**[44] أعجزها وأعوزها ! .. »[45] .

فى « الجمود » .. وفى « التغريب » ، كليهما : « جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها » .. ويفقدها الاستقلال الحضارى ، الذى هو جوهر يقظتها الإسلامية المنشودة ..

* * *

الدولة : إسلامية .. مدنية :

وفى علاقة « الدين » ـ بـ « الدولة » ، أبرز تيار [الجامعة الإسلامية] تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن الحضارة الغربية ، إن فى « الفكر » أو فى « التطور التاريخى » .. فلا كهانة فى الإسلام ، ولا دولة ثيوقراطية فى تاريخ المسلمين ، وأيضا ليست العلمانية ـ بما تعنيه من فصل الدين عن الدولة ـ هى

---

(٤٤) أى أعجزها ، وأذلها ، وصدعها ! ..

(٤٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣ .

نموذج اليقظة الإسلامية فى هذا الميدان..

● فإسلامية «الدولة»، فى يقظتنا الإسلامية المنشودة لاتعنى أنها «دولة: دينية.. ثيوقراطية».. كما عنت ذلك مسيحيتها فى الحضارة الكاثوليكية الغربية.. فطبيعة «السلطة الدينية» للدولة مما يأباه نهج الإسلام.. فالكاثوليكية الغربية هى التى «جعلت أصلا من أصول المسيحية كون السلطة الحقيقية: [مدنية- سياسية- دينية] فى نظام واحد، لا فصل فيه بين السلطتين».. أما الإسلام، فإنه «ليس فيه سلطة دينية، سوى سلطة الموعظة الحسنة... وهى سلطة خوّلها الله لكل المسلمين، أدناهم وأعلاهم... وليس للخليفة، أو القاضى، أو المفتى، أو شيخ الإسلام أية سلطة دينية... بل إن كل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية!.. فليس فى الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه؟!..»(٤٦).

● ونفى «السلطة الدينية» و«الثيوقراطية» عن الدولة الإسلامية لايعنى «علمانية» هذه الدولة، وتحررها من هيمنة الشريعة الإسلامية، وفصلها عن الدين... ذلك لأن الإسلام ليس مجرد رسالة روحية خالصة، وإنما هو موقف كلى وفلسفة شمولية وأيديولوجية حياتية وضع المعايير والفلسفات والأطر للنظام المدنى أيضا... «فالإسلام: دين، وشرع، فقد وضع حدودا، ورسم حقوقا، وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله، فقد يغلب الهوى وتتحكم الشهوة، فيغمط الحق، ويتعدى المعتدى الحد. فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود، وتنفيذ حكم القاضى بالحق، وصون نظام الجماعة. وتلك القوة لايجوز أن

(٤٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٢ ص ١٧٥، جـ٣ ص ٢٨٨، ٢٨٦، ٢٨٥.

تكون فوضى فى عدد كثير ، فلابد أن تكون فى واحد ، وهو السلطان أو الخليفة ..»[47] ـ [الدولة] ـ .. فالله يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن ! ..

● فهى ، إذن ، «دولة» : «إسلامية» و«مدنية» فى ذات الوقت.. للشريعة مكان السيادة والهيمنة على «واقعها الحى» وعلى «القانون» المنظم لحياة هذا الواقع ..... والأمة هى مصدر السلطة والسلطان فى التشريع والتقنين لمقاصد هذه الشريعة وتجسيد فلسفاتها واقعا ، ووضع مقاصدها فى الممارسة والتطبيق ..

وإذا كانت «الحرية» فريضة إسلامية ، وضرورة شرعية إنسانية ، وليست مجرد حق من حقوق الإنسان ، فإن حرية الأمة لن تتحقق إذا لم تكن ، فى سياسة الدولة والمجتمع ، مصدرا للسلطة والسلطان .. «فالحكمة والعدل فى أن تكون الأمة ، فى مجموعها ، حرة مستقلة فى شئونها ، كالأفراد فى خاصة أنفسهم ، فلايتصرف فى شئونها العامة إلا من تثق بهم من أهل الحل والعقد ، المعبر عنهم فى كتاب الله بأولى الأمر ، لأن تصرفهم ، وقد وثقت بهم ، هو عين تصرفها ، وذلك منتهى ماتكون به سلطتها من نفسها..»[48].

بل إن كون الأمة هى مصدر السلطة فى حياتها السياسية ليبلغ الحد الذى يجعلها الحاكمة على الدولة .. فهى تبايع الحاكم وتتوجه ـ إن كان ملكا ـ على شرط الدستور والقانون ، فإن وفى كانت له حقوق الطاعة ، وإلا «فإما

---

(47) المصدر السابق . جـ3 ص 287 .

(48) المصدر السابق . جـ5 ص 258

أن يبقى رأسه بلاتاج ، أو تاجه بلا رأس ؟!..»[٤٩].

هكذا كشفت مدرسة [الجامعة الإسلامية] النقاب عن الوجه المشرق لإسلامنا فى هذا الموضوع.. موضوع طبيعة السلطة السياسية فى الدولة والمجتمع كما يراها الإسلام ، واليقظة الإسلامية الحديثة..

والعروبة المتميزة فى المحيط الإسلامى :

بعض الناس لايستسيغون القول بأن لتيار [الجامعة الإسلامية] موقف « قومى عربى » ، أبصر تميز العرب ، قوميا ، فى المحيط الإسلامى ، بل وعقد لهم لواء القيادة فى هذا المحيط !.. لايستسيغون هذا القول ، ويتساءلون ، منكرين ومستنكرين : أنَّى يوجد للفكر القومى مكان عند دعاة الجامعة الإسلامية ؟!.. وألا يدخل ذلك فى باب الجمع بين المتناقضات ؟!..

لكننا نقول : إن هذا الرأى لايعدو أن يكون ثمرة من ثمرات النظرة السطحية للأمور ، النابعة من الكسل العقلى ، الذى يمنع هؤلاء من فقه الفكر والمواقف التى بلورها تيار [الجامعة الإسلامية] حول هذا الموضوع..

فالأفغانى الذى قال : « لقد علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون أن **المسلمين لايعرفون لهم جنسية ـ [أى قومية] ـ إلا فى دينهم واعتقادهم** ».. والذى دعا المسلمين قاطبة إلى الاعتصام « بحبال الرابطة الدينية ، التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها التركى بالعربى ، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى ، **وقامت لهم مقام الرابطة النسبية**..»[٥٠]... هو ذاته الذى يقول : « إنه

(٤٩) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٨ ، ٤٧٩.

(٥٠) المصدر السابق . ص ٣٠٧ ، ٣١٠.

لاسبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .. والأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب .. وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لايحتاج معه إلى دليل أو برهان .. »[٥١].

وفى الوقت الذى مارس فيه الأفغانى الدعوة لقيام رابطة [للجامعة الإسلامية] بقيادة السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى [١٢٥٨ ـ ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨م] لتجمع عالم الإسلام ضد التدخل الاستعمارى الأوربى ، كان صوته يعلو بنقد الدولة العثمانية لرفضها الاستعراب ، وتحويل الترك ، بواسطة اللغة والحضارة ، إلى « جزء من الأمة العربية » ! .. فكتب عن هذا : « الخطأ العثمانى القاتل » يقول : « لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة .. والسعى لتعريب الأتراك .. وإنما فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى ؟! .. فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ؟! .. إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام ، **وصاروا أمة عربية** ... »[٥٢] **واحدة** ! ..

ومحمد عبده ، وهو المهندس الأعظم لمدرسة التجديد الإسلامى ، وروح تيار [الجامعة الإسلامية] هو القائل عن الإسلام ، عندما كانت السلطة والدولة فى أهله عربية : « **كان الإسلام عربيا ، ثم لحقه العلم فصار عربيا ، بعد أن كان يونانيا** » ! ..[٥٣]

---

(٥١) المصدر السابق . ص ٢٣٧ .

(٥٢) المصدر السابق . ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٥٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٣١٧ .

لكن ... هل هى « المتناقضات » التى يستحيل اتساقها ؟!... وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف يستقيم الحديث عن أن المسلمين « لاجنسية لهم إلا فى دينهم واعتقادهم » الدينى ، مع الحديث عن أن « الأمة العربية هى عرب ، قبل كل دين ومذهب » ، والدعوة إلى تعرب الترك ، ليصبحوا جزءا من « الأمة العربية » ... بل والحديث عن « الإسلام دينا عربيا » ؟!...

إنها ليست « متناقضات » ... بل هى الفكر المتسق ، الذى وازن به تيار [الجامعة الإسلامية] بين « الخصوصية القومية للعرب » ، كأمة ، بالمعنى القومى ، فى محيط إسلامى ضم أمما تدينت بالإسلام الدين ، وبين « عموم » الرابطة والجامعة الاعتقادية والملية التى جمعت كل من تدين بهذا الدين .. وفى هذه الموازنة تكمن عبقرية هذا التيار فى هذا الميدان !..

فبين « الأقوام المسلمين » رابطة مؤسسة على عقائد الإسلام ، ومتمثلة فى آدابه ... وهى بالنسبة لهم جميعا بمثابة « الجنسية الإسلامية » .. لكن هذه الشعوب الإسلامية تسكن أقاليم متعددة ، وتنتمى إلى قوميات تميزها لغات مختلفة ، الأمر الذى أثمر تمايزا بين هذه القوميات .. « وتحت هذه المؤثرات ـ الإقليم ، واللغة ، والأخلاق ، والعوائد ـ كما يقول الأفغانى ـ تحصل للأقوام ميزة ، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم ، والذود عنه ، واعتبار من خالفه أنه ليس منهم ، بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة !.. »[٥٤].

وهذه « المغايرة » القومية ، التى تمثل واقعا قائما فى المحيط الإسلامى ، الذى تجمعه رابطة الإسلام ، هى التى جعلت الأفغانى ينبه على أن مطلب

---

(٥٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

تيار [الجامعة الإسلامية] لايرق «للوحدة السياسية» للأمم الإسلامية، «فإن هذا ربما كان عسيرا. ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن. ووجهة وحدتهم الدين. وكل ذى ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته. وبقاءه ببقائه!..»(٥٥)..

فهى رابطة «التضامن الإسلامى والنصرة الإسلامية». تشد الأمم الإسلامية، التى تقوم وحدة كل منها. سياسيا. وتتأسس على رابطتها القومية التى تميزها فى المحيط الإسلامى الأكبر والأوسع.. فهنا «أمة» إسلامية. و«جنسية» - [قومية] - إسلامية. قوامها رابطة الملة والاعتقاد... وفى محيطها تتميز وتتمايز «أمم» و«قوميات». بالمعنى القومى الأخص تتأسس على السمات القومية المتميزة فى إطار المحيط الإسلامى الكبير..

وعند ابن باديس - وهو إمام الجناح المغربى لتيار [الجامعة الإسلامية] - نجد وضوحا كاملا فى تصوير العلاقة بين «الأمة العربية»، المتميزة قوميا، وبين «الأمم الإسلامية» غير العربية..... **فالعرب: أمة فى القومية.. وفى السياسة.. والوحدة السياسية، بمعنى وحدة الدولة، أمر وارد، بل واجب بين من يتمتعون منهم بالاستقلال عن مناطق نفوذ الاستعمار وسيطرته.. أما الأمم التى تجمعها رابطة الملة والاعتقاد الدينى، دون رابطة العروبة القومية، فإن رابطة الدين تثمر لها وحدة فى النواحى الأدبية والاجتماعية - دون السياسية - ومن ثم دون الدولة الواحدة.. وبعبارة ابن باديس: فنحن «إذا قلنا: العرب، فإننا نعنى: هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقا إلى المحيط الإطلانطيق غربا، والتى تنطق بالعربية، وتفكر بها، وتتغذى من**

---

(٥٥) المصدر السابق. ص ٣٤٥.

تاريخها . وتحمل مقدارا عظيما من دمها . وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة . هذه الأمة تربط بينها ـ زيادة على رابطة اللغة ـ : رابطة الجنس ، ورابطة التاريخ ، ورابطة الألم ، ورابطة الأمل . فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لامحالة ... وبين الشعوب العربية المستقلة تمكن الوحدة السياسية ، بل وتجب ... أما المسلمون الذين تتوزعهم عدة قوميات ، فإن علاقتهم شاملة لناحيتين :

- ناحية سياسية دولية ..
- وناحية أدبية اجتماعية ..

فأما الناحية السياسية الدولية ، فهذه من شأن أممهم المستقلة . وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهى التى يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية .. إنها مهمة جماعة المسلمين . وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون فى مصالح المسلمين الدينية والأدبية .. »[٥٦] .

هكذا وضحت الرؤية ، وتحددت العلاقات ، والتصورات ...

ولقد برئ تيار [الجامعة الإسلامية] من شبهة تأسيس التمايز القومى للأمة العربية فى المحيط الإسلامى على أسس عرقية أو عنصرية ... فالعروبة ، عند أعلام هذا التيار ، مؤسسة على ثمرات التميز فى اللغة والإقليم ، والعادات والتقاليد ... وعندهم أن اللغة « لها آداب ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق ، وعلى حفظها تتكون العصبية ! » ... وللغة « تأثير ـ معنوى ـ

(٥٦) [كتاب آثار ابن باديس] جـ٣ ص ٣٩٨ ، ٣٣٩ ، ٤١١ . جمعها ونشرها الدكتور عمار طالبى . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

علاوة على التأثير المادى ـ يجعلها من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر » ، حتى لتصبح طوق النجاة للأمة ، تجمع شملها القومى إذا غالتها وحاولت اغتيال وحدتها التجزئة المفروضة على وطنها القومى من قبل الغزاة ! « فكم رأينا دولا اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها ـ [لغتها] ـ محكومة ، وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد إلى ماشاء الله !..»[٥٧].

وأعلام هذا التيار يؤصلون « المعيار اللغوى للعروبة » بحديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يقول فيه : « أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . **وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى** »[٥٨].

وهم لايقفون ، فقط ، عند تقرير حقيقة تميز العرب قوميا فى المحيط الإسلامى ، بل ويتبنون الدعوة إلى دور قائد للأمة العربية فى هذا المحيط !..

● فالأفغانى قد دعا إلى تعرب الترك ، ليصبحوا جزءا من « الأمة العربية » الواحدة !..

● والإمام محمد عبده رأى أن عظمة هذه الأمة قد تحققت عندما « كان الإسلام عربيا »... فلما تغلب الجند غير العربى « من الترك والديلم وغيرهم »

---

(٥٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ٢٢٤ ، ٢٢١ .

(٥٨) رواه ابن عساكر ، بسنده ، عن مالك الزهرى ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ـ [تاريخ بغداد] .

على الخلافة العربية ، « هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجميا » فكان التراجع والتخلف والجمود !..[٥٩]

● والكواكبي ـ وهو إمام الجناح المشرق لتيار [الجامعة الإسلامية] ـ يعقد للعرب لواء القيادة فى تجديد عالم الإسلام والشرق فيقول : إن « العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية .. وهم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيرا .. »[٦٠] !

● وابن باديس يرى أن « العرب قد رشحوا لهداية الأمة ، وأن الأمم التى تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلم لغتها ، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام .. » .. فالعروة وثقى بين الإسلام والعروبة .. ونمو الاسلام يعنى نمو الأمة العربية .. ولذلك فإن رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان « رسول الإنسانية .. ورجل القومية العربية ، والأمة العربية ، فى آن واحد .. نهتدى بهديه ، ونخدم القومية العربية خدمته ، ونوجهها توجيهه ، ونحيا لها ، ونموت عليها .. » كما يقول ابن باديس[٦١] ! ..

هكذا تميز موقف تيار [الجامعة الإسلامية] من قضية العروبة ، وتميز العرب قوميا ، ومن علاقة هذا الكيان القومى العربى بالمحيط الإسلامى ... فأعلام هذا التيار لم يقفوا عند العروبة ، رافضين لروابط الملة والاعتقاد

---

(٥٩) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٦٠) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى] ص ٣٥٨

(٦١) [كتاب آثار ابن باديس] جـ٤ ص ١٧ ـ ١٩ ، ٢١ .

الديني - كما صنع « القوميون العلمانيون » - ... ولم يتحازوا إلى الرابطة الإسلامية ، زاعمين تناقضها مع التمايز القومي ، الذي هو أخص منها - كما صنع فريق من العاملين في الحقل الإسلامي - ... وإنما وازنوا بين الرابطتين ، ودعوا إلى دور قائد للأمة العربية في المحيط الإسلامي ، سواء في تجديد الدين أو في النهضة التي تجدد للعرب والمسلمين دنياهم ، وتعيد لهم استقلالهم الحضاري الذي ميزهم تاريخيا عن أمم وحضارات أخرى ..

وحضارة : جديدة .. ومتميزة :

لقد أبصر تيار [الجامعة الإسلامية] الهدف الاستعماري الأوربي القديم .. ذلك الهدف الذي تجلى في كل موجات الغزو التي تعرض لها وطن العروبة خلال هذا الصراع التاريخي الطويل .. **فالغرب يريد أن يحرز النصر على الجبهة الحضارية ، باحتواء العرب حضاريا ، حتى يختم دورات هذا الصراع بانتصار حاسم ونهائي ، ومن ثم فهو ، وقد عاد مسلحا هذه المرة بالثورة الصناعية وثمارها العديدة من أدوات القوة المتنوعة ، وبالحضارة الأوربية المتألقة والمتفردة على خريطة الكوكب الذي يسكنه الإنسان ، يريد أن لاتظل حضارته هذه حضارة جاليته الأوربية ومستوطنيه فقط في مستعمراته العربية والإسلامية ، وذلك كي لاتتكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته بزوال الدولة الاستعمارية القديمة ، الغريقية .. وبيزنطية .. وبطلمية .. وسواء أكانت السبل هي القهر بالمسخ القومي والسحق للهوية الحضارية ، كما حاول الفرنسيون بالجزائر ، أو بالإغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها ، وكما صنع الانجليز في مستعمراتهم ، فإن الهدف واحد ومحدد ، وهو أن ينسلخ العرب والمسلمون عن هويتهم الحضارية المتميزة ، فيصبحوا غربا ، وتتم عملية الاحتواء**

التي تكرس النصر للغرب في هذا الصراع الحضاري الطويل .. وفي حديث الكاتب والسياسي الاستعماري الفرنسي « جابرييل هانوتو » عن هذا الصراع الحضاري بين الحضارة الأوربية ، التي يسميها « المدنية الآرية المسيحية » ، وبين الحضارة العربية الإسلامية ، التي تشد العرب ـ كما يقول ـ إلى « الماضي الآسيوي » ، يتجلى فرح المستعمرين بما لاح لهم من نجاح هذا المخطط « التغريبي » في بعض أقطار الشمال الأفريقي ـ تونس ـ وهو النجاح التغريبي الذي تحدث عنه هانوتو بقوله : « يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضي الآسيوي »[٦٢] ؟ ! ..

وحتى لايتحقق للاستعمار هذا الهدف الكبير ، القديم والجديد ، كانت دعوة تيار الجامعة الإسلامية إلى تجديد الحضارة العربية الإسلامية ، تجديدها وليس التخلي عنها ، ولا استبدالها ... ففي الوقت الذي تصدى فيه هذا التيار للتحديات التي مثلت قيود عصور التخلف على حركة الأمة ويقظتها ونهضتها .. وتصدى للغزوة الاستعمارية الأوربية ، كاحتلال عسكري ونهب اقتصادي ، تصدى كذلك لدعاة إحلال حضارة الغرب محل حضارتنا العربية الإسلامية ، التي لم تكن صورتها التي تقدمها المؤسسات التقليدية يومئذ تغري بالاستلهام أو تبعث على الاحترام ! ..

ولقد انطلق هذا التيار في دعوته لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها ويربطها خيط واحد ..

١ ـ فنحن أمة عريقة ، ولحضارتنا مزاج متميز وطابع خاص ... وتميز هذه الحضارة بالموقف المتوازن والموازن بين المتناقضات ، وتمثيلها « للضمير »

---

(٦٢) [الإسلام والرد على منتقديه] ـ مجموعة أبحاث ـ ص ٢٧

فى مواجهة حضارات تميل عادة إلى طرف واحد من طرفى الظاهرة .. يعطى حضارتنا هذه ميزة ، ويعصمها من مخاطر وأخطار يشكو منها الآخرون ..

٢ ـ إن للمزاج الحضارى المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة ، ومقومات هذا التكوين ، وإذا كانت الأمة ، كما هو حال أمتنا ، ذات عراقة حضارية وتراث غنى ودور بارز فى تاريخ الإنسانية وصراعاتها الحضارية ، فليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضارى الخاص ، والقذف بها تحت عباءة الآخرين !.. بل قد يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنيها ، مخلصين كانوا أم مخادعين !... وبعبارات ابن باديس عن «الغيرية الحضارية» ـ أى التميز ـ للجزائر عن فرنسا : « **إن هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا ، ولاتستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت** ... » ؟!..

٣ ـ إن الدعوة إلى « حضارة عربية إسلامية متميزة » لايعنى تقديس الماضى ، ولا العودة إليه كى نعيش فى قوالبه ، بل ولاالأخذ بجميع أصوله فى التمدن .. وإنما الذى تعنيه هذه الدعوة هو الأخذ « بالثوابت » من « الأصول » ، التى تمثل القسمات المميزة للشخصية الحضارية العربية الإسلامية ... وهذه الأصول التى تحمل صلاحيات العطاء المعاصر ، وتمثل قوة دفع وطاقة تحريك للأمة نحو التقدم ، إنما تمثل ، بما لها من قداسة فى نفوس الأمة ، مناخا ملائما يسرع بحركة الأمة كى تنخرط فى عملية التجديد واليقظة والتطور ، على عكس حالها إذا ما دعيت إلى نمط جديد وغريب ليس لأصوله فى ضميرها قداسة واحترام ... **ففارق بين أن تقتنع صفوة مستنيرة بنمط حضارى معين ، فتنخرط فى العمل لسيادته وتسويده ، وبين أن تدخل الأمة عصر تجديد حضارتها الخاصة ، الممثلة لذاتيتها ، والمجسدة لخصوصيتها القومية ، مسوقة إلى ذلك بقيم وأفكار ومواريث لها فى نفوسها وضمائرها هالات**

المقدسات .. فنطاق « التحديث » ، فى الحالة الأولى ، محدود ، ومن السهل حصاره واقتلاعه ـ علاوة على انتفاء ملاءمته وجدواه ـ أما فى الحالة الثانية ، فإن السعى فى « **التجديد** » سيكون سريعا وحثيثا ، ونطاق انتشاره سيكون عاما وشاملا ، واقتلاع الأعداء لآثاره سيكون مستحيلا .. وذلك فضلا عن جدواه النابعة من ملاءمته للأمة التى تنهض بهذا « التجديد » ..

إذن ، فالمطلوب هو البدء من بعض أصول الماضى ـ أى « الثوابت » ـ الصالحة ، والتى تمثل « الروح الحضارية » للأمة ، والضامنة لها استمرارية مسيرتها الحضارية .. وبعبارة الأفغانى ـ فى المنهاج الذى تحدد لـ [العروة الوثقى] .. « **فإن الظهور فى مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم** »[٦٣] .

وهذه « الأصول ـ الثوابت » ـ كما يقول محمد عبده ـ هى التى ستجعل الأرض ، إنسانيا وفكريا ، ممهدة للإصلاح والتجديد والنهضة .. فالناس سيصغون « للمؤذن » ، ويلبون نداءه ، لأنه يؤذن فيهم من داخل سور مدينتهم ، وبلغتهم ، وبما هو مألوف لهم .. وليس من خارج السور ، برطانة الأعاجم والخواجات !... وعندما يكون الأمر « تجديدا » للأصول الثوابت فستكون لدعوته فى قلوب الأمة وعقولها قواعد ومقدمات تعين على انخراط الأمة فى مشروعها القومى النهضوى ، تشدها إليه « العوامل الطبيعية للانتماء » ... وبعبارة محمد عبده : « فهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لامندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن **صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شىء ، ولايسهل**

---

(٦٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣ .

عليه أن يجد من عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه ما بيناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟ ! ..»[٦٤] .

والتمسك بالأصول الثوابت ، والروح الحضارى للأمة العربية الإسلامية ، لا يعنى ـ فى رأى أعلام هذا التيار ـ الرجوع للعيش فى الماضى ، فلقد عابوا على « السلفية ـ النصوصية » ـ كما سبقت إشارتنا ـ موقفها غير الودى من العقل والتمدن والتحضر ـ وهو لايعنى الاكتفاء بالتراث الدينى وعلوم الشرع فى النهضة والإصلاح ، ولا العزلة الرافضة للتفاعل الحضارى .. ذلك أن الإصلاح الدينى شىء ، والإصلاح المدنى والتجدد الحضارى شىء آخر يتمايزان ، مع الارتباط والاتصال .. والاستعانة بالدين فى تحريك الأمة إلى التجدد الحضارى ، مستعينة بمنابعه النقية ، لايعنى أن التجدد الحضارى هو ذات الإصلاح الدينى .. وبعبارة محمد عبده : « .. لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ولساروا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم .. »[٦٥] ؟ !

فالعلاقات لاتعنى طمس التمايز والفروق ، أو تحويل الوسائل إلى غايات ! ..

٤ ـ وكما رفض تيار [الجامعة الإسلامية] « سلفية الجمود » عند فكرية

---

(٦٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٣١ .

(٦٥) المصدر السابق . جـ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

العصور المملوكية العثمانية .. كذلك رفض طريق « التغريب » ، الذى مثل أصحابه « السلفية الغربية » ؟!.. التى انبهر تيارها بالغرب ، فدعا إلى أن تبدأ من حيث انتهى الغرب ، وأن نسلك نفس الوسائل والوسائط التى سلكها الغرب إلى ذات الغايات والأهداف التى استهدفها .. رفض هذا التيار سبيل التغريب ، لمنافاته لحقيقة « التمايز الحضارى » لأمتنا عن الحضارة الغربية .. وكتب الأفغانى فى منهاج [العروة الوثقى] يقول : « **إنه لا ضرورة ، فى إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولاملجئ للشرق فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها ! ..** »[66] .

والأفغانى يرى فى هؤلاء « المتغربين » ، الذين افتقدوا الثقة بالذات والأصالة والأمل فى بناء الحضارة المتميزة ، حتى لقد استحكمت منهم « عقدة الأوربى » !.. يرى فيهم خطرا يفتح للاستعمار فى حياتنا الثغرات ، فيقول : « إن أشد وطأة على الشرق ، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين ، وتذليل الصعاب لهم ، وتثبيت أقدامهم ، هم أولئك الناشئة ، الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم ، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هو فيما تعلموه من اللسان ، على بسائطه ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة سَيْروسيرَ من قطع مراحل من الغربيين فى سبيل الأخذ فى ترقية أمته ، بدون أن يسبروا من ذلك غورا ، أو يفهموا لتدرجهم معنى ، ويعتقد الناشئ الشرقى أن كل الرذائل ودواعى الحطة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه ،

(٦٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣ .

فيجرى مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية ، ومن كل مشروع وطنى تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده ، ويأنف من أى عمل ما لم يشارك فيه الأجنبى ؟ ! ... » [٦٧].

فالاعتراض هنا ليس على « سبر غور » أسرار التقدم الغربى ، للتمييز بين « الضرورى ـ النافع » ، و « الضار ـ غير الملائم » ، للاستفادة بالأول ، بالتمثل الطبيعى والصحى ، مع تجنب الثانى ورفضه .. فمن قبل صنع العرب ذلك يوم أخذوا ، من موقف المستقل وموقع القادر على التمييز ، عن الفرس والهنود واليونان ، كى يصنعوا الذاتى والجديد والمتميز .. وإنما الاعتراض على « تقليد المنبهر » ، الذى أفقده « الانبهار » الثقة بالذات ، والقدرة على التمييز؟ ! .

فالتمايز الحضارى ، الذى هو « حقيقة واقعة » ، يدعونا إلى أن نبصر ما لكل حضارة من خصوصية .. وهذه الخصوصية لاتنفى وجود ماهو عام وميراث إنسانى تشترك فيه كل الحضارات .. وفتح النوافذ على مختلف الحضارات يجب أن يكون واعيا بما هو « خاص » وما هو « عام » ... ومن غير الطبيعى ، وغير المفيد زرع الأجسام الحضارية الغربية فى بيئات لاتحتاجها ولاتفيد منها ... وبهذا الفهم علينا أن ننظر لخصوصية التمدن الأوربى ، باعتباره ـ كما يقول الأفغانى ـ : « فى الحقيقة تمدنا للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى !.. » .. أما الذين يقلدون هذه الخصوصية ، المقدمات منها والنتائج ، فإنهم ـ وفق عبارة الأفغانى ـ : « ينفون ثروتهم إلى غير بلادهم !.. ويميتون أرباب الصنائع من قومهم !.. وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها !.. فلقد علمتنا

---

(٦٧) المصدر السابق . ص ١٩٠ .

التجارب أن المقلدين ، من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ؟!..»[٦٨].

فالتمدن : نبت طبيعي ، ونمو طبيعي ، بينه وبين مقدماته وموروثه وملابساته علائق تجعل له تمايزا عن نظيره الذى تختلف عنده المقدمات والمواريث والملابسات.. الأمر الذى يمايز بين الحضارات والشخصيات القومية لأمم هذه الحضارات..

وهذا التمايز الحضارى إذا كان يعنى الرفض «للتبعية» الحضارية ، والانسحاق أمام عدوانية الحضارة الغربية وغزوها الفكرى واستعلائها.. فإنه لايعنى الانغلاق الرافض لاستلهام مصادر القوة التى تدعم وتنمى النهضة المستقلة والمتميزة لحضارتنا العربية الإسلامية.. فرفض «التبعية» لابد وأن يقترن برفض التقوقع والعزلة والانغلاق... **فالتعددية الحضارية حقيقة من حقائق الواقع.. واكتفاء حضارة ما بذاتها عن غيرها من الحضارات هو خرافة من الخرافات !..**

* * *

على هذا النحو فكر تيار الجامعة الإسلامية.. وبهذا النهج صاغ معالم مشروع للنهضة الحضارية المستقلة ، لازال بانتظار من يطوره.. ويضعه فى الممارسة والتطبيق ![٦٩]

---

(٦٨) المصدر السابق ص ١٩٥ ـ ١٩٧.

(٦٩) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا [تيارات الفكر الإسلامى] ص ٢٨٥ ـ ٣٤٧

(٥)
جماعة الإخوان المسلمين

لقد بلغت الحرب العالمية الأولى [١٣٣٢ ـ ١٣٣٧ هـ ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م] بالوطن العربي والعالم الإسلامى قمة المأساة ؟ ! . .

فالوطن العربي قد سقط بأكمله ، تقريبا ، تحت الاحتلال الاستعمارى الغربي ، و « الخلافة العثمانية » قد أزالتها « العلمانية » التركية التى تزعمها كمال أتاتورك [١٢٩٨ ـ ١٣٥٧هـ ١٨٨٠ ـ ١٩٣٨م] فطويت صفحتها [سنة ١٣٤٢هـ ١٩٢٤م] . . وهكذا ضاع « الرمز » و « الشكل » الذى كان قد بقى « لحركة اليقظة الإسلامية » ، ترجو له الإصلاح وتحاول فى بنائه الترميم ! . . كما ضاع أمل « التيار القومى » العربي فى الدولة القومية العربية المستقلة ، ووضحت خديعة الاستعمار لهذا التيار . فلقد استعان به فى الحرب ضد الدولة العثمانية ، فى ذات الوقت الذى كان يوزع فيه وطنه ، وفق معاهدة « سيكس ـ بيكو » [١٣٣٤ ـ ١٣٣٥هـ ١٩١٦ ـ ١٩١٧م] بين أطراف المد الاستعمارى . . ويمهد السبيل « بوعد بلفور » [١٣٣٦هـ ١٩١٧م] لقيام كيان صهيونى عنصرى استيطانى ، يقطع امتداد أرض الأمة العربية ، فيحول دون وحدتها ، ويكون بمثابة القوة الضاربة لأحلام هذه الأمة ومساعيها فى التقدم والوحدة والانعتاق ! . .

ويومئذ علا صوت « تيار التغريب » ، حتى لقد انفرد بالساحة تقريبا . . وحقق مايشبه الهيمنة فى المدرسة والجامعة والمنتدى والصحيفة والكتاب

والديوان ... وفى طرائق العيش ، وترتيب المنازل ، ومناهج التفكير .. بل وفى القيم والمعايير والأخلاق ! .. الأمر الذى أجبر قطاعا من التيار الإسلامى - وخاصة أولئك الذين وقفت بهم اختياراتهم الفكرية عند الجمود الموروث - أجبره على التقوقع والانزواء .. **وكادت المقولة التى تزعم : أن تقدمنا رهن بأن نصبح غربا فى الحضارة ، وأن هذا هو الطريق لنكون شركاء للغرب ، بدلا من أن نظل مجرد هامش تابع له .. كادت هذه المقولة أن تصبح مسلمة من المسلمات ! ..**

وأمام هذا النجاح الذى حققه تيار « التغريب » ، لاح الخطر فى الأفق واضحا وعظيما .. فالوطن الذى تحول إلى « هامش » لاقتصاد الغرب الاستعمارى وأمنه ، يوشك أن يتحول إلى « هامش لحضارته » ، ولو تم ذلك فستتأبد التبعية ، وتذوب الهوية ، وتمسخ الشخصية الحضارية والقومية ، ويستحكم الاستغلال ! ..

وهنا ، وفى هذا المنعطف التاريخى ، عاد القانون القديم ليفعل فعله من جديد ... فتطلعت الأمة ، بالفطرة والوعى معا ، إلى حصنها العتيد ، إلى الإسلام ... وكان أن برز وتعاظم تيار اليقظة الإسلامية ، الذى تبلور هذه المرة « منظما - جماهيريا » ، والذى بدأ بتأسيس الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] لجماعة [الإخوان المسلمين] [سنة ١٣٤٧هـ ١٩٢٩م] .. وهى الجماعة التى أصبحت أوسع حركات الإصلاح الإسلامى وتنظيماته انتشارا وتأثيرا بعالمى العروبة والإسلام فى عصرنا الحديث ..

ونحن نستطيع أن نلمح فى « صورة الإسلام » لدى هذه الجماعة عددا من السمات ، منها :

١ ـ أن [الإخوان المسلمين] ، كحركة إحياء إسلامى ، لم يكن الإسلام عندها كما هو فى « المتون » و « الحواشى » و « التعليقات » و « الاعتراضات » التى أفرزها العصر المملوكى العثمانى .. بل تقدم [الإخوان] خطوات ، فتجاوزوا هذا المستوى المتسم بالجمود ، والمفتقر إلى الإبداع .. ومن هنا كانوا فصيلا من فصائل تيار التجديد..

٢ ـ لكن [الإخوان المسلمين] لم يبلغوا فى فهمهم الإسلام ، وتجديدهم لفكره ، وفى طرحهم الحلول الإسلامية لمشكلات العصر الفكرية مابلغته حركة [الجامعة الإسلامية] ، التى بلور فكرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وعبد الحميد بن باديس .. الخ .. الخ .. فدرجة « العقلانية » لدى تيار [الجامعة الإسلامية] لانجدها عند [الإخوان المسلمين] ، كما لانجد عندها الجرأة فى تناول القضايا ، ولا الحسم إذا ما عرضت لهذه القضايا ... وربما كان فى مقدمة أسباب ذلك أن [الجامعة الإسلامية] لم تكن تنظيما جماهيريا ، ينخرط فيه « العامة » وينهض بنيانه على « الجماهير » ، وإنما كانت حركة « صفوة » فكرية فى الأساس ، فلذلك عرضت للمشكلات بجرأة ، وقدمت الحلول الحاسمة ، وسلكت لذلك سبيلا بلغ فى « العقلانية » درجة إن لاءمت « الصفوة » فقد لاتلائم « العامة » و « الجمهور » ؟!.. وتلك قضية لاتخطئها عين الباحث فى المجتمعات المختلفة ، وفى أية مرحلة من مراحل التاريخ .. وفى تراثنا أمثلة تشهد لذلك .. [فالمعتزلة] ، مثلا ، وهم فرسان « العقلانية الإسلامية » فى تراثنا ، كانت تقل « شعبيتهم » ويتقلص « جمهورهم » كلما زادت قسمة الفكر « الفلسفى » فى بنائهم النظرى !..

٣ ـ وكما لم يكن [الإخوان المسلمون] على مستوى فكر حركة [الجامعة

الإسلامية] ، عمقا وجرأة وحسما ، فإنهم ، كذلك ، لم يكونوا ـ فى هذا الميدان ـ متواضعين إلى المستوى الذى وقفت عنده [الوهابية] أو [السنوسية] أو [المهدية] ، وذلك لنشأة [الإخوان] فى المجتمع المصرى ، الذى بلغ فى التحضر والتقدم مستويات لاتلائمها أفكار دعوات جاءت لتلائم بيئات بسيطة أو بدوية ، لاحاجة لها إلى الفكر المركب ، إذ باستطاعتها حل مشكلات تلك البيئة البسيطة بظواهر النصوص !..

لقد وقف تيار [الإخوان] ، فكريا ، بين بين .. فلا هو بلغ « عقلانية » الأفغانى ومحمد عبده .. ولاهو وقف عند بساطة محمد بن عبد الوهاب !.. كما أن دعاته لم يكونوا، أبدا، من «وعاظ السلاطين»، الذين يبررون للواقع الظالم والبائس الذى تعيشه الأمة !.. **فلقد كانوا : الشكل الجماهيرى للبعث الإسلامى الحديث .. والرد الإسلامى على التحدى الحضارى . الذى تمثل ، أساسا ، فى « تيار التغريب »** ..

التصدى للتغريب :

قلنا إن الحضارة الغربية ، ذات الطابع المادى ، قد اقتحمت على الواقع الإسلامى والعقل المسلم حصونه .. فبعد أن احتلت الديار ، ونهبت الثروات ، اقتحمت ميدان الفكر ، بل والفكر الدينى أيضا .. حتى لقد كتب « شيخ » ليثبت « علمانية الإسلام » ، وليقول عنه إنه دين لا سياسة ، ودعوة روحية لاعلاقة لها بالدولة والحكومة(٧٠) .. وكتب آخر عن القرآن كما يكتب

(٧٠) الشيخ على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] .

عن المأثورات التاريخية ، بلا مراعاة لما له ولقصصه من « قداسة » نابعة من « الإيمان »[٧١] ؟!..

وأمام هذا التحدى ، لم يكن هناك بد ــ طالما فى الأمة أصالة ونفاسة معدن وبقية من روح وحيوية ــ لم يكن هناك بد من تنبه المشاعر « القومية » ، ردا على « الغزو السياسى » ، و « الإسلامية » ، ردا على « التغريب الفكرى والاجتماعى » !.. وبعبارة الأستاذ البنا : « .. **إن الحضارة الغربية ، بمادئها المادية ، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الإسلامية ، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معا ، فى أرض الإسلام نفسه ، وفى حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم ، كما انتصرت فى الميدان السياسى العسكرى ... وكما كان لذلك العدوان السياسى أثره فى تنبيه المشاعر القومية ، كان لهذا الطغيان الاجتماعى أثره كذلك فى انتعاش الفكرة الإسلامية ..** »[٧٢] .

ونحن نقرأ للأستاذ البنا الكثير من النصوص التى تكشف أسباب عدائه للطابع المادى للحضارة الغربية .. فهو يرى أن من أمراض هذه الحضارة ماهو مزمن .. وذلك مثل :

١ ــ الإلحاد والشك فى الله وإنكار الروح والجزاء الأخروى والوقوف عند حدود الكون المادى المحسوس ..

٢ ــ والإباحية والتهافت على اللذة والتفنن فى الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها ..

---

(٧١) د. طه حسين [فى الشعر الجاهلى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

(٧٢) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٤٠ . طبعة دار الشهاب . القاهرة .

٣ ـ والأثرة فى الأفراد..

٤ ـ والربا...

ثم يمضى فيقول : « ولقد أثبتت هذه المدنية الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع وإقرار الطمأنينة والسلام فيه ، وفشلت فى إسعاد الناس ، رغم مافتحت عليهم من حقائق العلم والمعرفة وما وفرت لهم من أسباب الغنى والثراء ، ومامكنت لدولها فى الأرض من قوة وسلطان . ولما يمض عليها قرن كامل من الزمان...»

ثم يتحدث عن انتقال هذا الخطر ، بالاستعمار ، إلى بلادنا ، وتهديده لمصيرنا بذات الخطر الذى أصاب « نفس » الإنسان الأوربى ، فيقول : « وقد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية ، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة ، جميع البلاد الإسلامية التى امتدت إليها أيديهم وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم ، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة... ونجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم ـ بالمدارس العلمية والثقافية فى عقر ديار الإسلام ـ والتى ضمت أبناء الطبقة العليا ـ فعلمتهم كيف ينتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويقدسون كل ماهو غربى ، ويؤمنون بأن مايصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة ـ نجح هذا الغزو الاجتماعى المنظم أعظم النجاح ، فهو غزو محبب إلى النفوس ، لاصق بالقلوب ، طويل العمر ، قوى الأثر ، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف..»[٧٣] ؟!

(٧٣) المصدر السابق . ص ١٣٧ ـ ١٣٩ .

والأستاذ البنا ، هنا ، يعيد إلينا ـ فى حسم وصفاء ووضوح ـ موقف تيار [الجامعة الإسلامية] ، الذى تنبه إلى خطر الغزو الحضارى الغربى على الذاتية الحضارية المتميزة لأمتنا .. ويثبت أن دعوة [الإخوان] وحركتها ، إنما كانت ، فى جانب أساسى منها ، تصديا « للتغريب » ، كجناح من جناحى « التحدى الحضارى » الذى تواجهه حركة اليقظة الإسلامية .. وفى الظروف التى صاحبت نشأة [الإخوان] كان « التغريب » هو الأشد خطرا على ذاتيتنا الحضارية الإسلامية وشخصيتنا القومية العربية وعقائد ديننا الإسلامى الحنيف !..

* * *

والتخلف الموروث :

ولم يكن عداء [الإخوان المسلمين] « للتغريب » نابعا من رضائهم عن الواقع الفكرى المتمثل فى تصورات المسلمين للإسلام ، أو تطبيقاتهم لتعاليمه .. ولذلك وجدناهم ، عند التحليل « للموروث » عن السلف يميزون بين « **الدين** » ، كما تمثل ويتمثل فى منابعه النقية ، قرآنا وسنة ، وبين « **الفكر** » الذى مثّل « لون عصره » و « **قضايا المجتمع** الذى نشأ فيه » .. فـ « **الدين** » ملزم .. أما هذا « **الفكر** » فهو غير ملزم ، ثم إن فيه « النافع » وفيه « الضار » ، الذى يجب تجاوزه بالتجديد ..

وهم فى تحليلهم لما أصاب « الإسلام السياسى » والدولة الإسلامية عبر مسيرتها التاريخية ، لم يدافعوا عن « الموروث » الذى ساد فى العصور « المملوكية ـ العثمانية » ، ذلك الذى أتاح الفرص وفتح الثغرات « لوافد التغريب » !... بل قالوا إن الانقطاع قد أصاب ازدهار الدولة الإسلامية ،

فتحللت عوامل قوتها .. ثم رصدوا ـ على لسان الأستاذ البنا ـ أهم عوامل التحلل فى كيان « الدولة الإسلامية » فى هذه الأسباب :

(ا) الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه ..

(ب) الخلافات الدينية والمذهبية ..

(جـ) الانغماس فى ألوان الترف والنعيم ..

(د) **انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه ..**

(هـ) **إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية** ، وصرف الأوقات وتضييع الجهود فى فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ..

(و) **غرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم ، حتى سبقتهم فى الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة .**

(ز) **الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم فيما يضر ولاينفع .. »**[٧٤] .

وكان واضحا لدى [الإخوان] ، كذلك ، أنهم دعاة « تجديد » للموروث الفكرى الجامد والمتخلف .. وبعبارة الأستاذ البنا .. « **فالإخوان .. دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب** .. »[٧٥] .

وهذا النهج التجديدى ، لم يكن مجرد « تجديد فكرى » ترقى به أذهان

---

(٧٤) المصدر السابق . ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٧٥) المصدر السابق . ص ١٢٢ .

« الصفوة » أو تستمتع به عقول « النخبة » ، وإنما كان تجديد « حياة الأمم والشعوب » . فالإخوان دعوة تتوجه إلى الجماهير والعامة ، تبغى خلق الفرد المسلم .. والأسرة المسلمة .. والأمم المسلمة[76] ، انطلاقا من العقيدة الإسلامية ، والحركة التى تضع هذه العقيدة ، حية ، فى الممارسة والتطبيق ..

وبسبب من هذا النهج التجديدى ، فلقد كان « للعقل والعقلانية » ، فى فكر [الإخوان] ، مكان إن لم يكن بارزا فهو ملحوظ ؟ ! ..

فلقد قطع الأستاذ البنا باستحالة الخلاف والصدام بين « النظر العقلى » و « النظر الشرعى » فى الأمور « القطعية » .. ورأى أن بعض المجالات مختص بواحد من سبل النظر دون الآخر .. كالإلهيات ، مثلا .. « فذات الله ، تبارك وتعالى ، أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ، أو تدركها الأفكار الإنسانية ، لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة ، محصورة القدرة .. فالعقل البشرى قاصر عن إدراك حقائق الأشياء ..[77] » فى مثل هذه الميادين .. ولذلك ، فإن « الإسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها ، وعرفها قلة علمها ، وندبها إلى الاستزادة من معارفها ، فقال تعالى : [وما أوتيتم من العلم إلا قليلا][78] .. وقال تعالى : [وقل رب زدنى علما[79]] .. »[80] .

وإذا كانت « طبيعة المبحث » هى التى تحدد أداة النظر فيه ، وهل الأولى

---

(٧٦) المصدر السابق . ص ٤٥ .

(٧٧) المصدر السابق . ص ٢٩٦ .

(٧٨) الإسراء : ٨٥ .

(٧٩) طه : ١١٤ .

(٨٠) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ٢٩٤ .

أن تكون « العقل » أو « الشرع » ، فإن خلافهما إنما يكون فى « الظاهر » وفيما هو « ظنى » لم يبلغ فيه أحدهما مرتبة « اليقين » ... « فقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى مالا يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى ، **فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة . ويؤول الظنى منها ليتفق مع القطعى . فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار** .. »[(٨١)] .

وإذا كان الإسلام قد رفض « غرور العقل » و« انفراده بالنظر » فى كل الميادين ، ودعا إلى التوازن بين نظره وبين النظر الشرعى .. فإنه « لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول[(٨٢)] ... بل جاء يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شىء . « والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها »[(٨٣)] ... »[(٨٤)] .

* * *

والبراءة من الغلو :

لكن هذه الدعوة التجديدية لم تبلغ فى نقدها لواقع « التخلف ـ الموروث » حد الغلو الذى بلغته دعوات إسلامية عاصرتها أو لحقتها ، عندما حكمت « بالجاهلية » أو « بالكفر » ، أوبهما معا على الواقع الذى يعيش فيه المسلمون ..

---

(٨١) المصدر السابق . ص ٢٧١ .

(٨٢) المصدر السابق . ص ٢٩٤ .

(٨٣) رواه الترمذى وابن ماجة .

(٨٤) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ٢٧٠ .

لقد عمل [الإخوان] من خلال المجتمع ، لا من موقع الذى يدينه وينعزل عنه فى استعلاء !.. وكما سلطوا الضوء على « الوافد » غير الإسلامى . « موروثا » كان أو « غربيا حديثا » ، كذلك احتضنوا ماحفظ المسلمون من إسلامهم .. فقط طلبوا استكمال الناقص ، وتكامل المتفرق وتصحيح الخاطئ ، وأخذ الإسلام ، بجد ، كنظام شامل للدنيا والآخرة ، والفرد والأسرة والأمة جميعا .. لقد رفضوا « تكفير » « الفرد » بالمعصية حتى ولو كانت « كبيرة » ، وكتب الأستاذ البنا يقول : **إننا « لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ، برأى أو معصية ، إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لاتحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملا لايحتمل تأويلا غير الكفر.. »**[٨٥] ..

كذلك هم لايكفرون « المجتمع » بسبب ابتعاد نظمه الحياتية ، فى كثير من جوانبها عن شريعة الإسلام ، بل يرونه « ناقص الإسلام » ، لكنه « النقص » الذى لايدخله فى « الكفر » أو « الجاهلية » ؟!.. والشيخ حسن البنا يتحدث عن المجتمع المصرى فيبرز ـ فى حنو الداعية ـ مافيه من إيجابيات ، ثم يدعو ـ فى لين وهوادة ـ إلى استكمال النواقص وتلافى السلبيات ، فيقول : « لقد اندمجت مصر بكليتها فى الإسلام بكليته ، عقيدته ولغته وحضارته ، ودافعت عنه وذادت عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين .. وجاهدت فى سبيله ماوسعها الجهاد بمالها ودم أبنائها ، وأنقذته من براثن التتار والصليبيين ، وردت الجميع على أعقابهم خاسرين ، واستقرت فيها علوم الإسلام

---

(٨٥) المصدر السابق . ص ٢٧١

ومعارفه ، واحتوت الأزهر أقدم جامعة تقوم على حياطته ورعايته وحراسته ، وانتهت إليها زعامة شعوبه الأدبية والاجتماعية ، وصارت مطمح أنظار الجميع ومعقد آمالهم . هذا الإسلام : عقيدته ونظمه ولغته وحضارته ، ميراث عزيز غال على مصر ، ليس تفريطها فيه بالشيء الهين ولا إبعادها عنه بالأمر المستطاع مهما بذلت فى سبيل ذلك الجهود الهدامة المدمرة . ومن هنا بدت **مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب الحياة المصرية : فأسماؤها إسلامية ، ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء ، وهذه مشاعرنا لاتهتز لشيء اهتزازها للإسلام ومايتصل بالإسلام . كل ذلك حق** . »

ثم يمضى الأستاذ البنا فيركز النقد على « الوافد الغربى » ، الذى شوه بروحه المادية إسلامية المجتمع وانتقص منها .. فيقول : « ولكن هذه الحضارة الغربية قد غزتنا غزوا قويا ، بالعلم والمال ، وبالسياسة والترف والمتعة واللهو وضروب الحياة الناعمة العابثة المغرية التى لم نكن نعرفها من قبل . فأعجبنا بها ، وركنا إليها ، وأثر هذا الغزو فينا أبلغ الأثر ، **وانحسر ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية فى كثير من شئونها الهامة ، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصبغ معظمها بالصبغة الأوربية ، وحصرنا سلطان الإسلام فى حياتنا على القلوب والمحاريب ، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية ، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة ، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة !** . »[٨٦]

فهو لا يدين المجتمع بالارتداد عن « الإسلام » إلى « الجاهلية » أو

---

(٨٦) المصدر السابق . ص ١٢٠ ، ١٢١ .

« الكفر » بعد « الإيمان » !.. وإنما يدعو إلى استكمال الناقص ، وإلغاء « الثنائية » التى أثمرتها الغزوة الحضارية الغربية .. إنه يستنهض همة الأمة إلى استكمال إسلامها بتحقيق « استقلالها الحضارى » عن الأعداء ؟!..

* * *

والاستقلال السياسى :

لقد اشترك [الإخوان] مع جمهرة الأحزاب والجماعات الوطنية والقومية فى الدعوة إلى « الاستقلال السياسى » ، والنضال فى سبيله .. وزادوا عن هذه الأحزاب والجماعات عندما اتسعت رؤيتهم لحدود « الوطن » ليشمل : القطر الخاص أولا ، ثم يمتد إلى الأقطار الإسلامية ـ [عبر وطن الأمة العربية] ـ ثم يرقى إلى الامبراطورية الإسلامية الأولى ... »[٨٧] .

ولقد أعلنوا ـ بصدد الدعوة « للاستقلال السياسى » ، والجهاد فى سبيله ـ رفض « الشعوب الشرقية لما أصابها من إساءة الغرب إليها إساءة نالت من عزتها وكرامتها واستقلالها ، وأخذت من مالها ومن دمها .. فهى تتألم من هذا النير الغربى الذى فرض عليها فرضا ... »[٨٨] .

ودعوا إلى الجهاد ضد الدول الاستعمارية .. « فكل دولة اعتدت وتعتدى على أوطان الإسلام دولة ظالمة ، لابد أن تكف عدوانها . **ولابد من أن يعد المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين على التخلص من نيرها .. لأن الإسلام لايرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال . فضلا عن السيادة وإعلان**

---

(٨٧) المصدر السابق . ص ٦٢ .

(٨٨) المصدر السابق . ص ١٧ .

الجهاد . ولو كلفهم ذلك الدم والمال ..»(٨٩)

ولقد مارس [الإخوان] الجهاد العملى ، والمسلح ، كلما سنحت لهم الفرصة لممارسته .. فى فلسطين [١٣٦٦ ـ ١٣٦٧هـ ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م] ضد الصهيونية ومن وراءها .. وفى [١٣٧١هـ ١٩٥١ ـ ١٩٥٢م] ضد الإنجليز فى مصر ..

هذا عن « الاستقلال السياسى » ..

* * *

والاستقلال الاقتصادى :

ولقد كانت قوى وطنية عديدة تقنع ، فى مجال « الاستقلال الاقتصادى » ، بما يحقق مجرد « مشاركة » قواها الاجتماعية والطبقات التى تمثل مصالحها ـ مجرد « مشاركة » هذه القوى الاجتماعية ـ للاستعمار فى استثمار ثروات البلاد .. لكن جماعة [الإخوان] كانت من بين القوى السياسية التى امتلكت رؤية واضحة فى هذا الميدان ، وهذه الرؤية قد جعلتهم دعاة تحرير كامل لاقتصاديات الأمة من قبضة السيطرة والاستغلال الاستعماريين .. كذلك كانوا دعاة اعتماد على الذات فى بناء الاقتصاد الوطنى والقومى المستقل ، ودعاة إقامة الروابط مع أجزاء العالم العربى والأمة الإسلامية . لإقامة التكتل الاقتصادى الذى يدعم إمكانات المستضعفين فى صراعهم الاقتصادى ضد سيطرة المستعمرين الأغنياء الأقوياء المستبدين ..

---

(٨٩) المصدر السابق . ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

لقد امتلك الإسلاميون وضوح الرؤية فى الجهاد لتحقيق هذا « الاستقلال الاقتصادى » منذ دعوة [الجامعة الإسلامية] التى أعلنت أن غايتها الاقتصادية هى :

● « ثروة المسلمين للمسلمين . وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الإسلامى هى لهم . يتنعمون بها . وليست لنصارى الغرب يستنزفونها ..

● ونفض اليد من رءوس الأموال الغربية . والاستعاضة عنها برءوس أموال إسلامية ..

● وتحطيم نواجز أوربة . تلك النواجز العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين . تلك الموارد التى مادامت خارجة من أيدى العالم الإسلامى فسيظل عالة على الغرب .. »[90] !؟..

فبدون تحرير الثروات الإسلامية .. والاستقلال الاقتصادى . ستظل التبعية للغرب قيدا يجعل « استقلالنا السياسى » عنه شكليا . ويحرمنا . من ثم ، المضمون الحقيقى للاستقلال ! ..

ولذلك تناثرت فى كتابات الأستاذ البنا الأحاديث الداعية إلى رفض سيطرة الشركات الأجنبية على اقتصاديات مصر[91] .. الأمر الذى جعل الأجانب المحتلين أحسن حالا من بنيها[92] .. وضرورة تحقيق « نظام اقتصادى

---

(٩٠) لوثروب ستودارد [حاضر العالم الإسلامى] المجلد الأول . جـ١ ص٣٢٨ ترجمة : عجاج نويهض تعليق : شكيب أرسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م

(٩١) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٤١

(٩٢) المصدر السابق . ص ٢٣١

استقلالى للثروة والمال » . تحقق فيه « استقلال نقدنا » عن فلك الاستعمار «وتمصير الشركات ، وإحلال رءوس الأموال الوطنية محل رءوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك ، وتخليص المرافق العامة ـ وهى أهم شيء للأمة ـ من يد غير أبنائها ، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية ، تبلغ رءوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات ، ولا يصيب الجمهور الوطنى ولا العامل الوطنى منها إلا البؤس والشقاء والحرمان » .. كذلك « تجب العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى ، المهملة ، التى طال عليها الأمد .. ويجب التحول إلى الصناعة فورا .. فهذا التحول هو روح الإسلام ! .. مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية .. وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات ، والاكتفاء بالضروريات ، وأن يكون الكبار فى ذلك قدوة للصغار » .. وأن يتم ذلك فى تعاون وتكامل بيننا وبين العرب والمسلمين ، وذلك « أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام .. تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتى والاستقلال الاقتصادى ، وتنقذنا من التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما .. »[٩٣] كما قال المرشد العام للإخوان المسلمين ؟! ..

نعم .. لقد كانت هناك مايمكن أن نسميها : الدعوة « للجهاد الاقتصادى » ضد الأعداء ؟! .. ولذلك كان الشيخ البنا يهيب بالأخ المسلم قائلا : **يجب « أن تخدم الثروة الإسلامية ، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية ، وأن تحرص على القرش ، فلا يقع فى يد غير إسلامية**

(٩٣) المصدر السابق ص ١٠٠ ، ٢٣٨ ـ ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

مهما كانت الأحوال . ولاتلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامى !..»[٩٤] .

* * *

والعدل الاجتماعى :

أما العدالة فى التوزيع للثروة ، والتى لابد منها كى تعم خيرات تحرير الثروة وتنميتها جمهور الأمة ، فمن ملامحها :

١ـ إصلاح الواقع القائم ، والمتمثل ـ كما قال الشيخ البنا ـ فى « التفاوت العظيم ، والبون الشاسع ، والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة فى هذا الشعب » ، والذى أدى إلى وجود « ثراء فاحش وفقر مدقع ، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة ..» ..... إصلاح هذا الواقع « بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات ، تقريبا يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع ..»

٢ـ « محاربة الربا ... وجمع الزكاة ... وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى ـ بحسب المال لابحسب الربح ـ يعفى منها الفقراء طبعا ، وتجبى من الأغنياء الموسرين ، وتنفق فى رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة[٩٥] ... والتوسط بين الأغنياء الغافلين والفقراءالمعوزين ، بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع فى المواسم والأعياد ..»[٩٦]

٣ـ إصلاح الخلل المتمثل فى التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية فى

---

(٩٤) المصدر السابق . ص ٢٧٩

(٩٥) المصدر السابق . ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢

(٩٦) المصدر السابق . ص ١٢٣

الريف ، ذلك أن « روح الإسلام الحنيف وقواعده الأساسية فى الاقتصاد القومى توجب علينا أن نعيد النظر فى نظام الملكيات فى مصر ، فنختصر الملكيات الكبيرة ، ونعوض أصحابها عن حقهم بماهو أجدى عليهم وعلى المجتمع ، ونشجع الملكيات الصغيرة ، حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم فى هذا الوطن مايعنيهم أمره ، ويهمهم شأنه ... وأن توزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار !..»[97].

فذلك هو الطريق لتحرير الثروة الإسلامية من يد ناهبيها الاستعماريين... والطريق إلى التنمية الاقتصادية المستقلة ، وإلى عموم الخير أبناء الأمة . حتى يشعروا بفائدة « الاستقلال الاقتصادى » عندما « يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم فى هذا الوطن مايعنيهم أمره ويهمهم شأنه !» ... كما قال الشيخ حسن البنا..

* * *

والاستقلال الحضارى :

فى الوقت الذى كان الكثيرون مبهورين فيه بالحضارة الغربية ، يتخذونها النموذج المحتذى ، والقبلة التى تتجه إليها قلوبهم وعقولهم فى شئون الدنيا والعمران.. كان [الإخوان المسلمون] ينبهون إلى « أزمة » هذه الحضارة و« إفلاسها » ودخولها « الطريق المسدود » ؟!... فيكتب الشيخ البنا : « إن **مدنية الغرب** ، التى زهت بجمالها العلمى حينا من الدهر ، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه ، **تفلس الآن وتنحر** !... **فهذه أصولها**

---

(٩٧) المصدر السابق . ص ٢٤٢

السياسية تقوضها الدكتاتوريات . وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات .. وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المبادئ الشاذة والثورات المندلعة فى كل مكان . وقد حار الناس فى علاج شأنها وضلوا السبيل !...»[98] .

لكن هذا « الإفلاس والانتحار » لم ينبه « المتغربين » إلى ضرورة الانصراف عن اقتفاء طريق « المفلس » الساعى إلى « الانتحار » ؟!.. لأن هؤلاء « المتغربين » قد غدوا أسرى الفكر الذى رضعوه من ثدى هذه الحضارة ، ونمط العيش الذى اعتادوه فتقيدوا به إلى أوتادها !.. فهؤلاء ــ كما يقول الشيخ البنا ــ « **حكامنا جميعا قد تربوا فى أحضان الأجانب ، ودانوا بفكرتهم ، على آثارهم يهرعون ، وفى مرضاتهم يتنافسون . ولعلنا لانكون مبالغين إذا قلنا : إن الفكرة الاستقلالية فى تصريف الشئون والأعمال لم تخطر ببالهم ، فضلا عن أن تكون منهاج عملهم !..**»[99] .

وليت الأمر قد وقف عند « الحكام » وحدهم .. بل إن البلوى توشك على العموم !... « فالتقليد الغربى يسرى فى مناحى حياة الأمة سريان لعاب الأفاعى ، فيسمم دماءها ، ويعكر صفو هنائها[100] ... وأكبر مانخشاه الإخوان المسلمون أن تندفع الشعوب الشرقية الإسلامية فى تيار التقليد ، فترقع نهضاتها بتلك النظم البالية التى انتقضت على نفسها ، وأثبتت التجربة فسادها وعدم صلاحيتها !..»[101] .

---

(٩٨) المصدر السابق . ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٩٩) المصدر السابق . ص ١٠٥ .

(١٠٠) المصدر السابق . ص ٢٧ .

(١٠١) المصدر السابق . ص ٤٦ .

وأمام هذا الخطر ، خطر الغزو الحضارى والتبعية الحضارية ، التى جعلت « أبناء الطبقة الراقية ينتقصون أنفسهم ، ويحتقرون دينهم ووطنهم ، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويقدسون كل ماهو غربى ، ويؤمنون بأن مايصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة !..» .. أمام هذا « الغزو الاجتماعى المنظم .. والمحبب إلى النفوس ، واللاصق بالقلوب » ، والذى يتميز ، لذلك ، بطول العمر ، وقوة الأثر حتى ليصبح « أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف !»[١٠٢] .. أمام هذا الخطر دعا [الإخوان] إلى الجهاد ، وإلى الاعتصام بحضارة الإسلام ، تحييها ، وإلى التصدى لآثار الغزوة الحضارية الغربية ، تميتها ، باقتلاعها من العقول والقلوب والنفوس ، وإحلال البدائل الإسلامية محلها ...

فمن واجبات الأخ المسلم ـ وفق تعاليم الشيخ البنا ـ : « القضاء على الروح الأجنبية فى البيوت .. وبخاصة بيوت الطبقات الراقية[١٠٣] .. وإماتة العادات الأعجمية فى كل مظاهر الحياة ، وأن تعمل ما استطعت على إحياء العادات الإسلامية .. ومن ذلك : التحية ، واللغة ، والتاريخ ، والزى ، والأثاث ، ومواعيد العمل والراحة ، والطعام والشراب ، والقدوم والانصراف ، والحزن والسرور .. الخ .. وأن تتحرى السنة المطهرة فى ذلك »[١٠٤] .

فلكى يتحقق استقلالنا الحقيق لابد من « الاستقلال الحضارى » وفصم عرى التبعية للاستعمار .. بل إن هذا « الاستقلال الحضارى » ، الرافض للتبعية

---

(١٠٢) المصدر السابق . ص ١٣٩

(١٠٣) المصدر السابق . ص ٧٧

(١٠٤) المصدر السابق . ص ٢٧٩

والتقليد ، هو الشرط الذى لابد من تحقيقه كى يكتمل لأمتنا إسلامها ، وبدونه سيظل إسلامها منقوصا ، مثلها فى ذلك كمثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب دون بعضه الآخر؟!.. فما دام «الإسلام هو هذا المعنى الكلى الشامل ، فواجب أن يهيمن على كل شئون الحياة ... **أما إذا أسلمت الأمة فى عباداتها ، وقلدت غير المسلمين فى بقية شئونها ، فهى أمة ناقصة الإسلام ،** تضاهئ الذين قال الله تعالى فيهم : [أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟! فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعلمون](١٠٥) ...»(١٠٦) .. ولذلك ، فإنه «لا عذر لنا إن جانبنا طريق الحق ، طريق الإسلام ، واتبعنا طريق الشهوات والزخارف ، طريق أوربا ! ..»(١٠٧) ـ كما يقول الأستاذ البنا ـ .

وهذا الاستقلال : «السياسى» ، و«الاقتصادى» ، و«الحضارى ـ الاجتماعى» ، ستكون من ثمراته : «الشخصية الحضارية المسلمة» ، «المستقلة فكريا» ! .. والتى لا تستعبدها نظريات الغرب الاستعمارى ... فالتفكير المستقل ، هو الآخر ، هدف من أهداف اليقظة الإسلامية .. وبعبارة الأستاذ البنا : **فنحن «نريد أن نفكر تفكيرا استقلاليا ، يعتمد على أساس الإسلام الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شىء ، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة**

---

(١٠٥) البقرة : ٨٥ .

(١٠٦) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٥٤ .

(١٠٧) المصدر السابق . ص ٧٣ .

مجيدة ، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد ! ..» [١٠٨].

هكذا بلغ [الإخوان] القمة فى وعى المضامين الحقيقية ، والتى لا غنى عنها ، لتحقيق الاستقلال الحقيقى للأمة ، وتحريرها تحريرا كاملا من آثار الغزوة الاستعمارية التى أصاب بها الأوربيون ديار العروبة وعالم الإسلام.. ولا نعتقد أن تيارا آخر ، غير تيار «الإسلام الشامل» واليقظة الإسلامية قد بلغ هذا المبلغ فى هذا الميدان !..

ويزيد من خطر هذه الحقيقة ، ويرفع من قدرها وشرفها .. أن الدعوة إلى هذا «الاستقلال الكامل.. والحقيقى» ، لم تكن دعوة حزب يحصر رؤيته ودعوته وحركته فى إقليم من الأقاليم ، أو حتى قومية من القوميات .. وإنما كانت دعوة جماعة تنطلق من الوطن الخاص .. إلى وطن الأمة القومية .. إلى وطن الملة والدين .. ثم إنها لم تبغ من وراء ذلك مجرد الاستقلال الكامل لأمتها ، بل لقد رأت فى ذلك سبيلا لعودة هذه الأمة ، ثانية ، لمركز الصدارة والقيادة والعطاء عالميا .. فتلك هى مؤهلات السبق فى الرهان والسباق الذى يجب أن يقوم على قدم وساق لوراثة القيادة من الحضارة الغربية «المفلسة» ، المنحدرة فى طريق «الانتحار» ! !... «لقد كانت قيادة الدنيا ، فى وقت ما ، شرقية بحتة ، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية ، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية ، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ، ونهض الغرب نهضته الحديثة .. فورث الغرب القيادة العالمية . وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط ، فلم تبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية ، يظللها لواء الله ، وتخفق على رأسها راية

---

(١٠٨) المصدر السابق . ص ١٢٠ .

القرآن ، ويمدها جند الإيمان القوى المتين ، فإذا الدنيا مسلمة هانئة ، وإذا بالعوالم كلها هاتفة : [الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله] [109] .. » [110] .

والتفاعل الحضارى :

وإذا كانت « السلفية النصوصية » قد ارتابت فيما تم ـ فى تاريخنا الحضارى ـ من تفاعل بين العرب المسلمين وبين المواريث الحضارية لليونان والفرس والهنود ، ورفضت ثمرات هذا التفاعل ... فإن الشيخ حسن البنا قد رأى فى هذا التفاعل الحضارى وثمراته ـ والذى أحييت به حضارتنا وجددت واستلهمت ـ وفق معايير الإسلام ـ مواريث الأمم التى فتح المسلمون بلادها ـ رأى الشيخ البنا فى هذا التفاعل الحضارى وثمراته ظاهرة صحية ، ومبعث فخار لأمتنا .. لقد كان جسم الأمة صحيحا وعقلها راشدا .. فنظرت فى مواريث الآخرين وتأملت وقدّرت ، ثم تمثلت ما هو ضرورى لها ومفيد ، فازداد بذلك جسمها صحة وعقلها رشدا ؟! .. وبعبارة الرجل : « فلقد اتصلت هذه الأمم الإسلامية بغيرها من الأمم ، ونقلت كثيرا من الحضارات ، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعا ، فعربتها أو كادت ، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال ، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعا ، من غير أن يؤثر ذلك فى وحدتها الاجتماعية أو السياسية .. » [111]

---

(109) الأعراف . 43 .

(110) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص 60

(111) المصدر السابق . ص 130 .

ولقد كان ضروريا ، أمام الهجمة التغريبية العاتية ، وإزاء الضعف الذى أصاب ذاتية الأمة وقواها الواعية المستقلة ، كان ضروريا لفت الأنظار إلى أهمية التمييز بين «التفاعل الحضارى» و«الاستفادة» التى ينهض بها «السليم-الراشد» ، وبين «التقليد والتبعية» ، اللذين يفرضهما الغالب على المغلوب ... فالأولى تزيد «السليم» سلامة ، و«الراشد» رشدا .. أما الأخرى فهى مسخ للشخصية الحضارية المتميزة ، وقهر يمارسه الغالب للمغلوب ! «فالإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها ، ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه ، فى كل شىء ، بمن ليسوا من دين الله على شىء ، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه ، لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين ! »(١١٢) .

* * *

عالم اليقظة الإسلامية :

لقد أرسل الله ، سبحانه وتعالى ، رسوله ، صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين كافة .. فكانت عالمية الإسلام ، التى تتعدى حدود الأوطان والقوميات والقارات والأجناس ، واحدة من المبادئ التى انعقد عليها الإجماع ...

لكن عصرنا قد شاعت وتشيع فيه مصطلحات من مثل «الوطنية» و«القومية» حتى لقد غدت «نظريات» و«مذاهب» لأحزاب وجماعات .. واشتجر الجدال واحتدم النقاش حول مكان هذه المصطلحات و«دوائرها»

---

(١١٢) المصدر السابق . ص ٩٨ .

و « حدودها » فى معايير الإسلام .. فاستنكرها البعض جملة وأنكرها بإطلاق ، لأنها ـ بنظره ـ من « وافد التغريب » ! .. وتعصب لها البعض ، جملة وبإطلاق ..

لكن الأستاذ البنا يدعونا إلى النظر فى المضامين أولا وأساسا ، فما وجدناه من مضامينها صالحا ، مع الروح العالمية للإسلام قبلناه ، بل وقبلنا معه ذات المصطلح والوعاء !.. وما ليس كذلك رفضناه .. وهو ينهج فى معالجة هذه القضية نهجا حكيما ، تألق فيه فكره وأضاء ..

إنه يحتكم إلى الفطرة الإنسانية ـ والإسلام هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ـ .. التى تتعلم منها تعدد وتدرج الدوائر التى تجتذب انتماء الإنسان وولاءه ، دونما تعارض أو تناقض بينها ... فذاتية الفرد .. وروابطه الأسرية .. وعلاقاته العائلية أو القبلية أو العشائرية .. والجامع الوطنى الذى يجمعه بشعبه .. وروابطه القومية مع الأمة القومية ... وآصرة الملة والاعتقاد ... ثم الرابطة الإنسانية العامة ... هذه الروابط ، ودوائرها إذا اتسمت بنقاء الفطرة الإنسانية ، وبرئت من التعصب والعنصرية ، فلن يوجد بينها تعارض ولا تناقض ولا تضاد ... إنها واقع فطرى ، تهذبها عالمية الإسلام عندما تنفى عنها التعصب العرق والحمية الإقليمية والنعرات القومية ، وتستثمر إيجابياتها للصالح الخاص والعام معا ؟! ..

بهذا النهج ، تناول الشيخ البنا علاقة الوطنية ـ التى كان يسميها « القومية الخاصة » ـ بالدائرة « القومية العامة » ـ أى الدائرة العربية ـ بالدائرة الإسلامية ـ إطار الجامعة الإسلامية ـ .. فحدثنا عن أن الإسلام ، الذى « يعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الإسلامى وطنا

واحدا .. »[١١٣] لا يتنكر للوطنية ، ولا للقومية .. بل يرى « الجامعة الإسلامية » ثمرة تلى الدائرة القومية ، التى تلى ، هى الأخرى ، دائرة الوطن الذى نشأ فيه المسلم !.. فقط ينكر الإسلام ويستنكر أن تعنى القومية « العصبية الجنسية والفخر الكاذب » .. أما إذا عنت « الاعتزاز بالمزايا والتاريخ » فهى مما تحتاج إليه « الأمم الناهضة »[١١٤] عندما تواجه التحديات التى تحول بينها وبين النهوض !..

وفى مكان آخر ، يزيد الأستاذ البنا هذه المعانى ـ الخاصة « بالدوائر » المتتالية فى ارتباط وتناسق ـ يزيدها تأكيدا ، فيقول : « **إن الإخوان المسلمين يحبون وطنهم . ويحرصون على وحدته القومية** .. ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان ... وقد جاء فى الأثر : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ! . وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى ، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، **فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه** ... **ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لابد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه** . **ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها** .... إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة ، باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، ولا يرون بأسا **أن يعمل كل إنسان لوطنه . وأن يقدمه فى العمل على سواه** .. ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية .

---

(١١٣) المصدر السابق . ص ١٧٦ .

(١١٤) المصدر السابق . ص ٦١ ، ٦٢ .

باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض . ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية . باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامى العام .. ثم هم يرون الخير للعالم كله .. ولا تعارض بين هذه الوحدات . بهذا الاعتبار . فكل منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها .. »[115] ؟!..

لقد دعا الرجل إلى أن نحتكم إلى الفطرة . التى تحتم الانطلاق من نقطة البدء الطبيعية . والتطلع إلى أبعد الآفاق . لكن عبر الطريق الطبيعى الذى يصل بين نقطة البدء وبين أبعد الآفاق .. فقال لنا عن طريقه لليقظة الإسلامية . الذى بدأه من مصر : « إن مصر هى قطعة من أرض الإسلام . وزعيمة أممه[116] .. وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه[117] .. والمصرية ـ أو القومية ـ لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال ... ونحن حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام ... والعروبة لها فى دعوتنا . كذلك مكانها البارز . وحظها الوافر . فالعرب هم : أمة الإسلام الأولى وشعبه المتميز .. ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها .. فنحن عندما نعمل للعروبة نعمل للإسلام . ولخير العالم كله ... إن دعوتنا ذات مراحل . نرجو أن تتحقق تباعا . وأن نقطعها جميعا . وأن نصل بعدها إلى الغاية . نرجو أن تقوم فى مصر دولة مسلمة تحتضن الإسلام . وتجمع كلمة العرب وتعمل لخيرهم . وتحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان . وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته ... حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله !..[118] » .

---

(١١٥) المصدر السابق . ص ١٧٦ـ ١٧٨ .

(١١٦) المصدر السابق . ص ٨٨ .

(١١٧) المصدر السابق . ص ٩٩ .

(١١٨) المصدر السابق . ص ١١٢ـ ١١٥ .

وسبل التنفيذ :

وعلى قدر خطر «التحدى الحضارى» الذى نهضت جماعة [الإخوان المسلمين] لمواجهته .. وعلى قدر شرف الغاية التى تمثلت فى اليقظة الإسلامية التى ابتغتها ، ليتصل ما انقطع من تطورنا الإسلامى بالتخلف والتراجع والجمود الذى أصابنا فى ظل سلطان دول العسكر المماليك ، وبالهزيمة النفسية أمام الغزوة الغربية الحديثة ... على قدر هذا الخطر .. وبقدر شرف تلك الغاية كان التدبير الذى اعتزم الشيخ حسن البنا تنفيذه ، «بالدعوة» و «التنظيم» ..

فلقد كان الرجل مدركا لعظم المهمة التى يتصدى لها .. وواعيا بالزمن والجهد والتنظيم الذى أنفقه الأعداء حتى حدث لنا ما حدث .. ومن ثم ضرورة أن تكون حركة اليقظة الإسلامية على مستوى التحدى الذى تواجهه ... ولذلك كان دائم الإلحاح على أعضاء الجماعة ـ والشباب منهم خاصة ـ أن لا يتعجلوا مرحلة التنفيذ ، وجنى الثمار قبل الأوان .. ومن كلماته فى هذا الموضوع :

«أيها الإخوان المسلمون ، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم ، اسمعوها منى كلمة عالية مدوية .. إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ، موضوعة حدوده .. ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول . أجل ، قد تكون طريقا طويلة ، ولكن ليس هناك غيرها . إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات . ومن صبر معى حتى تنمو البذرة ، وتنبت الشجرة ، وتصلح الثمرة ، ويحين القطاف ، فأجره فى

ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة .

أيها الإخوان المسلمون ، **ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول ... ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر ، وما هى منكم ببعيد !** .. » (١١٩) ..

هكذا تحدث الشيخ حسن البنا عن الأهداف العظمى لليقظة الإسلامية التى ابتغاها .. وعن السبيل إلى تجسيد الغايات النبيلة فى الواقع الإسلامى ، حتى تعود الأمة إلى نقاء الإسلام ، وتضبط بشريعته الغراء حركة الفرد والأسرة والأمة وواقع الحياة ..

* * *

لكن .... هل كان « المؤتمون المسترشدون » يعون حقيقة « التدبير والتقدير » لهذا الأمر ، على نحو ما كان عليه فى عقل « الإمام المرشد » ؟!..

إن تطور الأحداث ، يشكك فى أن يكون الجواب على هذا السؤال بالإيجاب (١٢٠) ؟!..

---

(١١٩) المصدر السابق . ص ١٦١ .

(١٢٠) للمزيد من التفاصيل عن [الإخوان المسلمين] انظر الفصل الذى كتبناه عنهم بكتابنا [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] ص ٤١ ـ ٨٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

(٦)

الجَمَاعَة الإسْلامِيَّة

كانت الهند ـ فى العقد الرابع من هذا القرن العشرين ـ تموج بأحداث حركة التحرير الثائرة طلبا للحرية والاستقلال عن الاستعمار الانجليزى ، يقودها [حزب المؤتمر] ، الذى يقوده ، روحيا : غاندى [١٢٨٦ـ١٢٦٧ هـ ١٨٧٩ ـ ١٩٤٨ م] وتنظيميا : جواهرلال نهرو [١٣٠٦ ـ ١٣٨٣ هـ ١٨٨٩ـ١٩٦٤م] والذى انخرط فيه جمهور الهنادكة ، والقطاع الأكبر من المثقفين والساسة والشباب المسلمين .. وإلى جانب هذا الحزب كان تيار إسلامى ، يدعو إلى التميز عن هذه الحركة ، فى «التنظيم» ، إيمانا منه باختلاف صورة المستقبل عند المسلم عنها عند الهندوكى ، لما بينهما من اختلاف «قومى» ، فهما ـ برأى هذا التيار الإسلامى ـ أمتان وقوميتان ، وليسوا أمة واحدة !.. وكان الشاعر الفيلسوف المجدد محمد إقبال [١٢٩٠ـ١٣٥٧ هـ ١٨٧٣ـ١٩٣٨م] من أبرز رموز هذا التيار..

وكان الأستاذ أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ـ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٠٣ـ١٩٧٩م] قد ذاعت شهرته ، عبر مجلته [ترجمان القرآن] ، التى جعل شعارها : «**احملوا ـ أيها المسلمون ـ دعوة القرآن ، وانهضوا ، وحلقوا فوق العالم**» ! فدعاه إقبال [١٣٥٦ هـ ١٩٣٧م] إلى «لاهور» ، ليمارس نشاطه منها ، فلبى الدعوة ، وغادر «حيدر آباد الدكن» ، ليجد نفسه ـ بعد وفاة إقبال فى العام التالى ـ حاملا العبء الكبير فى معركة تمايز المستقبل لمسلمى الهند عن مستقبل الهندوك..

وفى السنوات الثلاث التى أعقبت موت إقبال كتب المودودى مؤلفاته التى بلورت فكره السياسى الإسلامى ، الذى واجه به «التحدى الحضارى» لمسلمى الهند ، والذى كان يتمثل فى فكر الحضارة الغربية الغازية ، حول :

١ـ القومية السياسية الواحدة لكل الهنود ، المبنية على «وحدة الأرض» ، «والمصلحة السياسية الواحدة» فى التحرر من الاستعمار الانجليزى ..

٢ـ والدولة «الديمقراطية» ـعلى النمط الغربىـ التى تحكمها «الأغلبية» ـ وهى هنا هندوكية ـ وتخضع فيها «الأقلية» ـ وهى هنا إسلامية ! ..

٣ـ «والعلمانية» ، التى تفصل «الدين» عن «الدولة» ، ولا تجعل الدين قسمة يتمايز بها الناس قوميا وحضاريا .. وما تمثله هذه العلمانية من سيادة «الروح المادية» للحضارة الغربية فى مختلف مناحى الحياة .. وماتعنيه من عدوان على الطابع الشمولى للإسلام ، كدين ودولة ..

أما الجناح الآخر لهذا «التحدى الحضارى» فكان «التخلف الموروث» ، والمحسوب ـ زورا وبهتانا ـ على الإسلام ، والمتمثل فى «الفكر الإسلامى التقليدى» ، السائد فى المؤسسات الإسلامية التقليدية .. وهو الفكر الذى طمس تألق الإسلام وجاذبيته ، فأسهم هذا الطمس فى دفع الكثيرين من مسلمى الهند إلى صفوف حزب المؤتمر ، بعد أن آمنوا بأن النمط الحضارى الغربى هو أنسب الأنماط الحضارية لنهضة «عموم الهند» ! ..

وبعد تبلور فكر المودودى ، امتلك هذا الفكر «أداته» المناضلة ، فتأسست [الجماعة الإسلامية] ـ التى اختارت المودودى أميرا لهاـ [١٣٦٠ هـ ١٩٤١ م] .. **لتكون فصيلا متميزا من فصائل اليقظة الإسلامية ، فى هذا**

الواقع الإسلامى المتميز؟!.. فالحال هنا ليس كما هو فى مصر وبلاد الوطن العربى.. فالمسلمون أقلية.. والهيمنة ـ بعد الاستعمار «الكافر» ـ «للوثنية» الهندوكية.. والقوميات متعددة، وتعددها يعكس التعددية الحضارية فى شبه القارة الهندية..

* * *

رفض الجاهلية الوافدة :

ولقد أبصر المودودى، فى عبقرية المسلم الذى انطبع عقله وضميره بالطابع المتميز لحضارة الإسلام، أبصر مخاطر الحضارة المادية الغربية على الحاضر والمستقبل للإسلام والمسلمين.. فكرا.. ووطنا.. وإنسانا.. فحدد أن «التغريب» هو الهزيمة الحقيقية، بل قمة الهزيمة أمام الأعداء التاريخيين.. إنه «الخيار البائس» للجاهلية بديلا عن الإسلام؟!.. فأفاض فى الحديث عن حال المسلمين، بعد أن انهزموا عسكريا أمام جيوش الحضارة الغربية، عندما «استسلموا لثقافتها وفلسفتها، فما لم يستطع سيف البلاد الغربية إنجازه أكملته فلسفتها، ولم تجر على العالم الإسلامى سيطرتها السياسية ماجره عليه غزوها الحضارى والفكرى من البليات والمصائب، فالسيطرة السياسية كانت تتحكم فى الأجساد فقط، أما السيطرة الحضارية والفكرية فقد تحكمت فى العقول والأذهان؟!..»(١٢١).

ولقد عرض المودودى للنظريات الرئيسية التى طبعت الفكر الغربى

---

(١٢١) [الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية] ص ٢١. ترجمة د. سمير عبد الحميد ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٤٠١ هـ.

الحديث بطابعه المتميز ، وكشف عن دلالتها على أصالة الطابع «المادى ـ الإلحادى» لحضارة الغرب تاريخيا ، وكيف أن هذه النظريات الحديثة لم تخرج بهذه الحضارة عن ذلك المسار ، بل لقد دعمت الطابع المادى والعدوانى لهذه الحضارة !..

● **فى فلسفة التاريخ** : سادت نظرية الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel [١٧٧٠ ـ ١٨٣١ م] «وخلاصتها : أن كل نظام للحضارة ، فى عصر من عصور التاريخ ، إنما يكون مبناه ، بجميع شعبه وصوره ، على أخيلة خاصة تجعله فى العالم عصرا للحضارة والمدنية ، فإذا أُدْرِكَ هذا العصر بدأت تظهر للعيون مواضع الضعف ومواطن الاختلال والتداعى فى بنيانه ، فهناك تتنفس وترفع الرأس أخيلة وأفكار تصارعه ، ولا تنتهى هذه المصارعة إلا بعصر جديد من الحضارة والمدنية ، يكون فيه بقايا من الأنقاض الصالحة للعصر المنقرض ، كما تتولد فيه حسنات ومحامد جديدة بحكم تأثير الأفكار الغالبة التى أغارت على عصر الحضارة المنقرض وأرغمته على المسالمة..»[١٢٢] ؟!

ورغم ما قد يبدو لهذه النظرية الهيجلية فى تفسير التاريخ والتطور الحضارى من عناصر صدق ووجاهة ، إلا أنها تميل بكفة الميزان إلى عوامل «التغير» و «التطور» و «نسخ الجديد للقديم» ، الأمر الذى يقلص حجم «الثوابت» الباقية عبر العصور.. حتى لو كانت هذه «الثوابت» هى «الدين» و «القيم» و «القسمات الحضارية» التى تميز الأمة كما تميز «البصمة»

---

(١٢٢) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٤٥ . ترجمة محمد عاصم الحداد . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

الإنسان ؟!.. وهذا الميل إلى « التغيير » ، على حساب « الثبات » ، هو ما ترفضه روح الحضارة الإسلامية ، التي وازنت بين الأقطاب ، في مختلف الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية ، فبرئت من هذا الانحرف..

وبمقاييس هذه الفلسفة الهيجلية في تفسير التاريخ ، فنحن ـ بعد الغزوة الاستعمارية ، التي غيرت واقعنا ـ نعيش واقعا جديدا لعصر جديد ، ينطبع واقعه بالطابع الغربي ، في طرق التنمية والتحديث وطرائق العيش.. ومن ثم فإن « الطبيعي » ـ وفق هذه النظرية ـ أن تخلى « ثوابتنا » الموروثة الميدان للفكر والحضارة التي هي انعكاس لهذا « الواقع » الجديد.. ولما كان هذا الواقع « غربيا » ، فإن « الحضارة الغربية » هي التي يجب أن تسود ؟!..

والمودودي يتساءل عن مخاطر هذه الفلسفة التاريخية علينا. فيقول : « فهل نرجو ممن يكون قد رسخ في ذهنه مثل هذا التصور للتاريخ الإنساني ، أن تبقى في قلبه أثارة من التقدير أو ذرة من الإجلال للعصور التي مضى فيها الرسل والأنبياء ؟!.. وهل يرجع مستهديا إلى عهد النبوة والخلافة الراشدة ؟! الحق أن هذه الفلسفة هي حملة فكرية منظمة مدججة بالبراهين والحجج تكاد تأتي الفكرة الدينية من أساسها !.. »[(١٢٣)]

ونحن ننبه على أن سلطان هذه النظرية هو الذي أفرز النظرات التي ترى الدين رجعية وتخلفا ، وترى الشريعة قانونا قد عفى عليه الزمن ، وترى في « الخيار الإسلامي » عودة إلى الوراء.. الخ.. الخ.. لأن أصحاب هذه النظرات قد أعملوا هذه النظرية ، فاعتقدوا بوجوب نسخ الأنساق الفكرية

---

(١٢٣) المرجع السابق. ص ١٤٦ ، ١٤٧.

التى سادت فى المراحل السابقة من التاريخ ؟!

● وفى التطور الإنسانى عند دارون : وخلاصة نظرية دارون Darwin [١٨٠٩-١٨٢٢م] : هى أن نشأة الحياة والأحياء وتطورهما محكومان بقانون : تنازع البقاء ، وفى هذا التنازع قانون يقضى بأن البقاء للأصلح ، والأصلح هو الأقوى .. فالفناء للضعيف ؟!

وإذا كانت الهيجلية ـ فى التاريخ ـ قد جعلت نسخ الجديد «لثوابت» العصر القديم مشروعا وطبيعيا و«قانونيا» .. فإن الدارونية تجعل «نسخ» القوى للضعيف ، بإفنائه وإزاحته من الطريق ، هو «القانون» الطبيعى والمشروع ؟!..

ولقد لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم لتبرير عدوانية الرجل الأوربى على غيره ، وعدوانية حضارته على غيرها من الحضارات .. فالاستعمار الاستيطانى الذى يبيد السكان الأصليين ـ كما فى حالة الهنود الحمر ـ تبرره الدارونية !.. والاحتلال العسكرى والسيطرة السياسية والنهب الاقتصادى من قبل «القوة الغربية» للبلاد «الضعيفة» ، على نحو يجرد الأمم المغلوبة من السيطرة على مقدرات بلادها ـ أى يجليها ـ وكأنه يبيدها ـ عن مقدرات بلادها ـ يبرره قانون دارون الخاص بتنازع البقاء ، لأن الأقوى هو الأصلح ؟! ـ و«الصلاح» هنا تحدده مادية الحضارة الغربية ، فتجعله مرادفا «للقوة» ؟!..

ولقد لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم فى تبرير عدوانية الغرب وحضارته على الشعوب الأخرى ومواريثها الحضارية ، فشرعت فى مسخ ونسخ هذه المواريث ، بتغريب شعوبها ، لأنها هى «الأقوى» .. وما دامت هى «الأقوى» فهى «الأصلح» ، الذى يجب أن ينفرد بالبقاء ؟!..

وبقدر ما بررت الداروينية عدوانية الرجل الغربى ، فإنها قد كشفت عن الطابع العدوانى لحضارته الغربية ؟ والمودودى يكشف هذه السوءة من سوءات الحضارة الغربية، فيقول: «إنها تجعل الكون مضمارا للمصارعة، وفيها أن من طبيعة الفطرة أن لايستحق البقاء إلا الأقوى.. فالأرض وما فيها، ووسائل الحياة وما بها لايستحقها إلا القوى الذى يثبت أهليته للبقاء والحياة ، ولاحق للضعيف فى هذه الأشياء ، وعليه أن يخلى المكان للقوى ، والقوى على حق تماما إذا أخذ مكان الضعيف بعد إزاحته عنه أو قضائه عليه !... ولعمر الحق ! لو كان بقى فى ضمائر أهل الغرب شىء يخالج ضمائرهم ، فقد أزاله دارون بحججه وشواهده ؟... لقد حولت الإنسان ذئبا مفترسا لأخيه فى ميادين الاجتماع والمدنية والسياسة !..[124] »

● **وفى الصراع الطبقى عند ماركس :** وإذا كانت الهيجلية قد غلبت «التغير» على «الثبوت» ، وجعلت «الصراع» هو قانون «الفكر».. وجاءت الداروينية فبررت غلبة «القوة» وحدها.. وجعلت «الصراع» قانون «الطبيعة».. فإن «الصراع الطبقى» عند كارل ماركس Marx [١٨١٧ـ١٨٨٣م] قد أصبح هو القانون الذى يحكم تطور «المجتمع».. بل لقد اعتبر «التناقض والصراع» هو «المطلق» الوحيد ، وكل ما عداه فهو نسبى ، يزيد وينقص ، بل ويزول بتغير الظروف والملابسات !.. فهو ليس مجرد «واقع» يهذبه الإنسان وينظم شذوذه ويكبح جموحه ، بل هو «القانون» ، والخير فى تنميته وتغذيته دائما وأبدا... إنها غابة «القوة

(١٢٤) المرجع السابق . ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

والصراع » ، تلك الحضارة الغربية ، كما تكشف عن حقيقتها هذه النظريات ؟ ! . .

والأستاذ المودودى يلمس هذه الحقيقة فيقول : « . . . **فلقد جعل هيجل العالم الفكرى ميدانا للصراع ، وجاء دارون وقدم الفطرة كميدان للحرب ، ثم جاء بعده ماركس وصور المجتمع بنفس هذه الصورة** »[(١٢٥)] ! .

فهى ، إذن ، « حضارة الجاهلية الجديدة » ـ كما قال المودودى ـ تلك التى غدت ، بالاستعمار ، أخطر التحديات التى تواجه تيار اليقظة الإسلامية الحديثة .

* * *

لكن المودودى لم يكن صاحب موقف « متعصب » من الحضارة الغربية ككل ، ولم ينسحب رفضه لسلبياتها ، على كل ميادين إبداعها ، وخاصة الإبداع « العلمى » ، والإنجازات التى لا تمثل خطرا على الذاتية الحضارية المتميزة لحضارتنا الإسلامية . . فهو نصير « للتفاعل الحضارى » ، يعتبر الأخذ والعطاء بين الحضارات ظاهرة طبيعية وصحية ومطلوبة ، طالما لم تصل إلى درجة « التشبه والتقليد » اللذين يفقدان الآخذ المقلد هويته المتميزة . . فيقول : « **أما موقف الإسلام من الحضارة والثقافة والتمدن ، وما يتم فيها من أخذ وعطاء ، فهو شىء فطرى فى الأمم التى تختلط بعضها ببعض ، فهو لا يجيزه فقط ، بل يريد له الازدهار ، فهو لا يريد لجدران التعصب بين الأمم أن تبقى قائمة فلا تأخذ أمة فى حضارتها من أمة أخرى شيئا** . »[(١٢٦)]

---

(١٢٥) المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(١٢٦) [الأمة الإسلامية وقضية القومية] ص ١٨٤ ترجمة سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

فهو يرفض جاهلية الغرب ، دون أن يرفض كل إبداع الغرب !..

* * *

وفى مواجهة « الجاهلية الموروثة » ؟ ! :

ولم يكن « التغريب » وحده هو الذى وصفه المودودى بـ « الجاهلية » بل لقد وجدناه وقد انفرد دون سائر أعلام اليقظة الإسلامية فشاعت فى كتاباته الأحكام التى تصف « الموروث » و « الواقع » و « المجتمعات » الإسلامية بـ « الجاهلية » أيضا ؟ ! . ويتكرر حديثه عن « ارتداد » المجتمع ـ « المسمى » بالإسلامى ـ إلى « الجاهلية » المماثلة لتلك التى أخرج الإسلام العرب من ظلماتها إلى نوره وتنويره .. فكان أول من سن هذه السنة فى تيار اليقظة الإسلامية الحديث ! ..

فعند المودودى أن « الجاهلية الموروثة » هى التى فتحت الباب « للجاهلية الغربية الحديثة » ، وأغرت الوحش بالفريسة ! .. فكان « الاستعباد الذى ابتلينا به فى القرن التاسع عشر نتيجة محتومة لانحطاطنا الدينى والخلقى والفكرى ، الذى كنا متردين فيه من قرون عديدة ! ..[(١٢٧)] » .. وهو يرجع مسئولية هذا الانحطاط إلى « الأمراء » و « الساسة » و « حملة الدين وعلمائه ، الذين يتحملون فى ذلك وزرا كبيرا ..[(١٢٨)] » .

---

(١٢٧) [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] ص ١٢٩ .

(١٢٨) [نظرية الإسلام السياسية] ص ٢٢ . ترجمة خليل حسن الإصلاحى . طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة ـ سنة ١٩٦٩ م .

والمودودى لا يرجع هذه «الجاهلية الموروثة» إلى عصور التخلف والتراجع والجمود - كما ذهب إلى ذلك غيره من أعلام اليقظة الإسلامية - وإنما يعود بها إلى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان [٤٧ ق. هـ - ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦ م] رضى الله عنه وأرضاه!.. ففى رأيه أن الأمر بعد أن انتقل إلى عثمان، سار على نهج الخلافة الراشدة «عدة سنين.. ثم.. حدثت الثغرة، التى نجم منها قرن الجاهلية من جديد!.. لأن الخليفة الثالث لم يكن يتصف بتلك الخصائص التى أوتيها العظيمان اللذان سبقاه. **فوجدت الجاهلية سبيلها إلى النظام الجماعى الإسلامى**[١٢٩]».. ثم يمضى فيصف بـ «الجاهلية» كل الدول التى تعاقبت على حكم المسلمين، أموية وعباسية وتركية - باستثناء العامين اللذين حكمها خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز [٦١ - ١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٢٠ م].. ويحكم بها كذلك على ما استفاده المسلمون من المواريث الحضارية للأمم الأخرى، عندما «استوردوا فلسفات اليونان والروم والعجم، وأشاعوها بين المسلمين على صورتها التى كانت عليها.. **فانتشرت ضلالات الجاهلية الأولى - [جاهلية اليونان وما ناظرها] - وأباطيلها فى جميع العلوم والفنون والتمدن والاجتماع!..**[١٣٠]».

وهنا نلاحظ أن المودودى، فى تقييمه لهذا الاتصال الحضارى بين المسلمين والأمم الأخرى، قد اختلف عن حسن البنا فى تقييم هذا الاتصال وذلك التفاعل.. فالبنا قد رآه ظاهرة صحية، لم تحول الأمة عن هويتها المتميزة[١٣١].

---

(١٢٩) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٣٤ - ٣٧. طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م

(١٣٠) المرجع السابق. ص ٦٣، ٦٤.

(١٣١) حسن البنا [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٣٠

على حين اعتبره المودودى دعما جاهليا شد من أزر الجاهلية التى وثبت منذ عصر عثمان بن عفان ! ..

ولهذا التقييم ـ الذى انفرد به المودودى ـ عندما حكم بـ « الجاهلية » على المجتمع الإسلامى وتراثه .. شاعت فى كتابات الرجل أحكام «الكفر» و«الردة» التى أطلقها على واقع المسلمين «ومجتمعاتهم» ... لكنه تحفظ فى إطلاق أحكام «الكفر» و «الردة» على «الأمة» وعلى «الفرد» أيضا ... فرغم الجاهلية : **ظل «الإسلام يعم ببركاته وخيراته ـ ولو على وجه غير مباشر ـ قصور الدول والحكومات . ومدارس الفلسفة والحكمة . ودور التجارة والصناعة . وزوايا الخلوة والاعتكاف، وسائر شعب الحياة، واستمر نفوذه فى العامة، على رغم أنف جاهلية الشرك ... وظل مستوى أخلاق الشعوب المسلمة أعلى وأرفع دائما من أخلاق سائر الأمم. وفوق ذلك كله، ماخلا عصر من العصور من أناس استمسكوا بعروة الإسلام وسعوا فى إحياء هدايته العلمية والعملية فى حياتهم أنفسهم وفى الحلقة المحدودة الواقعة تحت تأثيرهم ونفوذهم ..» [١٣٢]**

وكما حكم بالجاهلية على «الواقع» و «المجتمع» و «الموروث» ـ دون «الأمة» ـ كذلك حكم على «المجتمع» بـ «الكفر» لأنه قد احتكم إلى غير حكم الله . وقطع بنفى «الإسلامية» عنه عندما سلك هذا السبيل .. فقال : «ولعمر الحق . لا تمكن لإنسان ـ ما لم يكن مصابا فى عقله ـ أن يتصور كون أحد من المجتمعات فى الدنيا إسلاميا على الرغم من اختياره منهاجا غير منهاج الإسلام لحياته ... إن المجتمع إذا جاء . على بصيرة منه . وبإرادته الحرة . يقرر بأن الشريعة لم تعد منهاجا لحياته . وأنه سوف يصنع المنهاج لحياته بنفسه أو

(١٣٢) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٤١، ٤٢ .

يقتبسه من مصدر غير مصدرها ، فليس ثمة سبب لنطلق عليه كلمة « المجتمع الإسلامى » أبدا [١٣٣] .. » ! .

هذا عن « الواقع » و « المجتمع » .. لم يتحرج المودودى عندما قطع بارتدادهما عن الإسلام » إلى « الكفر » و « الجاهلية » ..

أما بالنسبة « للفرد » ، فلقد تحرج من « تكفيره » ، فقال بإسلام كل من نطق بالشهادتين . لكنه اعتبر ذلك : « شكل الإسلام » - أى « الإسلام القانونى » .. « فالمسلم ، من الناحية القانونية ، هو من نطق بالشهادة شفاهة ، ولا ينكر أساسيات الدين . وبهذا المعنى يدخل فى دائرة الإسلام كل مسلم لا يزيد فى جوهره عن ذلك . وليس فى وسعنا أن نسميه كافرا ، أو نمنعه حقوقه التى يحصل عليها فى المجتمع الإسلامى بمجرد إقراره بالإسلام .. » ... ويستطرد المودودى ، فيقول : « **غير أن هذا ليس الإسلام عينه ، بل هو إجازة أو تصريح بالدخول فى دائرة الإسلام** . أما جوهر الإسلام فهو : أن تطوع ذهنك وفق مبادئ الإسلام ، ويصبح أسلوب تفكيرك هو أسلوب القرآن فى التفكير ، وتصير نظرتك إلى الحياة وأمورها هى نظرة القرآن لها ، وتزن الأشياء بالمعيار الذى اختاره القرآن وحدده ، وأن يكون هدفك الشخصى والجماعى هو الهدف الذى بينه القرآن وأقره ، وأن تتخلى عن مختلف طرق الحياة وتختار طريقا تحدد اختياره بما تلقاه من قوانين القرآن والسنة المحمدية ، فإن قبل عقلك هذا ، وتوحدت مشاعرك ومشاعر القرآن ، فإن السبيل الذى تسلكه فى الحياة لن يكون غير ما سماه القرآن : سبيل المؤمنين .. » [١٣٤] .

---

(١٣٣) [القانون الإسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان] ١٥٣ ، ١٥٤ . طبعة بيروت - ضمن مجموعة - سنة ١٩٦٩ م .

(١٣٤) [الحكومة الإسلامية] ص ١٣ . ترجمة أحمد إدريس . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

فهو قد وسع من إطار «الإسلام القانونى» ـ «شكل الإسلام» ـ ليشمل كل من نطق بالشهادة ولم ينكر أساسيات الدين، ومنع وصفه «بالكفر» أو حرمانه حقوق المسلم فى المجتمع .. لكنه ضيق نطاق «الإسلام الجوهرى» حتى لقد جعله خاصا بالصفوة المناضلة فى سبيل سيادة الإسلام !..

ثم وجدناه يعود ليحكم على «الفرد» بـ «الردة الجزئية»، المفضية إلى «الردة النهائية»، إذا هو خالف الشريعة فى «التكاليف الاجتماعية»، فيخاطبه قائلا: إنك «إذا سلكت فى قضاياك السياسية والاقتصادية مسلكا يتفق وخطة أخرى غير خطة الإسلام المحكمة، فإن صنيعك هذا يعتبر ارتدادا جزئيا، يفضى بك إلى ارتداد كلى نهائى !» [(١٣٥)].

فكأنه، وإن تحرج من الحكم بالكفر والردة على الفرد بالمعاصى فى الفرائض العينية، إلا أنه قد جعل مخالفة الشريعة فى الفروض الكفائية ـ الاجتماعية ـ كفرا وردة، سواء أحدث ذلك من الفرد أو من المجتمع .. لكنه ـ وذلك خطأ بيّن ـ لم يفرق بين الخروج عن الشريعة ـ من الفرد أو المجتمع ـ إنكارا لها وجحودا، أو الخروج عليها تقصيرا وعصيانا ... الأمر الذى جعل صياغاته هذه تفعل ربما عكس ما أراد الرجل، فتسهم فى شيوع تهم «الكفر» وأحكام «الردة» التى ألصقها كثيرون ممن تأثروا بفكره، سواء على الأفراد أو على المجتمعات، حتى لقد أزعج هذا الأمر إسلاميين كثيرين، تحرجوا من مغبة الآثار المترتبة على شيوع «التكفير» فى المناخ الفكرى لتيارات اليقظة الإسلامية .. ولقد تأكد وصدق حدس هؤلاء، خصوصا بعد أن أصبح «التكفير» سلاحا تشهره «جماعات إسلامية» ضد «جماعات إسلامية» أخرى ..

---

(١٣٥) المرجع السابق. ص ١٤.

فهذا مرضا يجعل بأس الإسلاميين بينهم شديدا ؟ !..

كذلك أخطأ المودودى خطأ بيّنا عندما حكم بالجاهلية على « المجتمع » الإسلامى ، لما شاب إسلام هذا المجتمع من سمات الجاهلية .. لأنه لم يميز بين العودة كلية إلى الجاهلية ، بالردة التى تنكر الإسلام وتجحد عقيدته وشريعته ، وبين المعاصى والذنوب المتمثلة فى تعطيل كثير أو قليل من أحكام الشريعة ـ دون إنكار لها أو جحود ـ ... ونحن جميعا نعلم أن أبا ذر الغفارى ، رضى الله عنه ، عندما أتى أمرا من أمور الجاهلية ، قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا أبا ذر ، « إنك امرؤ فيك جاهلية »[١٣٦] ... ولم يقل الرسول ، ولا قال غيره : إن أبا ذر قد ارتد عن الإسلام إلى « الجاهلية » ، أو أنه قد أصبح « جاهليا » .. فشتان بين من فيه ـ فردا كان أو مجتمعا ـ شوائب ـ قلت أو كثرت ـ من سمات الجاهلية ، وبين من عاد ـ فردا أو مجتمعا ـ إلى الجاهلية بالردة عن الإسلام ، التى هى الجحود والإنكار ، وليست المعاصى والتقصير ؟ !..

إن الإعجاب بنقد المودودى للحضارة الغربية .. والتقدير لنضاله فى سبيل اليقظة الإسلامية .. لا يمنع من نقده فى موقفه هذا .. فلقد سنّ فى ميدان اليقظة الإسلامية الحديثة ـ بإطلاقه أحكام « الجاهلية » و « الكفر » و « الردة » على المجتمعات الإسلامية ـ سنّ سنة سيئة آتت ، ولا زالت ، ثمرات مرة تفت فى عضد الإسلاميين ، وتستنزف من حركة اليقظة الإسلامية طاقات وطاقات !..

* * *

---

(١٣٦) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن حنبل .

الحاكميـة الإلهيـة :

وكما قال المودودى ـ فى الحكم على المجتمعات الإسلامية بالجاهلية والكفر ـ قولا انفرد به دون أعلام اليقظة الإسلامية وأئمتها .. كذلك ذهب فأحيا شعارا من شعارات الخوارج ـ رغم عدائه لهم ولفكرهم ـ هو شعار « الحاكمية » ـ فأثار به بلبلة ولغطا وشبهات كثيرة فى حقل الفكر السياسى الإسلامى المعاصر ... **صحيح أن فكره فى « الحاكمية » إذا قرئ متكاملا ، وفهم جيدا ، فلن يثير ما فهمه منه البعض ، ولن يؤدى إلى ما أدى إليه من بلبلة وشبهات ... لكن بعث شعار موهم ، ، وصياغة عبارات موهمة ـ فى الحديث عنه ـ كما صنع المودودى ، كان ولابد أن يأتى بعكس ما أراد الرجل من وراء بعثه لهذا الشعار ؟ ! .**

لقد صاغ الرجل ، فى حديثه عن « الحاكمية » ، صياغات غامضة وموهمة تنفى أية حاكمية أو سلطة للإنسان .. وذلك من مثل قوله : **إن وجهة نظر العقيدة الإسلامية تقول : إن الحق وحده هو الحاكم بذاته وأصله ، وأن حكم سواه موهوب وممنوح ... وإن أى شخص أو جماعة يدعى لنفسه أو لغيره حاكمية كلية أو جزئية ، فى ظل هذا النظام ، وهو ولا ريب سادر فى الإفك والزور والبهتان المبين ..... وإن الإنسان لاحظ له من الحاكمية إطلاقا ... وإن وضعية الدولة الإسلامية : أنها ليست ديمقراطية ... فالديمقراطية ليست من الإسلام فى شىء ، فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام الدولة الإسلامية .. ! .. »** (١٣٧) .

---

(١٣٧) [الحكومة الإسلامية] ص ٨١ ، ٨٢ ، ٧٠ ، ٧٣ . و [نظرية الإسلام السياسية] ص ٣١ ـ ٣٤ .

ورغم أن المودودى قد ضبط مفهومه «للحاكمية» . فقال إنه يعنى بها : «**السلطة العليا.. والمطلقة.. سلطة [الفعال لما يريد] الذى [لا يُسأل عما يفعل]**»[138] ـ وهى بهذا المعنى خاصة ومختصة بالله ، سبحانه وتعالى ، وليس هناك مسلم ، بل ولا غير مسلم ، يضفيها ـ بهذا المعنى ـ على إنسان ـ رغم هذا الضبط ـ الذى غفل عنه أو تغافل الكثيرون ! ـ فإن عبارات المودودى هذه قد فعلت أبلغ الضرر فى صفوف كثير من الإسلاميين ، الذين انطلقوا منها يصورون عداء الإسلام لكون الأمة ، فى السياسة للدولة والتنظيم للمجتمع ، هى مصدر السلطات.. فتوهموا ، وأوهموا انحياز الإسلام إلى الدولة الثيوقراطية ، الأمر الذى أسعد «العلمانيين» ، عندما سلحهم هذا الفهم القاصر بسلاح ظنوه فعالا فى المعركة ضد إسلامية السياسة والدولة فى عالم الإسلام !!..

ونحن نقول : إن المودودى قد ظُلِمَ قراءه ، بهذا الشعار «المشبوه» ـ منذ رفع الخوارج له وانفرادهم بترديده ـ وبهذه العبارات الموهمة ، التى أضلت كثيرا من شباب الإسلاميين.. ونقول أيضا : إن المودودى قد ظُلِمَ من قبل الذين وقفوا عند هذه العبارات الموهمة ، ولم يقرأوا ضبطه لمعنى الحاكمية عنده... وأيضا لم يقرأوا عبارات كثيرة كتبها الرجل توضح وتشرح أنه لم يكن عدوا للديمقراطية ، كنظام يعطى الأمة السلطة والسلطان فى سياسة الدولة وتنظيم المجتمع... وإنما كان عداؤه ورفضه لإطلاق الديمقراطية الغربية العنان لسلطان الأمة إلى الحد الذى تحل فيه الحرام وتحرم فيه الحلال... كما كان عداؤه للمؤسسة الديمقراطية ، القائمة على حكم الأغلبية وخضوع الأقلية ، إذا كانت الأغلبية ثابتة ، لتميزها الدينى والحضارى عن الأقلية ، كما كان حال الهند

(138) [تدوين الدستور الإسلامى] ص ٢٥١ ، ٢٥٣ . طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة ـ سنة ١٩٦٩ م.

ـ ٧٥٪ هندوك و ٢٥٪ مسلمين ـ لأن هذه المؤسسة ستكون ، فى الحقيقة ، ديكتاتورية الجوهر والمضمون ؟!..

لقد ضمت الآثار الفكرية للمودودى الكثير من الصياغات التى ضبطت فكره فى هذا الموضوع ، وذلك من مثل قوله : إن الحكومة الإسلامية «قد خوّل فيها للمسلمين حاكمية شعبية مقيدة » بمقاصد الشريعة وحدودها [١٣٩] .. «وما لم يرد فيه نص ـ وهو المجال الأوسع ـ فلأهل الحل والعقد أن يجتهدوا فى سن الأنظمة التى تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة .. على أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة [١٤٠] ... والخلافة الإسلامية ديمقراطية ... وديمقراطيتنا الإسلامية هى ـ كديمقراطية الغرب ـ لا تتألف الحكومة فيها ولا تتغير إلا بالرأى العام . ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم يحسبون ديمقراطيتهم حرة مطلقة العنان ، ونحن نعتقد الخلافة الديمقراطية متقيدة بقانون الله عز وجل [١٤١] ... فالخلافة الإسلامية هى ديمقراطية فى جوهرها وروحها . يتم فيها انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وبإرادتهم الحرة . كما يتم فيها انتخاب أهل الحل والعقد والشورى كذلك ، وهم الذين لهم الحق المطلق فى نقد تصرفات الحكام ومحاسبتهم [١٤٢] ...» !..

فبعد أن نفى عن الإنسان «أى حظ من الحاكمية» عاد وقرر له «حاكمية شعبية» فى المجال الأوسع ـ الذى لم يرد فيه نص شرعى ... وبعد أن نفى

---

(١٣٩) [نظرية الإسلام السياسية] ص ٣٤ ، ٣٥ . و [الإسلام والمدنية الحديثة] ص ٣٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

(١٤٠) [الإسلام والمدنية الحديثة] ص ٤٠ .

(١٤١) [تدوين الدستور الإسلامى] ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(١٤٢) الإسلام والمدنية الحديثة] ص ٣٦ ـ ٣٨ .

اتصاف الدولة الإسلامية بالديمقراطية ، عاد فقرر أنها دولة « ديمقراطية الجوهر والروح » ومصدر السلطة فيها الأمة والرأى العام ، شريطة الاتساق مع مقاصد الشريعة وحدودها ؟!..

لكن الذى شاع .. هو المفاهيم الغامضة .. والعبارات الموهمة .. فانضم مفهوم وشعار « الحاكمية » إلى مفهوم وشعار « الجاهلية » و « الردة » و « الكفر » ـ تلك التى ابتدعها المودودى ، غير مسبوق إليها فى حركة اليقظة الإسلامية الحديثة ـ لتصبح « معالم الطريق » لتيار الرفض والغلو بين الإسلاميين المعاصرين[١٤٣] ؟!

(١٤٣) لمزيد من التفاصيل عن المودودى و « الجماعة الإسلامية » انظر كتابنا [المودودى والصحوة الإسلامية] طبعة بيروت سنة ١٩٨٦ م وطبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م . وكذلك الفصل الذى كتبناه عن « الجماعة الإسلامية » بكتابنا [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] ص ٨٥ ـ ١٤٢ .

(٧)
تيّار الرفضْ.. الانقلابى

فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٦٨ هـ [١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ م] استشهد الإمام حسن البنا ، المرشد العام لجماعة [الإخوان المسلمين] برصاص خصومه ، فى وضح النهار ، وفى واحد من أكثر شوارع القاهرة أهمية وحركة ؟!..

وكان العام الذى سبق اغتياله قد شهد عددا من حوادث العنف التى قامت بها «كتائب الإخوان» ـ النظام الخاص ـ السرى ـ المسلح ـ فتصاعد الصراع بين الجماعة وبين الحكومة ليبلغ الذروة بقرار الحكومة حل الجماعة فى ٦ صفر سنة ١٣٦٨ هـ ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ م .. والذى أعقبه ـ بعد عشرين يوما ـ اغتيال الإخوان لرئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا [١٣٠٥ ـ ١٣٦٨ هـ ١٨٨٨ ـ ١٩٤٨ م] فتصاعدت حملة القمع ضد [الإخوان] اعتقالا وسجنا وتعذيبا .. ثم بلغت محنتهم الكبرى ـ الأولى ـ الذروة باغتيال المرشد العام .

ومنذ ذلك التاريخ دخلت دعوة [الإخوان] وحركتها فى منعطف تاريخى جديد .. صحيح أن محنة الاعتقال والسجن والتعذيب قد انتهت بعودة [الوفد] ـ حزب الأغلبية ـ إلى الحكم فى ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٦٩ هـ ١٢ يناير سنة ١٩٥٠ م .. ولكن «المحنة الحقيقية» قد استمرت .. محنة فقد الجماعة لإمامها الملهم ، وقيادتها التاريخية ، ومرشدها العام ومفكرها شبه الوحيد ؟!..

لقد كانت إحدى سلبيات هذه الجماعة هى ذلك الفارق الكبير والمسافة الطويلة والمساحة الكبيرة بين القائد المرشد ـ وعيا ووضوح رؤية ، ومرونة حركة ،

واتساع أفق ، وإدراكا لعظم الغاية ، ومن ثم الإصرار على « سياسة المراحل » ، الرافضة للتعجل والعجلة ــ وبين رجالات الصف الثانى فى الجماعة ــ دعك ممن خلف هذا الصف الثانى ؟ ! ــ .. فلما افتقدت الجماعة « الربان » ــ والسفينة تكتنفها العواصف ، وتحيط بها ظلمات بعضها فوق بعض فى بحر لُجّى ــ فقدت مع « المرشد » كثيرا من « الرشد » الذى تمثل فيه ؟ ! .. فدخلت بذلك الحدث المأساوى فى منعطف جديد ! ..

وعندما كان شباب الجماعة يعذبون فى السجون والمعتقلات [١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م] ، ظهرت فى فكر بعض هؤلاء الشباب ــ والطلاب منهم خاصة ــ ولأول مرة فى تاريخ الإسلاميين بمصر ــ أفكار تتساءل عن « إسلام » المجتمع ؟! وعن « إسلام » الأمة ؟!..

إن الحكومة تعذبهم ، كما كان المشركون يعذبون الذين سبقوا إلى الاسلام !.. وليس لهم من ذنب إلا الدعوة إلى الإسلام ، دينا ودنيا ، عبادة وشريعة ، مصحفا وسيفا ... أما الأمة فلقد اتسم موقفها بالسلبية إزاء محنتهم هذه ، للأحكام العرفية التى تحكم بها البلاد .. ولأن هذه الأمة لا تميل ، بالطبع ، إلى العنف والإرهاب ، حتى لقد صنعت أعظم ثوراتها بيضاء ، ولم تستسغ العنف والدم إلا فى صراعاتها مع الغزاة ؟!..

فتحت وطأة « المحنة » التى تمارسها « الدولة » .. وأمام سلبية « الأمة » .. تساءل نفر من شباب [الإخوان] ــ وطلابها خاصة ــ :

- **هل المسلمون هم : « جماعة المسلمين » ؟!..**
- **أم المسلمون هم : « جماعة الإخوان المسلمين » ؟!..**

وكان هذا التساؤل ، الذى يطرح قضية « التكفير » وعودة المجتمع إلى « الجاهلية » ، جديدا ، بل وغريبا على مصر وعلى الفكر الإسلامى بها .. لكنه ـ كما أسلفنا ـ كان مطروقا ومتداولا ، بواسطة الأستاذ أبو الأعلى المودودى وجماعته الإسلامية ، فى الهند ، منذ عشر سنوات .. ومنذ ذلك التاريخ ، الذى أعقب غياب الشيخ حسن البنا بدأ فكر المودودى يجد طريقه إلى صفوف نفر من [الإخوان] .. ولعل البداية قد كانت تلك التى يحدثنا عنها أحدهم ، فيقول : « فى سنة ١٩٤٩م ، أرسلت ، من زنزانتى رقم ٢٢ بسجن مصر ، خطابا إلى حلب ، طالبا من مكتبة الشباب المسلم مجموعة كاملة من رسائل أبو الأعلى المودودى ، لأقدم من خلالها دراسة عن فكر المودودى ، **لأوقف عبث بعض الطلبة حينذاك** . ووصلتنى ١٣ رسالة منها . **وقد علمنا وتعلمنا أن لكل أرض مناخها ومناهجها وأساليبها . والإسلام واحد من لدن عليم خبير** .. »[(١٤٤)] ؟! .

هكذا ألقيت فى أرض الإسلاميين بمصر ، وللمرة الأولى « بذرة » أفكار « التكفير » و « الجاهلية » .. صحيح أن الأغلبية قد رأت ، بعد دراسة فكر المودودى ، بالسجن ، أن فكره فى هذه القضايا هو فكر سياسى ، يرتبط بظرف المجتمع الهندى ، ولا سبيل له ولا مجال فى مصر وماماثلها .. فوحدة الإسلام الدين لاتنفى « أن لكل أرض مناخها ومناهجها وأساليبها » ؟! .. لكن « البذرة » قد ألقيت فى التربة ، محاولة النمو بفعل ظروف « المحنة » التى نزلت بالإخوان ! ..

والذين يتتبعون حركة « تأثير فكر » الأستاذ المودودى ، خارج المناخ الهندى ، ودخوله إلى الساحة المصرية والعربية ، لايجدون لهذا الفكر أثرا يذكر

---

(١٤٤) انظر كلمة « سعد سيد أحمد » على غلاف كتاب [أبو الأعلى المودودى : فكره ودعوته] تأليف : د . سمير عبد الحميد ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

إلا بعد غياب قيادة الشيخ حسن البنا .. فى ظل الافتقار إلى القيادة الفكرية التى تملأ الفراغ الناجم عن استشهاد المرشد العام ، خلت الساحة لفكر أبرز قادة العمل الإسلامى فى ذلك التاريخ : الأستاذ المودودى !.. ومنذ ذلك التاريخ ذاعت ترجمة فكره للعربية ، ونشر عدد من رسائله فى القاهرة ..(١٤٥)

وبعد قيام الثورة المصرية فى أول ذى القعدة سنة ١٣٧١هـ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م انفتح باب العلاقة بين [الإخوان] والثورة ليفضى إلى « المحنة الثانية » والأكبر ، والتى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجماعة على الإطلاق .. وهنا بدأت « بذرة » فكر الأستاذ المودودى عن « تكفير » المجتمع و « جاهليته » ترتوى من دماء « المحنة » ، وتنمو فى مناخها ... واتسعت المساحة التى بدأت تعمر بفكر « الأزمة » المتوتر ، بدلا من « الفكر الطبيعى » !.. فتخلق فى صفوف الجماعة من حول « الأديب » الأستاذ سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦م] ذلك التيار الجديد .. تيار الفصام الكامل مع الواقع .. تيار الرفض والانقلاب .. الذى انطلق من فكر المودودى - بعد أن وظفه فى مناخ غير المناخ الهندى الذى أفرزه - بل وتصاعد بغلوه أكثر وأكثر !..

● لقد رأى المودودى فى « القومية السياسية الهندية » ، ذات الأغلبية الهندوكية : الخطر الذى سيقضى بـ « ديمقراطية الأغلبية الهندوكية » على ذاتية الإسلام والتميز الحضارى للمسلمين .. فرأى فى هذه القومية ، وفى ديمقراطيتها ، وفى سلطة جماهيرها عدوانا على « الحاكمية الإلهية » .. فهى ، إذن ، « شرك » « يرتد » بالمجتمع إلى « الجاهلية » !..

---

(١٤٥) فى ١٩٥٠م طبعت بالقاهرة الترجمة العربية لكتاب المودودى [منهاج الانقلاب الإسلامى] و [نظرية الإسلام السياسية] وفى سنة ١٩٥٣م طبعت رسالته [تدوين الدستور الإسلامى]

● ورأى سيد قطب فى « القومية العربية » ، التى قاد جمال عبد الناصر [١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ ١٩١٨ - ١٩٧٠م] مدها ، وفى « ديمقراطيتها الموجهة » ، وفى سلطة الجماهير التى استقطبها المشروع « القومى - الاجتماعى » الناصرى ، الخطر الساحق للإسلاميين المقيدين بالأصفاد !.. فحكم بعدوان هذا المشروع ، بكل مكوناته ، وجميع توجهاته على « الحاكمية الإلهية » وقطع « بكفره » و « بجاهليته » !..

ولما كانت « جماهير » الأمة و « عامتها » قد استقطبت للمشروع الناصرى ، وأيدت قيادته ، فلقد خلعها فكر هذا التيار عن « عرش الخلافة » والنيابة ، التى قررها الإسلام للإنسان والأمة ، عن الله ، سبحانه وتعالى ، لأنها قد « أشركت » فى « الحاكمية » غير الله ، فلم تعد - لارتدادها « بالكفر » إلى « الجاهلية » - قائمة بحق الخلافة ، متمتعة بشرفها ... وهنا كان تصاعد سيد قطب - غلوا - بفكر المودودى - المتسم هو الآخر بالغلو ؟ !.. فالمودودى حكم « بالكفر » و « الجاهلية » على « المجتمع » ، وقطع فى هذا الحكم .. ولم يحكم بهما - صراحة وفى قطع - وإن كان قد فتح الباب لذلك ! - على « الأمة » .. أما سيد قطب ، فلقد قادته هذه المقدمات المغلوطة إلى الحكم « بالكفر » و « الجاهلية على « الأمة » و « المجتمع » جميعا ؟ !..

وبدلا من « خلافة » : « الجماعة : الأمة » ، قدم سيد قطب ، كبديل ، « خلافة » : « الجماعة : التنظيم » ، التى انفردت وتنفرد بالإسلام من دون الناس .. والتى عليها أن تبدأ من الصفر ، كما صنع الرسول - عليه الصلاة والسلام - و « جيل الصحابة الفريد » !..

إن « خلافة الأمة عن الله » ، لم تكن تمنع قيام « الجماعة - الطليعة - المنظمة » ، للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير [ولتكن منكم

أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون] [١٤٦] .. ولكن هذه « الجماعة ـ الطليعة ـ المنظمة » كانت جزءا من « الأمة المسلمة » ، أما والأمة ـ فى فكر هذا التيار الجديد ـ قد « كفرت » وارتدت إلى « جاهلية أظلم » من الجاهلية التى عاصرها الإسلام الأول [١٤٧] .. فلقد انعدم الرباط الإيمانى الذى يصل هذه « الجماعة ـ الطليعة ـ المنظمة » بـ « الأمة » ... فغدا « التنظيم الجديد » وحده : الأمة المسلمة ، بالانفصال عن الجاهلية والاستعلاء على الكفار ، والسعى ـ من نقطة الصفر ـ إلى بناء « العقيدة » ، وتجسيدها « بالحركة » فى « الجماعة » التى عليها أن تقيم « المجتمع المسلم » ، وبنفس النهج والخطوات التى تمت فى « الحقبة المكية » من دعوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الإسلام ! ..

ذلك هو « عنوان » الدعوة التى دعا إليها تيار : الرفض .. والفصام الكامل مع الواقع .. الذى ضم ويضم : الإسلاميين « الانقلابيين » ؟! ..

* * *

لقد كان حسن البنا ـ كما سبقت إشارتنا ـ يتحدث عن مصر التى « اندمجت بكليتها فى الإسلام بكليته .. عقيدته ولغته وحضارته .. فظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب حياتها .. أسماؤها إسلامية ، ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء .. وهذه المشاعر لا تهتز لشىء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالإسلام ... » ..

---

(١٤٦) آل عمران : ١٠٤ .

(١٤٧) سيد قطب [معالم فى الطريق] ص ٢١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

وكانت دعوته متوجهة إلى تخليص هذا الإسلام مما شابه من « موروث » أضاف أو انتقص من الإسلام ، بالابتداع ، أو « وافد » غربى سعى ويسعى لاقتلاع الإسلام من حياة الأمة ، فأحدث بوجوده ثنائية فى الفكر والسلوك(١٤٨) ..

وكان المودودى ـ رغم ريادته ـ فى العصر الحديث ـ فى حديثه عن « الحاكمية » و « الجاهلية » و « التكفير » ـ قد وقف عند القطع « بارتداد المجتمع » دون « الأمة » ، ولذلك كانت « الديمقراطية » والانتخابات سبلا ـ عنده ـ للإصلاح المنشود .. فالأمة لم تكفر فى نظره ، ومن ثم فإن الاحتكام إليها سبيل لتخليص الإسلام من « الجاهلية » الموروثة ومن جاهلية التغريب(١٤٩) ..

لكن المودودى كان قد فتح الباب ـ وإن فى تردد ـ لمن يأتى فيفتحه على مصراعيه ، مُضْمِراً الحكم « بكفر » الأمة و « ردتها » .. فهو قد حكم على « الواقع » و « الموروث » بالجاهلية .. وقال إن قرن الجاهلية قد عاد إلى الظهور منذ عصر عثمان بن عفان .. ثم نفى الإسلام والإسلامية عن الذين لا يحتكمون إلى الشريعة فى الفروض الاجتماعية ... وعندما عرض للمجددين عبر التاريخ الإسلامى لم يمتدح ويعجب بغير ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م](١٥٠) ؟! ..

فلما جاء سيد قطب ـ فى الظرف النكد الذى كتب فيه كتابه [معالم فى

(١٤٨) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(١٤٩) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٥٠) المرجع السابق . ص ٧٣ ـ ٧٩ .

الطريق] ـ رأى أن الأمة قد دانت بحاكمية غير الله .. لابمعنى أنها ركعت وسجدت لغير الله ، ولكن لأنها تلقت عن حاكمية الطواغيت « كل مقومات حياتها تقريبا » ؟!.. ومادامت قد أخذت « كل مقومات حياتها » عن الطواغيت فلقد « كفرت » بالإسلام كفرانا مبينا ؟!.

يقول سيد قطب ، فى الحديث عن المجتمعات الإسلامية المعاصرة : « يدخل فى إطار المجتمع الجاهلى ، تلك المجتمعات التى تزعم لنفسها أنها « مسلمة » ! . وهذه المجتمعات لاتدخل فى هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله ، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا ، ولكنها تدخل فى هذا الإطار ـ [إطار الكفر والردة والجاهلية] ـ لأنها لاتدين بالعبودية لله وحده فى نظام حياتها ، فهى ـ وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله ـ تعطى أخص خصائص الألوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلق من هذه الحاكمية : نظامها ، وشرائعها ، وقيمها ، وموازينها ، وعاداتها وتقاليدها ، وكل مقومات حياتها تقريبا !.. » (١٥١)

هنا ، وبهذا التشخيص ، تجاوز سيد قطب موقع المودودى على درب « تجهيل » المجتمع و « تكفيره » .. ثم استمر به السير على درب الغلو حتى صرح بمالم يصرح به المودودى ، فحكم ـ قاطعا ـ « بكفر » « الأمة » ، وليس فقط « المجتمع » و « الدولة » .. قطع فى هذا الحكم قطع الواثق المستيقن .. بل لقد حكم بكفر هذه الأمة منذ قرون وقرون !..

فبعد أن حكم على كل المجتمعات ـ المسماة « إسلامية » ! ـ بالارتداد عن

---

(١٥١) [معالم فى الطريق] ص ١٠١ .

« الشريعة » ، إذ « **ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها ...**»[152] .... تقدم فحكم بانعدام وجود الأمة المسلمة ، لا فى عصرنا وحده ، بل ومنذ قرون كثيرة .. « **فوجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة ..**»[153] !.

وفى مكان آخر ، يزيد هذا الحكم تأكيدا ، فيقول : « إن موقف الإسلام من هذه المجتمعات كلها يتحدد فى عبارة واحدة : **إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها ...**»[154] !.

ومثل « المجتمعات » « الناس » ، أفرادا وجماعات .. فهم ـ برأيه ـ غير مسلمين ، ولابد من دعوتهم للدخول فى الإسلام من جديد.. فعنده أن « المسألة فى حقيقتها هى مسألة كفر وإيمان ، مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية وإسلام ، وهذا ماينبغى أن يكون واضحا .. **إن الناس ليسوا مسلمين ـ كما يدعون ـ وهم يحيون حياة الجاهلية .. ليس هذا إسلاما ، وليس هؤلاء مسلمين ، والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام ، ولتجعل منهم مسلمين من جديد !**»[155] ..

وعبارة أخرى ، يصعد بها فى الغلو إلى مكان غير مطروق وحكم غير مسبوق ، يعلن فيها أن هذا الكفر لم يقف عند حدود « كفر الشريعة » ـ كما أشار المودودى ـ بل لقد أصبح ، أيضا ، « كفر العقيدة » .. فهو يقول : « **ينبغى أن**

---

(152) المرجع السابق . ص ٣٩.

(153) المرجع السابق . ص ٨.

(154) المرجع السابق . ١٠٣ .

(155) المرجع السابق . ص ١٧٣

يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة ـ حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ، وتشهد شهادات الميلاد بأنهم مسلمون !... فإذا دخل فى هذا الدين عصبة من الناس .. فهذه العصبة هى التى يطلق عليها اسم « المجتمع المسلم » ... »[156].

لقد كفرت الأمة ـ برأى سيد قطب ـ كفر شريعة وعقيدة ... والمهمة ـ برأيه ـ هى « **إعادة إنشاء هذا الدين** » ، بواسطة العصبة التى آمنت بفكره ، والتى هى ـ وحدها ـ « المجتمع المسلم » ، من دون الناس أجمعين ؟؟ ! ..

* * *

هكذا تخلّق فى تيار اليقظة الإسلامية تيار الرفض الانقلابى ، الذى حكم بكفر الواقع .. والتراث .. والمجتمع .. والأمة .. ومن ثم رفض ويرفض العمل من خلال القنوات والمؤسسات التى أقامتها الأمة .. فجميعها ـ بنظره ـ أدوات للجاهلية ، قامت لتدعيم الجاهلية المهيمنة على هذه المجتمعات .. ولذلك كان النهج الانقلابى الذى سلكه ويسلكه هذا الفصيل من فصائل اليقظة الإسلامية ! ..

وفى إطار هذا الفصيل تتعدد الجماعات .. لكنها جميعا تتفق فى هذا التقييم للواقع وللمجتمعات الإسلامية .. فهى بنظرها جميعا « جاهلية » .. وبعضها يضيف وصف « الكفر » وحكمه إلى وصف « الجاهلية » وحكمها .. والبعض الآخر يعمم هذا الحكم على الأمة .. وهناك من يراوغ فيحكم « بالجاهلية »

(156) المرجع السابق . ص 40

دون « الكفر » . تجنبا لسخط الجمهور ، ومدا لحبال الدعوة فى صفوف الجماهير... وكأن هناك فرقا بين « الجاهلية » و « الكفر » . وجاهلين ليسوا بكفار ؟!...

وإذا كانت كثير من التفاصيل ـ فى المناهج والسبل والرؤى والمواقف السياسية ـ قد ميزت جماعات هذا الفصيل وجمعياته.. إلا أن الجامع له هو هذا السبيل الذى سلكه حتى تخلّق فى واقع اليقظة الإسلامية المعاصرة.. وهذه الأحكام التى حكم بها على واقع المسلمين !.(١٥٧)

(١٥٧) لمزيد من التفاصيل عن هذا التيار الرافض ، انظر الفصل الذى كتبناه عن « تيار الرفض الكامل للواقع » بكتابنا [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] ص ١٤٣ ـ ١٧٢ . وكتابنا [الفريضة الغائبة . عرض وحوار وتقييم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م وطبعة بيروت سنة ١٩٨٣ م . وطبعة دار البراق بتونس سنة ١٩٨٦ م .

وأخيرًا ..
ما العمل ؟؟..

لقد جاء على أمتنا حين من الدهر سادت فى الكتابات التاريخية ـ سواء أكان ذلك فى التاريخ السياسى أو الحضارى والفكرى ـ أحكام وتقييمات الاستشراق والمستشرقين... تلك التى قدمت وأبرزت قسمات «الظلم» و«الاستبداد» و«التشرذم» و«المذاهب الشاذة» و«فرق الغلو».. الخ.. الخ .. حتى ظن كثيرون أن هذا هو تاريخ الإسلام والمسلمين.. وكان الهدف الخبيث : نزع الثقة ، واستلاب الكبرياء المشروع ، حتى نواجه تحديات العصر وظهرنا غير مسنود ؟!..

واليوم ... نواجه موقفا شبيها فى كثير من الكتابات التى تتحدث عن اليقظة الإسلامية الحديثة ، والمعاصرة بوجه خاص ... فكثيرون هم الذين يسلطون كل الضوء على قسمات الغلو وجماعاته ، حتى لكأنها هى كل اليقظة الإسلامية وجميع فصائلها... والكتابات التى تبرز مواطن السخرية والأفكار الشاذة من مقولات تيار الرفض الانقلابى تكاد توهم القراء أن هذه هى كل مقولات ومقالات كل الإسلاميين ؟!..

ونحن ، مع رفضنا للغلو ، ونقدنا لجماعات وجمعيات تيار الرفض الإسلامى ، نود أن ننبه إلى عدد من الحقائق فى هذا المقام.. منها :

● **أن الإسلام هو فكرية ـ «أيديولوجية» ـ الأمة.. وإذا كانت هذه الأمة قد اجتمعت على أصول الدين وعقائده . فتلك ميزة كادت أن تنفرد**

بها بين أمم الشرائع والرسالات أما خلافات هذه الأمة فهى فى « الفروع » المتعلقة بالحضارة والعمران ، ومنها السبل والرؤى والمناهج المرشحة لإقامة الدولة الإسلامية ـ وهى من الفروع ـ ولأسلمة الواقع والمعارف والعلوم .. وجميعها من مهام الحضارة ومباحثها ، وليست من أصول الدين ولا من أمهات الاعتقاد ... فالخلاف فيها طبيعى .. بل وصحى .. وأيضا ضرورة من الضرورات .. ومن الذى يبلغ به الخيال حد تصور الاتفاق والاجتماع والإجماع فى كل الفروع والجزئيات والتفاصيل بين أمة يبلغ تعدادها المليار ؟!.. إن ذلك مما يستحيل فى حزب من الأحزاب ، فما بالنا بأمة بأسرها ؟!..

ثم ، أى خيال ذلك الذى يجمح بصاحبه حتى يتوقع براءة صفوف أمة بأسرها من الآراء المغالية والأحكام الشاذة والاتجاهات المريضة فى ميدان فسيح ، تختلف فيه الآراء ، وتتنوع المنطلقات ، وتتعدد الغايات ؟!..

إن الاختلاف بين الإسلاميين هو من الأمور الطبيعية .. وشذوذ بعض الآراء وفجاجة بعض التقييمات والأحكام ، هى مما يدخل فى نطاق « الأمر المنتظر والمفهوم » !..

● إن درجة الحدة والغلو اللتين بلغهما « الواقع » الإسلامى فى مجافاته للنهج الإسلامى ، عامل أساسى فى تبلور هذا الفصيل الرافض الانقلابى ، الذى يمثل « الاحتجاج ـ الغاضب » على هذا الشذوذ عن نهج الإسلام .. إنه « إفراط » استفزه واستنفره « التفريط » .

وإذن ، فنحن لسنا بإزاء « حالة غير مفهومة .. وغير مبررة » تستعصى على العلاج .. وإنما نحن ـ مرة أخرى ـ بإزاء ظاهرة هى مما يدخل فى نطاق « الأمر المنتظر والمفهوم » !.. وهو أمر ليس مستحيل العلاج ، شريطة أن

يتوجه العلاج إلى « الأسباب » ، وليس فقط إلى « الأعراض » ؟! ..

● إن فصيل الرفض الانقلابى ـ فى حركة اليقظة الإسلامية ـ يبلغ فى الغلو حد اختزال تراث هذه الأمة الحضارى ، فلا يقبل منه سوى ابن تيمية [٦٦١ـ٧٢٨هـ ١٢٦٣ـ١٣٢٨م] وتلميذه ابن القيم [٦٩١ـ٧٥١هـ ١٢٩٢ـ١٣٥٠م] قديما ، والمودودى وسيد قطب فى العصر الحديث[١٥٨] .. وما عدا ذلك من تراث هذه الأمة وإبداعها الحضارى هو « جاهلية » خالصة ، أو فكر شابته وغبشته هذه الجاهلية فأخرجته عن تصورات الإسلام ؟! ..

وهذا الرأى ، على شذوذه وغرابته ، ليس بدعا بين الآراء الشاذة التى تزخر بها المذاهب والأنساق الفكرية ... ففى إطار الماركسية ـ كنظرية .. وأحزاب .. وتطبيقات .. ودول .. ونهج فكرى .. وإبداع نظرى فى مختلف الميادين ـ فى عالم الماركسية ، هناك من يختزلها إلى « تروتسكى » [١٨٧٩ـ١٩٤٠م] وأفكاره ومذهبه فى الثورة العالمية فقط ... وهناك من يختزلها إلى « ماوتسى تونج » [١٨٩٣ـ١٩٧٦م] ورأيه فى الثورة الثقافية وحده ... وهناك « الجيفاريون » .. وعشرات من منظمات الرفض والعنف التى بلغت فى الرفض مبلغ العصابات وقطاع الطريق ؟! ...

ومع ذلك ، فإن هذا الغلو لا يثير السخرية التى تنسحب على الماركسية كلها ، على النحو الذى هو حادث فى تناول ظاهرة الغلو الإسلامى ؟! .. فهل الغلو طبيعى فى صفوف حركة فكرية ، محدودة العدد .. وغير طبيعى فى صفوف فكرية أمة بأسرها ؟ ! .. أم أن العداء « للخيار الإسلامى » والرغبة فى إهالة التراب على

---

(١٥٨) صبرى نور ـ جريدة [النور] ـ الأسبوعية ـ القاهرة ـ ٢٤ ـ ٩ ـ ١٩٨٦ م

« اليقظة الإسلامية » هو السبب فى اختلاف واختلال الموازين ؟ ! ..

● إن حجم فصيل الرفض الانقلابى فى تيار اليقظة الإسلامية محدود .. لكن « الغضب » و « الاحتجاج » ، عادة ، يثير من الضجيج والغبار أكبر من حجم المصدر الآتى منه « الغضب والاحتجاج » .. ولذلك فإن وجود هذا الفصيل ـ فضلا عن طبيعته ـ وارتباط هذا الوجود بأسبابه ـ فإنه لا يثير ـ عند الذين يعرفون حجم تيار اليقظة الإسلامية ـ أى انزعاج ؟ ! ..

* * *

إن اليقظة الإسلامية : خيار أمة ، وليست « أيديولوجية » صفوة أو نخبة أو شريحة أو حزب طليعى ، كما هو حال غيرها من « الأيديولوجيات » .. أمة تنحاز إلى ذاتها وهويتها .. وقواها « المحركة والحركية » لابد وأن تعكس تنوع الأمة وثراءها ، وتمايز الرؤى والمصالح والمنطلقات ، مع وحدة الهدف : **أن تعود الأمة كاملة إلى كامل إسلامها ، وأن يتجدد واقعها بواسطة التجديد للدين ، كى تتجاوز الأمة والواقع قيود التخلف الموروث ومسخ فكرية التغريب ، فتنهض نهضتها المستقلة ، وتعطى عطاءها المتميز إثراء للفكر الإنسانى ، من جديد ..**

والقوى المحركة والمتحركة ـ العقل القائد ـ فى حركة اليقظة الإسلامية ليست ـ كما يوهم البعض ـ فصيل الرفض الانقلابى وحده .. فهناك :

● الجماعات والجمعيات والأحزاب ، المنتشرة فى طول الوطن الإسلامى وعرضه .. والتى أشرنا ـ فى هذه الدراسة ـ إلى نماذج لها ..

● وهناك ما يمكن أن تسميه « التيار الحضارى » .. الذى يضم مواكب وكتائب من الأعلام والدعاة والعلماء المجددين والمجتهدين .. فى الجامعات والمعاهد الإسلامية ـ حكومية وأهلية ـ وفى مراكز البحث التى تتوفر على بعث

التراث وإحيائه ، وتبويب الموسوعات الإسلامية وفهرستها ، وتقنين مدونات الفقه الإسلامى لتيسير الانتفاع بها ، والإبداع العقلى فى ميادين إسلامية المعارف والعلوم ، ورصد المتغيرات الواقعية ، وفتح منافذ الاجتهاد والتجديد .. الخ .. الخ .. والمجامع اللغوية ، والفقهية .. والإذاعات -السمعية والمرئية- .. والصحف والمجلات ودور النشر ومنابر الفكرالإسلامية ... إلى آخر مواكب وكتائب العلماء والدعاة الذين يحملون عبء الجانب الحضارى فى حركة اليقظة الإسلامية ......

وهكذا .. نستطيع أن نميز فى القطاع العامل والمؤثر والقائد بتيار اليقظة الإسلامية تيارات ثلاث :

(أ) المشتغلون بحضارة الإسلام ، يجددونها ، ويصنعون البديل للحضارة الغربية الغازية ، ويصوغون العقول القادرة على ملء المواقع التى يحتلها المتغربون ..

(ب) وفصيل « الغضب والاحتجاج » ، الرافض للواقع رفضا كاملا .. والمندفع بكليته - رغم علمه القليل ، وتعصبه الكثير ، وحماسه الأكثر- لاقتناص « الدولة والسلطة » ، استعجالا للنصر وجنى الثمار ..

(جـ) من هم بين بين ، من الجماعات والجمعيات والأحزاب المشتغلة بالإسلام السياسى ، من خلال القنوات الشرعية والسبل المشروعة المتاحة فى مجتمعاتها العلمانية ..

والمطلوب .. هو أن لا يكون كل فريق من هؤلاء الفرقاء فرحون بما لديهم وحده .. ورافضون لما لدى الآخرين رفضا كاملا وحادا[159]

---

(١٥٩) انظر فى تزكية التيار الحضارى ، وإدانة التيار الانقلابى مقال الأستاذ محيى الدين عطية : والعمل =

فبعث حضارة الإسلام وتجديد الدين بالاجتهاد هو السبيل لصياغة «دليل العمل» المرشد لتيار اليقظة الإسلامية .. وبدونه ستضل الطريق وتفقد الاتجاه ..

وفصيل الرفض الانقلابي ، يزلزل مسلمات التيار العلماني ، وينتزع منه جماهير الشباب في مختلف الميادين والمجالات ، ويلفت النظر ـ بغضبه واحتجاجه ـ إلى موكب اليقظة الإسلامية ، ويلقى الرعب في قلوب الأعداء .

أما الفصيل الثالث ـ الجماعات والجمعيات والأحزاب ، المشتغلة بالإسلام السياسي من خلال القنوات الشرعية والأطر المشروعة ـ فإنه مرشح ليكون همزة الوصل وحلقة الربط وقناة الاتصال التي «تُرَشِّد» فصيل الرفض الانقلابي باجتهادات التيار الحضاري ، ليجتمع «العقل» مع «العمل» ، فتنهض اليقظة الإسلامية على الساقين الاثنتين... فإذا «تقاربت» التصورات .. وتآزرت الجهود .. وتساندت الخطوات ، كان الغرس أجود ، والنمو أسرع .. والفاقد أقل ..

وإذا كان «ترشيد» فصيل الرفض الانقلابي باجتهادات المفكرين الحضاريين الإسلاميين ، الشرط الضروري كي لا يصل الحماس والاندفاع بجموع الشباب المسلم إلى إحباط جديد ... فإن اجتهاد «العقل المسلم» على مقربة من حرارة القلوب المسلمة الشابة ، هو السبيل لإخراج كثير من مفكرينا وعلمائنا من الأبراج العاجية ، ومتاحف الآثار ومناطق الحفريات ؟!..

إن اليقظة الإسلامية هي أعظم ظواهر العصر الذي نعيشه .. وهي طوق النجاة لخير أمة أخرجت للناس .. وعلى نجاحها تتوقف صياغة «البديل

(=) الجامع بين مفهومين» مجلة [الأمة] القطرية العدد ٧٢ ـ ذو الحجة سنة ١٤٠٦ هـ أغسطس سنة ١٩٨٦ م .

الحضارى» المرشح لإنقاذ الإنسانية من المأزق والطريق المسدود اللذين صنعتهما الحضارة الغربية بإنسانها . ثم حاولت وتحاول ـ بالهيمنة والاحتواء والعدوان ـ فرضهما على الإنسانية جمعاء .

إن الذين يسترجعون صورة الشرق يوم ظهر الإسلام . سيملؤهم اليقين بالحقيقة القائلة : إن حياة وإحياء الشرق وأمته إنما هو : «هبة الإسلام» !..

والذين ينظرون إلى صورة الشرق اليوم لابد وأن يملأهم اليقين بالمأثورة القائلة لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : الإحياء الإسلامى .. واليقظة الإسلامية .. فالإسلام هو الرسالة الخالدة لهذه الأمة الواحدة ..

وكما أن الماء يحيي الأرض الموات .. «فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء»[160] !... وصدق الله العظيم إذ يقول : [يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ...][161] .

صدق الله العظيم .

---

(١٦٠) من كلمات لقمان الحكيم لابنه . رواه مالك فى الموطأ .

(١٦١) الأنفال : ٢٤ .

المصادر

- القرآن الكريم
- كتب السنة :

صحيح البخارى . طبعة دار الشعب القاهرة .

صحيح مسلم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

سنن الترمذى . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

سنن النسائى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

سنن أبو داود . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

سنن ابن ماجة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

سنن الدارمى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

مسند الإمام أحمد . طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

موطأ الإمام مالك . طبعة دار الشعب . القاهرة .

آدم متز : [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

ابن أبى الحديد : [شرح نهج البلاغة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

ابن باديس : [كتاب آثار ابن باديس] . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

ابن تيمية : [العبودية] و [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان] و [الواسطة بين الحق والخلق] . طبعة بيروت ـ دار الفكر ـ ضمن «مجموعة التوحيد» .

	:	[منهاج السنة النبوية] طبعة القاهرة ـ الأولى ـ.
	:	[الفتاوى الكبرى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
ابن حزم	:	[رسائل ابن حزم] . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م.
ابن خلدون	:	[المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.
ابن رشد	:	[فصل المقال] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م.
ابن سعد	:	[الطبقات] طبعة القاهرة . دار التحرير.
ابن عبد الوهاب	:	[هدية طيبة] و [هذه مسائل الجاهلية] طبعة القاهرة ـ المكتبة السلفية ـ ضمن «مجموعة التوحيد».
ابن عساكر	:	[تهذيب تاريخ ابن عساكر] طبعة دمشق.
ابن القيم	:	[أعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م
	:	[الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م.
ابن منظور	:	[لسان العرب] طبعة القاهرة . دار المعارف.
أبو شامة	:	[كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م.
أبو يوسف	:	[كتاب الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م.
أحمد صدقى الدجانى (دكتور)	:	[الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م
أحمد محمد شاكر	:	[دائرة المعارف الإسلامية] طبعة القاهرة.
أرنولد	:	[الدعوة إلى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م.
إسماعيل أحمد ياغى (دكتور) ومحمود شاكر	:	[تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر] طبعة الرياض سنة ١٤٨٤ هـ.
الأشعرى	:	[مقالات الإسلاميين] طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م.

الأصفهانى : [الأغانى] طبعة القاهرة . دار الشعب .
الأفغانى : [الأعمال الكاملة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
أمين سامى (باشا) : [التعليم فى مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩١٧ م .
ر . باريه : [دائرة المعارف الإسلامية] طبعة القاهرة .
التهانوى : [كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
التيفاشى : [أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
الجاحظ : [رسائل الجاحظ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
: [كتاب الحيوان] طبعة القاهرة ـ الثانية ـ .
الجبرتى : [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] طبعة دار فارس . بيروت .
الجرجانى : [التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
جيوم : [الفلسفة وعلم الكلام] طبعة بيروت ـ ضمن كتاب «تراث الإسلام» ـ سنة ١٩٧٢ م .
حسن البنا : [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] طبعة القاهرة . دار الشهاب .
: [رسالة المؤتمر الخامس] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
رضوان السيد (دكتور) : [الأمة والجماعة والسلطة] طبعة بيروت سنة ١٩٨٤ م .
م. روزنتال (وآخرين) : [الموسوعة الفلسفية] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .
الزركلى : [الأعلام] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
سلامة موسى : [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .
سمير عبد الحميد رضوان (دكتور) : [المودودى : فكره ودعوته] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م
سيد قطب : [معالم فى الطريق] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

شكيب أرسلان : [حاضر العالم الإسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .
صبرى نور : مجلة [النور] عدد ٢٤ـ٩ـ١٩٨٦ م .
صفى الدين البغدادى : [مراصد الاطلاع] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
طه حسين (دكتور) : [فى الشعر الجاهلى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .
: [مستقبل الثقافة فى مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
عبد الجبار بن أحمد (القاضى) : [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م .
عبد الكريم الخطيب : [الدعوة الوهابية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م .
عبد المنعم أبو بكر (دكتور): [أخناتون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م .
على سامى النشار (دكتور) : [مناهج البحث عند مفكرى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
على عبد الرازق : [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .
على فهمى خشيم (دكتور) : [الجبائيان : أبو على وأبو هاشم] طبعة طرابلس ـ ليبيا ـ سنة ١٩٦٨ م .
عمر رضا كحالة : [معجم القبائل العربية] طبعة دمشق سنة ١٩٦٨ م .
الغزالى : [الاقتصاد فى الاعتقاد] مطبعة صبيح ـ القاهرة .
قدرى حافظ طوقان : [تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
القرطبى : [الجامع لأحكام القرآن] طبعة القاهرة . دار الكتب المصرية .
القلقشندى : [صبح الأعشى] طبعة القاهرة . دار الكتب المصرية .
الكواكبى : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
الماوردى : [أدب القاضى] طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م .
: [أدب الدنيا والدين] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م

: [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ: [المعجم الكبير] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
: [معجم ألفاظ القرآن الكريم] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
: [المعجم الفلسفى] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
محمد حميد الله الحيدر آبادى (دكتور) : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
محمد عاطف غيث (دكتور): [قاموس علم الاجتماع] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
محمد عبده (الأستاذ الإمام) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
: [الإسلام والرد على منتقديه] ـ مجموعة أبحاث ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
محمد عمارة (دكتور) : [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .
: [فجر اليقظة القومية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م . وطبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .
: [العلمانية ونهضتنا الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م .
: [تيارات الفكر الإسلامى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م ، سنة ١٩٨٤ م وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م
: [مسلمون ثوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .
: [الاستقلال الحضارى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م وطبعة بيروت سنة ١٩٨٦ .
: [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .
: [المودودى والصحوة الإسلامية] طبعة بيروت سنة

١٩٨٦ م وطبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .
: [الفريضة الغائبة .. عرض وحوار وتقييم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م ، وطبعة بيروت سنة ١٩٨٣ م .
محمد فؤاد عبد الباقى : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب القاهرة .
محمد محمد حسين (دكتور) : [الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .
محمد مختار المصرى (باشا) : [التوفيقات الإلهامية] طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م
محمود شاكر : [اقتصاديات العالم الإسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
محيي الدين عطية : مجلة [الأمة] ـ القطرية ـ عدد ذو الحجة سنة ١٤٠٦ هـ أغسطس سنة ١٩٨٦ م .
مصطفى الفقى (دكتور) : [الأقباط فى السياسة المصرية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .
المقريزى : [الخطط] طبعة القاهرة . دار التحرير .
المهدى (محمد أحمد) : [منشورات المهدية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
المودودى (أبو الأعلى) : [الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٤٠١ هـ .
: [واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
: [الأمة الإسلامية وقضية القومية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .
: [نظرية الإسلام السياسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
: [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

: [القانون الإسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م.
: [الحكومة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م.
: [تدوين الدستور الإسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م.
: [الإسلام والمدنية الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م.

ناصيف نصار (دكتور) : [مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ] طبعة بيروت سنة ١٩٧٨ م.

النويرى : [نهاية الأرب فى فنون الأدب] طبعة القاهرة. دار الكتب المصرية.

وجيه كوثرانى (دكتور) : [وثائق المؤتمر العربى الأول] طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م.

وينسنك (ا.ى) : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦-١٩٦٩م.

الفهــرس

رقم الإيداع : ٥٣٤١/ ١٩٨٩
الترقيم الدولى : ٣ ـ ٣٢٩ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

الطريق إلى اليقظة الاسلامية

إن سكان العالم الإسلامي يمتلكون ميزات «الأمة الواحدة» ، وتجمعهم جميعًا السمات والقسمات التي تؤلف بينهم حضاريًا بالحضارة الإسلامية الواحدة ، وفي القلب والعقل من كل فرد من أفراد هذه الأمة الواحدة ، ذات الحضارة الواحدة هذه العقيدة الدينية ، التي تجمع الكل على إله واحد ، ونبي واحد ، وكتاب واحد ، وقبلة واحدة .. هي ذات العقيدة التي سبق وجعلت من قبائل الجاهلية الجاهلة المتناحرة خير أمة أخرجت للناس ، وصنعت من البداوة أعظم المنارات الحضارية التي عرفها تاريخ الإنسان .

فأين الخلل إذن ؟.. ولماذا هذه الغفلة التي تحول بين العقيدة وبين التجدد الحضاري مرة أخرى ؟!.. وكيف ولماذا ومتى دخلت هذه الأمة دور التوقف فالتراجع فالجمود ؟.. وكيف السبيل إلى يقظة إسلامية تبعث حضارتنا الإسلامية من جديد ، هذا البعث الذي يجعل هذه الأمة الواحدة تتقدم إلى الإنسانية ، مرة أخرى بالإسلام ـ رسالتها الخالدة ـ لتسهم من جديد في إخراج الإنسانية من المأزق الحضاري الذي يمسك منها بالخناق ؟!.